مركز دراسات الوحدة العربية



سلسلة اطروحات الدكتوراه (٢٦)

المجتمع والدولة والإستعمار في ليبيا

دراسة في الأصول الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لحركات وسياسات التواطؤ ومقاومة الاستعمار

١٨٣٠ - ١٩٣٢

كتور علي عبد اللطيف حميدة

المجتمع والدولة والإستعمار في ليبيا

دراسة في الأصول الاجتماعية والاقتصادية والثقافية
لحركات وسياسات التواطؤ ومقاومة الاستعمار
١٨٣٠ - ١٩٣٢



مركز دراسات الوحدة العربية

سلسلة اطروحات الدكتوراه (٢٦)

المجتمع والدولة والإستعمار في ليبيا

دراسة في الأصول الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لحركات وسياسات التواطؤ ومقاومة الاستعمار ١٨٣٠ - ١٩٣٢

الدكتور علي عبد اللطيف حميدة

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

حميدة، علي عبداللطيف

المجتمع والدولة والإستعمار في ليبيا: دراسة في الأصول الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لحركات وسياسات التواطؤ ومقاومة الاستعمار، ١٨٣٠ - ١٩٣٢/علي عبداللطيف حميدة.

٢٢٦ص. -(سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ ٢٦)

ببليوغرافية: ص ٢٠٩ - ٢٢٦.

١. ليبيا - التاريخ - الحكم العثماني. ٢. ليبيا - التاريخ - الاحتلال الإيطالي. ٣. الاستعمار الإيطالي - ليبيا - أ. العنوان. ب. السلسلة.

961.203

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣ - بيروت - لبنان

تلفون : ٨٦٩١٦٤ - ٨٠١٥٨٢ - ٨٠١٥٨٧

برقياً: «مرعربي» - بيروت

فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

الطبعة الأولى: بيروت، كانون الثاني/يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية: بيروت، شباط/فبراير ١٩٩٨

إهـــداء

«إلى ذكرى جدي علي الذي جاهد ضد الغزو الإيطالي وأخبرني قصة حياته عندما كنت طفلاً، وإلى ذكرى جدتي عائشة التي ماتت في المنفى في «فايا» شمال تشاد قبل أن أولد، وإلى ذلك الجيل من الليبيين الذين قاوموا الاستعمار من أجل الحرية والكرامة الإنسانية أهدي هذا الكتاب».

المحتويات

مقدمة الطبعة الثانية

ابتهجت كثيراً لنفاد الطبعة الأولى من كتابي عن التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمجتمع الليبي خلال فترة التكوين من بداية ثلاثينيات القرن الماضي وحتى ثلاثينيات القرن العشرين إلى قبيل ظهور الدولة الوطنية الحديثة. ابتهجت أكثر للاستقبال الطيب للكتاب بعد ترجمته إلى اللغة العربية في البلدان العربية وبين الأهل في ليبيا. هذا الاستقبال له معنى كبير كمبرر للدراسة والحياة في بلاد الغربة الأمريكية.

أريد في البداية أن أوضح بعض الخلفيات المنهجية والايديولوجية التي لا بد من الوعي بها حتى يفهم الغرض الأساسي من كتابة هذه الدراسة التي استمرت خمس سنين في أرشيفات ومكتبات جامعات في الولايات المتحدة، وبريطانيا وإيطاليا، ومصر وليبيا. أنا في الواقع لست مؤرخاً تقليدياً، فتخصصي ليس في حقل التاريخ، ولكن في حقل العلوم السياسية وبالتحديد النظرية السياسية. ولذلك فإن الإشكاليات النظرية والمنهجية للكتاب ليست نابعة من دراسة للخصوصية العربية الإسلامية من خلال التجربة الليبية ولكن من العكس. الدراسة هي تطبيق لأسئلة منهجية تتعلق بدراسة ظاهرة استمرارية العلاقات غير الرأسمالية في مجتمعات الأطراف التي مرت بالإلحاق الاستعماري الرأسمالي وبالتالي فخصوصية التجربة الليبية درست في ظل الإطار الرأسمالي العالمي. الكتاب ينطلق أيضاً من نقد نظري لمفهوم الحداثة الأوروبية والكتابات الأكاديمية العربية المتأثرة بهذا الإطار النظري، وبالذات التركيز على دور الدولة في التنمية والمقارنة المهووسة بالنموذج التاريخي الأوروبي سواء في ما يتعلق بالإقطاع، أو الطبقات، أو الايديولوجيا بدلاً من دراسة التكوينات التاريخية العربية في إطارها ومرجعيتها الجغرافية والإسلامية، ومقارنتها بالتجارب الأخرى في العالم الثالث سواء في آسيا، أو افريقيا أو أمريكا اللاتينية.

أنا أنتمي إلى جيل السبعينيات الذي تربى في ظل الحركة العربية المعادية للاستعمار. كنا كطلاب في القاهرة نعتقد بأننا جزء من طليعة رائدة تعرف ما يريد المجتمع ولم يكن لدينا وقت وصبر للاستماع لتجارب الأجيال السابقة أو رؤية أخطاء الحركة القومية والاشتراكية العربية، ولذلك فإن هذه الدراسة نابعة من الاعتراف بالاحباطات والفشل النابع من اللهث وراء الدولة التنموية ووعي بضرورة الإنصات وفهم جذور المجتمع

التاريخية والاجتماعية والثقافية.

للأسباب السالفة ليس الهدف من هذا الكتاب إبراز دور الزعماء والأبطال من الأعيان وشيوخ القبائل أو إحراج الآخرين الذين تعاونوا مع الدولة الاستعمارية الإيطالية، هذا فهم سطحي وقصير النظر، ولكن الهدف الأساسي هو محاولة فهم جذور، ومضامين ودلالات المجتمع الليبي وثقافته الشعبية من خلال الاستماع لكل الأصوات التي تعكس تعدديته في فترة التكوين.

أود أيضاً أن أشكر مركز دراسات الوحدة العربية على إعادة طبع الكتاب وتوزيعه في معظم أنحاء الوطن العربي.

علي عبد اللطيف حميدة

شكر وتقدير

ليس بالامكان ذكر أسماء العديد من المؤسسات والأفراد الذين ساعدوني في جمع مادة هذه الأطروحة التي قدمتها الى قسم العلوم السياسية في جامعة واشنطن/ سياتل لنيل درجة دكتوراه الفلسفة في العلوم السياسية. ولكنني أود أن أعبر عن خالص شكري وتقديري لمجموعة محددة من الأفراد والجامعات على ارشادهم، تشجيعهم ونقدهم العلمي أيام مرحلة تجميع وكتابة هذه الدراسة، التي صدرت في كتاب باللغة الإنكليزية عن جامعة ولاية نيويورك في آذار/ مارس سنة ١٩٩٤.

أود أولاً شكر الأخ محمد عبد الباقي الهرماسي على ملاحظاته النقدية على الاطروحة، كذلك الأخ رفعت علي أبو الحاج الذي استفدت من اطلاعه الواسع على التاريخ العثماني ونقده المنهجي الصارم الذي شجعني على توضيح أسئلة البحث ومنهجيته.

في ليبيا أود شكر الأخوين يوسف جلالة وعلي الدوكالي بمكتبة جامعة سبها، والأخ محمد الجراري، والأخ حامد وحيدة بمركز دراسات جهاد الليبيين، والأخ رمضان قديدة بدار المحفوظات التاريخية في طرابلس على تسهيل جمع المعلومات العربية.

في إيطاليا أود شكر الأخ عبد الرحمن شلقم أمين المكتب الشعبي الليبي ومسؤولي المعهد الايطالي الافريقي الذين سهلوا لي مهمة جمع المراجع الايطالية. أما في الولايات المتحدة فلقد كنت محظوظاً بالدراسة بإشراف أستاذ ليبرالي خالٍ من التعالي تجاه العالم الثالث دانيال لف. كذلك موظفات قسم الاعارة بمكتبة جامعة واشنطن اللواتي يستحققن كل شكر لتوفير اي كتاب أو مخطوط احتجته داخل الولايات المتحدة وأوروبا.

في مصر فتحت عيني على دراسة العلوم السياسية، حيث قضينا أربع سنين من أخصب السنين في القاهرة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، لذا لا بد أن أذكر امتناني لاساتذتي علي الدين هلال، والراحل حامد ربيع، وصديقي سيد العربي حسن بجامعة الزقازيق الذي دلني

على الوثائق المتعلقة بالقبائل الليبية في مصر في القرن التاسع عشر، وأحمد شعير الذي زودني بمعلومات مهمة عن علاقة فزان بتونس، هذه الوثائق أضافت دليلاً مهماً على دراسة الاقتصاد الإقليمي لشرق ليبيا وغرب مصر.

ولكنني في الختام مدين لتضحية وحب وتشجيع والدي، الذي ساعدني على مواصلة تعليمي الجامعي في القاهرة والعالي في الولايات المتحدة. أرجو أن تكون هذه الدراسة وفاء لبعض الذين أعانوني على كتابة تاريخ جيلهم برؤية جديدة.

برغم تقديري وشكري للذين ساعدوني في تجميع مادة البحث، إلا أنني مسؤول مسؤولية كاملة عن أي خطأ أو إهمال في هذه الدراسة.

تقديم

رفعت علي أبو الحاج(*)

مضى عقد ونصف تقريباً منذ أن نشر د. ادوارد سعيد كتابه الهام الاستشراق(1). في هذه الفترة، أدى نقده الدراسات الغربية عن الشرق، والعالم العربي والاسلامي بالذات، إلى جدل وحوار علمي في الأوساط الأكاديمية والفكرية الغربية والعربية. وعلى الرغم من الاطراء والمديح لإنجاز سعيد العلمي في تبيان الارتباط بين المصالح السياسية والتوسع الاستعماري من ناحية، ومناهج دراسة الشرق والعالم العربي والاسلامي من قبل الباحثين الغربيين من ناحية أخرى، فإن بعض الدراسات النقدية لكتاب سعيد طرحت بعض الاشكاليات المنهجية والتحليلية، كما نجد في مراجعة د. صادق جلال العظم التي نشرت بالعربية في مجلة الحياة الأدبية أولاً، ثم ترجمت للانكليزية في عدد لمجلة خمسين(2) *Khamsin*. أريد أن أنتهز مناسبة نشر كتاب د. علي عبد اللطيف حميدة باللغة العربية لطرح بعض الأسئلة المنهجية من خلال مناقشة وعرض نقد إدوارد سعيد للدراسات الاستشراقية وردود الفعل وتأثير هذا النقد في دراسات السنوات الأربع عشرة الماضية في الأوساط الأكاديمية بالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا. أريد بالتحديد أن أركز على امكانية طرح منهجية نقدية جديدة لدراسات الشرق الأوسط لتغطية ما أسميه الفراغ المنهجي الذي تركه تفكيك (Deconstruction) الدراسات الاستشراقية التقليدية.

هناك ثلاث مدارس فكرية هامة ظهرت في العقد الأخير، تبلورت كردّ فعل على نقد سعيد الاستشراق التقليدي. هذه المدارس لها وشائج مشتركة وإن كانت تختلف عن بعضها في جوانب أخرى، ولكنها تعكس حالة دراسات الشرق الأوسط الآن في الجامعات الأمريكية

(*) أستاذ التاريخ الحديث، جامعة ولاية نيويورك، بنغمتون، الولايات المتحدة.
State University of New York, Binghamton, U.S.A.

(1) Edward Said, *Orientalism* (New York: Vintage Books, 1979).

(2) مجلة خمسين (1980 - 1981).

والـبريـطانيـة والفـرنسيـة. ولكن قبـل منـاقشـة خصـائص هـذه المـدارس ورد فعلهـا لنقـد الاستشراق، هناك حاجة ماسة للتعريف بأهم الفرضيات المعرفية أو الايبستمولوجية والمنهجية في دراسة سعيد ونقده حقل دراسـات الشرق الأوسط. الاشكاليـة الأساسيـة في نقد سعيـد، برأينا، هي عدم تمييز سعيد في نقده بـين المكان والـزمان والإطـار التاريخي كـأساس لـلانتاج الفكري والأكاديمي في قرون مختلفة. هذا النقد الـلاتاريخي لـلاستشراق وضع في اطـار شمل مرحلة العصور الوسطى والمرحلة الرأسمالية الحديثة.

لو نظرنا مثلاً إلى انتاج البحوث الاستشراقية في المجتمعات الغربية خلال القرن السابع عشر لوجدناه مختلفاً عن الانتاجات اللاحقة في القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين. لماذا؟ لأن المجتمعات الغـربية لم تبق عـلى الوضـع الاقتصادي والسيـاسي نفسه، بـل مـرّت بتحولات عديدة ومختلفة أثرت في تمويل الدراسة الغربية للشرق وبرامجها. لو طبّقنا نقد سعيد للاستشراق بشكل عام، كما فعـل، لوجـدنا خلطاً تـاريخياً بـين أعمال كـاتب مثل فـون هامـر (Von Hammer) النمسـاوي ـ الهنغـاري الـذي عـاش في ظـل الامـبراطـوريـة النمســاويـة الهنغارية، والذي كتب عن الامبراطورية العثمانية كما عاشها في القرن التاسع عشر، ومن جاء بعده من مستشرقين. فون هامر لم يرَ خلافاً بين الامبراطورية العثمانية وتكوين الدول الغربية. بينما لو نظرنا إلى كتـابات أحـد المستشرقين المعـاصرين، كبرنـارد لويس (Bernard Lewis) أو أحد مؤرخي التاريخ الأوروبي، كبيري أندرسون (Perry Anderson)، لوجدنا أن كليهما يرى اختلافاً أساسياً بين الامبراطورية العثمانية والدول والامبراطوريات الغـربية في القـرن التاسـع عشر. بناء على نقد سعيد ليس هناك خلاف بين التفسيرين.

هـذا الخلط التحليلي في نقـد سعيد هـو نتاج تجاهله المنهجي أهمية المكـان والـزمـان، والتمويل والأهداف في التأثير في الانتاج العلمي والأكاديمي.

لـو نظرنـا إلى مثال آخـر من فرنسـا لوجـدنا اختـلافاً في رؤيـة المستشرقين الفـرنسيـين للإسلام. الدراسات الاستشراقية الفرنسية التي أنتجت في أوج المرحلة التـوسعية الامـبرياليـة الغربية، وبالتحديد في منطقة شمال افريقيا، ليست بالضرورة الدراسـات نفسها التي ظهـرت في القرن العشرين. الباحث المدقّق يضطر للنظر إلى وظيفة وأهداف وتمويل الانتاج الأكاديمي في مرحلة تاريخية محدّدة، ويسأل: من هو مموّل البحث ودوافعه؟ ما طبيعة المجتمع والدولة في تلك المرحلة؟

إن دراسة الاسلام بغرض تسهيل مهمة السيطرة على مسلمي الشمال الافريقي والجزائر بـالذات، كـما حدث في المـرحلة الاستعماريـة، وكـما نجـدهـا في كتـابـات مستشرق فـرنسي استعـماري مثل روجيـه لاتورنـو (Roger La Thourneau) الذي كـان معاديـاً فكرة استقـلال الجزائر المستعمـرة، تختلف عن كاتب فـرنسي معاصر متخصص في الإسـلام مثل جيـل كيبل (Gilles Kepel). الجـزائر الآن مستقلة ولكن الـدولـة الفـرنسيـة تـواجـه مشكلة المهـاجـرين المسلمين من المغرب العربي. كيبل قام بدراسات عن الحركات الاسلامية في شمال افريقيا وفي مصر والجـزائر بـالذات. ولكن هـدفه الـدراسي هو: هـل مشكلة الأقلية المسلمـة في داخـل

المجتمع والدولة الفرنسية وليس في المستعمرات، كما كانت في وقت لاتورنو؟ هدف دراسات كيبل هو الاحتواء والتحكم في الأقلية المسلمة داخل فرنسا، ومن ثم دراسته الإسلام تختلف عن الدراسات السابقة عن الاسلام.

نحن هنا لا نريد أن نقلل من أهمية نقد سعيد للاستشراق التقليدي، بل من الانصاف أن نشير إلى أن سعيداً نفسه ربما لم يتوقع أو يهدف إلى استخدام نقده من قبل جماعات أكاديمية وغير أكاديمية خلال المرحلة التي سبقت نشر كتابه. الأهم، برغم حسن النوايا، أن الكتاب أدى إلى بدء جدل وحوار حول الفرضيات والمناهج لدراسته الشرق والوطن العربي. هذا الحوار والجدل، برأينا، هو أهم اسهامات سعيد. ولكن سعيداً في نقده ترك فراغاً منهجياً أدى إلى تعقيد مشكلة دراسة العالم العربي والاسلامي.

اعترف سعيد نفسه، في مقال نشر في مجلة **البحث النقدي** *Critical Inquiry*[٣] بأنه لم يهدف في كتابه إلى خلق منهج بديل، بل مجرد وجهة نظر معارضة. هذا الإنكار من قبل سعيد والتخوف من خوض غمار معترك أسئلة المنهج ونظام المعرفة، أديا برأينا إلى ترك المجال لمناصري الاستشراق للرد على انتقاداته الموجّهة إليهم. مفاخرة أخرى، نحن لا نريد أن نغمط إنجاز سعيد الأساسي حقه في فتح الجدل والتساؤل عن الاستعمار الثقافي كدافع للدراسات الاستشراقية وخرافة الحياد الأكاديمي العلمي بشكل عام، لأن أي إنتاج علمي فكري يتشكل بالدوافع والوظائف والأهداف التاريخية المحيطة.

سعيد، ليس أول من كتب عن موضوع الاستشراق، كما يعلم معظم دارسي هذا الموضوع في الدراسات الاسلامية، ولكنه قدم لنا خلاصة وتركيباً شاملاً للموضوع بتطبيق منهج الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو حول مشكلة التمثيل والقوة والثقافة. الآن أريد أن أناقش منهجية سعيد بشكل أكثر تحديداً.

أشرت سابقاً إلى مراجعة صادق جلال العظم النقدية لكتاب ادوارد سعيد. انتقد العظم سعيداً بأنه فشل في تحليل الإطار الاجتماعي والسياسي للدراسات الشرقية، لأن سعيداً، برأي العظم، ظل متشبثاً بالإطار الفوقي الإيديولوجي للاستشراق. أدى هذا التشبث برأي العظم إلى نتائج في غاية الغرابة، أو حتى الاستشراق المعكوس في دراسة الغرب أو النظر إلى لاتاريخية الغرب والانتاج الأكاديمي والفكري الاستشراقي. هنا أريد أن أناقش منهجية سعيد من زاوية أخرى، وبالذات في ما يتعلق بالنظام المعرفي الايستمولوجي الذي أثاره سعيد من منطلق منهج مابعد الحداثة (Post-Modernism). السؤال المهم في رأيي هو: **كيف نستطيع أن نعرّف تاريخ الوطن العربي؟** سعيد ينكر أن يكون هذا السؤال جزءاً من دراسته. ولكن هذا الانكار المنهجي أدى إلى ترك فراغ في نقده، وبالتالي إلى ظهور ردود فعل، ربما لم يتنبأ بها.

إن الترف العلمي الذي يعتنقه مناصرو منهج مابعد الحداثة وأدواته التفكيكية في

(٣) مجلة البحث النقدي، العدد ١٥ (١٩٨٩).

التحليل يؤدي إلى طريق عدمي مسدود نتيجة رفضها التعامل مع أهداف وأغراض الانتاج العلمي. إن إنكار العامل الاجتماعي والايديولوجي في دراسة سعيد وغيره من باحثي مابعد الحداثة يؤدي إلى التأفف من تناول العامل الاجتماعي والانساني، وبالتأكيد تصبح الدراسة الأكاديمية نوعاً من الترف الشخصي بعيداً عن مجال التساؤل عن جهة الدعم الخاص والحكومي للدراسات الأكاديمية.

هذا لا يعني إنكار وجود علماء الآن دافعهم للبحث هو الاضافة والحفاظ على وجود الأرض والبشرية بشكل عام. وهذه الأهداف، بلا شك، تبدو أكثر أهمية في عالم اليوم الأكثر ارتباطاً وتواصلاً من ناحية، والأكثر تدميراً واستهلاكاً واستغلالاً من قبل من ناحية أخرى(٤).

أدى نقد سعيد اللاتاريخي ومنهجه مابعد الحداثة إلى ردود فعل، ربما لم يتوقعها نفسه في دراسة الوطن العربي الآن، وبالذات عدم وجود مناهج علمية بديلة للدراسات الاستشراقية. المهم برأينا، ليس فقط نقد الاستشراق ولكن خلق مناهج بديلة. هنا لا أريد أن يساء تأويل ما أريد أن أقوله. أنا لا أدعو إلى منهج موحد في دراسة العالم العربي والاسلامي، ولكن التركيز على طرح أسئلة تاريخية أساسية. لنأخذ، على سبيل المثال، موضوع المجتمع المدني العربي الاسلامي. الشائع في الدراسات الغربية هو رفض وإنكار وجود مجتمع مدني وتحليل الدلائل التاريخية على وجوده. إن اكتشاف هذه الدلائل التاريخية الآن على وجود هذا المجتمع سيؤدي إلى نتائج مغايرة وجذرية لفهمنا تاريخ المجتمع المدني العربي والاسلامي، بل إن وجود هذه الدلائل مهم في تأصيل عمليات البناء الديمقراطي اليوم في الوطن العربي واكتشاف وجود خيارات عديدة داخل المجتمع في بناء الحركات الاجتماعية ونظم الدولة. هنا تأتي أهمية نشر كتاب علي عبد اللطيف حميدة باللغة العربية من قبل مركز دراسات الأمة العربية، لأن هذا الكتاب يطرح منهجية بديلة ويحلل الملامح التاريخية للمجتمع المدني والخيارات العديدة في مجتمع القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في المغرب العربي، وولاية طرابلس الغرب أو ليبيا بالذات.

خلاصة القول هنا، إنني أزعم بأن تفكيك سعيد الدراسات الغربية الاستشراقية يجب أن يأتي في إطار وعي منهج بديل قادر على تجاوز نقد الاستشراق التقليدي. نكرر هنا أهمية الوعي بدوافع البحث وتصميمه، وضرورة تغيير مسار البحث حسب الدلائل والقرائن الجديدة في إطار الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة.

حتى أستطيع أن أوضح ما أعنيه بنقدي هنا، سأقوم بمراجعة ثلاثة اتجاهات أكاديمية (من غير تحديد أسماء الممارسين هذه الاتجاهات) كما ظهرت كردود فعل للجدل حول كتاب إدوارد سعيد عن الاستشراق. هذه المراجعة السريعة التي سأقوم بها تفيد في فهم حالة الدراسة الأكاديمية عن العالم العربي والاسلامي في الولايات المتحدة، وبريطانيا وفرنسا الآن.

---

(٤) بعض هذه الهموم الانسانية والبيئية نوقشت في كتاب: Ram Krishna Makhrjee, *Society, Culture, and Development* (New Delhi: Sage, 1991).

- اتجاه علمي يركّز على النظرية

هذه المدرسة الفكرية تركّز على الدراسات النظرية، ولكن على حساب المصادر الأساسية والمعرفة باللغات الأصلية. ومن ثم يعتمد باحثو هذه المدرسة على الدراسات الثانوية المترجمة للغات الأوروبية من دون تساؤل عن مشاكلها المنهجية. أدى هذا الاعتماد على الدراسات الثانوية إلى إعادة صور التعالي والتميّز عن العالم العربي والاسلامي على الرغم من وجود إطار نقدي نظري لهذه الدراسات. هناك أيضاً مثالب أخرى في انتاج هذه المدرسة: النظرية تظل كما هي ولا تعدّل بناء على الأدلة الجديدة والخصوصية التاريخية والاجتماعية التي تتطلب قياس الافتراضات وإعادة الطرح. وعلى الرغم من وجود بعض الأسئلة والملاحظات النابية عن العالم العربي والاسلامي تظل هذه الملاحظات مبعثرة تفتقر إلى الاتساق والتواصل المنطقي.

- اتجاه يركّز على دراسة اللغات المحلية

المدرسة الثانية تركّز على تعلّم اللغات المحلية كالعربية والفارسية والتركية، ولكنها ترفض النظر إلى المجتمع العربي والاسلامي بشكل حيوي، أو بعبارة أخرى، يرفضون أن المجتمع العربي في حالة توازي مؤسسة من خلال تناقضات اجتماعية داخلية ولكن كمجتمع تقليدي غير قادر على التطور خارج إطار التحديث الغربي. هنا المنهج النظري لممارسي هذا التيار الأكاديمي، على الرغم من معرفتهم اللغات المحلية، وصفة جامدة تركّز على الدراسات اللغوية والمصادر المكتوبة: لا وجود لمجتمع مدني قادر على التطور والإبداع، بل إن هذا المنهج يقرأ المصادر المكتوبة خارج إطارها التاريخي، ومن ثم الدراسات باللغات الأصلية هي دراسات جامدة ومبسّطة عن الشخصية والأخلاق والايديولوجيا الاسلامية؛ هذا التحليل على حساب الإطار الاجتماعي ومناسبة ودوافع الانتاج للمصادر الأصلية. هنا لا بد من طرح السؤال: ما هي الفعالية الفكرية لهذه الدراسات، ليس فقط على ممارسيها ولكن على قرائها أيضاً؟ كيف يستطيع باحثو هذه المدرسة تبريرها نظرياً وأخلاقياً؟

بل إن الأدهى في إنتاج هذه المدرسة هو عدم تطبيق أدوات البحث العلمي الحديث على دراسة العالم العربي والاسلامي، خصوصاً وأن ممارسي هذه المدرسة معظمهم مؤرخون اقتصاديون يدّعون دراسة التاريخ من منهج ماركسي جديد أو اقتصاد سياسي، أو مؤرخو الطبقة العاملة. المضحك أن مؤرخي الطبقة العاملة يركزون على عمليات التصنيع، ولكن على حساب التركيز على الطبقة العاملة نفسها. نجد هذه المثالب حتى في دراسات متخصصي الحركات الاشتراكية والشيوعية في الوطن العربي.

- تيار الاستشراق الجديد

أسمي هذا التيار الاستشراق الجديد؛ هؤلاء المستشرقون الجدد يتهمون أنصار التيار الأول بعدم معرفة المصادر الأولية واللغات المحلية (الأرشيف وغيرها)؛ هؤلاء المستشرقون، بحكم معرفتهم اللغات، ولتدريسهم في أقسام الشرق الأدنى والأوسط وتدريس اللغات

العربية والفارسية والتركية، ولكن من غير إلمام بالعلوم الاجتماعية الحديثة؛ هؤلاء المستشرقون الجدد، انتقدوا إدوارد سعيد لأن كتابه، برأيهم، أعطى رخصة لغير الملمّين باللغة الشرق أوسطية بالمغامرة بالكتابة عن هذه المناطق، وبالتالي تجاهل أهمية الدراسة الجادة للغات المحلية وأدوات البحث العلمي.

هؤلاء المستشرقون الجدد، برغم معرفتهم اللغات المحلية إلا أنهم نظرياً يعتنقون المنهج الامبريقي في قراءة المصادر وتحليلها. لذلك، نجدهم مثل المستشرقين التقليديين لا يعطون اهتمامات بالفرضيات والمواضيع ومشاكل البحث، بل إنهم يفتخرون بتجاهل النظريات الاجتماعية المعاصرة وكأنهم محايدون في تفسيراتهم للمصادر والمواضيع. هنا، كما ذكر سعيد، نجد المثالب نفسها في دراسات المستشرقين الجدد؛ نظرة أحادية وتجاهل الإطار التاريخي في قراءة المصادر الأولية.

في الختام، أريد أن أربط في هذه العجالة بين ما حللته سابقاً والحاجة إلى المنهج البديل للتاريخ والسياسة في العالم العربي والاسلامي، وبالذات اكتشاف الدلائل التاريخية للمجتمع المدني وخياراته كدراسة بديلة، وبهدف إثراء الجدل الحالي حول بناء الديمقراطية في الوطن العربي. هنا، في رأيي، تكمن أهمية كتاب علي عبد اللطيف حميدة الذي عرفته خلال السنوات الأربع الأخيرة. هذا الكتاب يطرح منهجاً بديلاً لدراسة المجتمع والدولة في المغرب العربي، وليبيا بالذات.

ينظر الباحث هنا إلى الدلائل والجذور التاريخية للمجتمع الليبي في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ويحاول معرفة ملامح المجتمع المدني وخياراته، وبالذات دور القبائل والفلاحين وكيف تفاعلوا مع الضغوط السياسية والاقتصادية من قبل الدولة العثمانية والدولة الاستعمارية الايطالية خلال قرن من الزمان. ويركّز الكتاب على دلائل حيوية المجتمع المدني ووجود خيارات عديدة داخل هذا المجتمع من حركات اجتماعية دينية ونوايا تكوين دول محلية وجذور الحركة الوطنية الحديثة. إن وجود هذه الخيارات من الحركة والدولة السنوسية، في تحالفات القبائل، إلى الجمهورية الطرابلسية، ومؤسسات الدولتين العثمانية والايطالية، أدت إلى ظهور تاريخ اجتماعي واقتصادي غاية في التعقيد، وأكبر دليل على حيوية وفعالية المؤسسات المدنية التي مهدت لقيام الدولة الحديثة في النصف الثاني من القرن العشرين. إن إعادة اكتشاف المجتمع المدني وجذوره التاريخية، ودلائل وجود خيارات محلية في المؤسسات، وتكوين الدول، ليس مهماً فقط من وجهة نظر علمية منهجية بديلة، ولكنها حجر الزاوية في إجراء وتأصيل البناء الديمقراطي الحديث.

مُقـدّمـة

«إن اختلاف الاجيال في أحوالهم، إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش».
المقدمة ـ عبد الرحمن ابن خلدون

تأثرت طفولتي في وسط وجنوب ليبيا، في الخمسينيات والستينيات، ببيئة اجتماعية وثقافية محددة. هذه البيئة تخلقت بذكريات الحروب والهزائم والمجاعات والمقاومة في الفترة الاستعمارية ما بين عامي ١٩١١ ـ ١٩٤٣. الأجيال التي عاشت تلك الفترة، مثل جدّي علي حميدة وجدتيّ مبروكة وعائشة، أو عاصروا المرحلة الأخيرة منها، كما حصل لوالديّ، علّموا أولادهم وقصوا عليهم بعضاً من التاريخ الشفهي لهذه المرحلة الصعبة من المآسي والاقتلاع والنضال من أجل البقاء.

أكثر التقديرات محافظة تسجل على الأقل أن نصف مليون ليبي قتلوا، إما مباشرة خلال الحرب أو بسبب الأوبئة والجوع والعطش. ربع مليون من الليبيين اضطروا الى الهجرة بعد انتهاء المقاومة والاحتلال الكامل لليبيا في عام ١٩٣٢ الى مصر وتونس وتشاد وتركيا والجزائر وفلسطين وسوريا والجزيرة العربية. تعداد ليبيا كان مليوناً في عام ١٩١١ وفي عام ١٩٥٠ ظل كما هو مليوناً.

النخبة المتعلمة التي قادت الجمهورية الطرابلسية، مؤتمر غريان، والدولة السنوسية؛ إما قتلوا في الحرب أو اضطروا للهجرة. من ضمن القادة الذين قتلوا: عمر المختار، الفضيل أبو عمر، حمد بوخيرالله، رمضان السويحلي، عبد النبي بلخير، علي تنتوش، خليفة بن عسكر، محمد بن عبدالله اليوسيفي، الهادي كعبار، فرحات الزاوي وسعدون السويحلي. آخرون اضطروا للهجرة مثل: أحمد الشريف الى تركيا وبعدها الحجاز، سليمان الباروني ذهب الى تركيا ومنها الى عُمان حيث صار مستشاراً لسلطانها سعيد بن تيمور حتى مماته في عام ١٩٤٠؛ شيخ سوف المحمودي، سالم عبد النبي الزنتاني، طاهر الزاوي، أحمد المريض، عبد الجليل سيف النصر، وادريس السنوسي هاجروا الى مصر؛ أحمد سيف النصر واخوته هاجروا الى تشاد؛ بشير السعداوي وخالد القرقني هاجرا أولاً الى سوريا ثم اصبحا مستشارين للملك عبد العزيز بن سعود.

عشرون سنة من الغزو الاستعماري الاستيطاني أدت إلى اقتلاع وتهجير معظم القبائل والفلاحين إلى دواخل الصحراء، بمن فيهم بعض الفلاحين الذين بدأوا بالاستقرار خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر نظراً إلى سياسة التحضير العثمانية. لهذا نجد ازدياد سكان المناطق الصحراوية على حساب الاستقرار في المناطق الزراعية الشمالية خصوصاً في منطقة طرابلس. السياسة الايطالية لم تهتم بتوطين القبائل أو تحويلهم إلى فلاحين وعمال مثل السياسة الاستعمارية الفرنسية في بقية المغرب العربي، لكنها ركزت على جلب عمال وفلاحين ايطاليين وأعطتهم الأراضي الخصبة المنتزعة من الليبيين. بعبارة أخرى، السياسات الاستعمارية تختلف من دولة إلى أخرى ومن فترة إلى أخرى.

الميراث الثقافي والسياسي لحركات المقاومة بالغ القوة والتعقيد في الوقت نفسه. المقاومة خلقت الحركة الوطنية الليبية الحديثة ليس في كل اقليم ولكن لما يسمى اليوم بليبيا واعطت أجيال ما بعد الاستقلال أمثالاً خصبة كشهداء وابطال في معظم انحاء ليبيا. ولكن المقاومة أيضاً لم تغذ مشاعر معاداة الاستعمار فحسب، بل ركزت ايضاً على رموز الهوية المحلية والاسلام وعلاقات الدم. بعبارة أخرى، الاسلام والقومية العربية تعني الشيء نفسه خلافاً لمعنى القومية العربية في المشرق العربي. في ليبيا وبقية المغرب العربي، الغالبية العظمى، ما عدا الأقلية اليهودية المنغلقة على ذاتها، مسلمون وينتمون الى المذهب المالكي، كذلك الصراع في المغرب العربي كان أساساً مع الغرب الأوروبي المسيحي وليس ضد الدولة العثمانية كما حصل في المشرق. لذلك في الثقافة السياسية للمغرب العربي، الاسلام والقومية العربية وجهان للعملة نفسها

ذكرى ومعنى المرحلة الاستعمارية طبيعياً كانت لا تزال قوية من بداية استقلال ليبيا في العام ١٩٥١. والدولة السنوسية (١٩٥١ - ١٩٦٩) والجماهيرية بعد العام ١٩٦٩ ربطتا بين حركات المقاومة ضد الطليان وبين شرعية الدولة. الملك إدريس السنوسي وحكومته ركزا على دور العائلة السنوسية، بحكم أنه حفيد مؤسس الحركة السنوسية، ولكن على حساب أحمد الشريف والجمهورية الطرابلسية. ولكن بعد العام ١٩٦٩ صار التركيز على الدور البطولي لأحمد الشريف وعمر المختار والجمهورية الطرابلسية. قامت الدولة كذلك بافتتاح مركز علمي لدراسة مرحلة الجهاد الليبي في عام ١٩٧٧. كذلك بدأت طقوس الاحتفال في كل معركة جهاد مهمة بما فيها اعطاء نياشين وجوائز للأحياء من مجاهدي الاستعمار.

بغض النظر عن الانتقاد في تفسير المرحلة الاستعمارية، المهم بالنسبة الى الباحث عمق مشاعر معاداة الاستعمار كنتاج طبيعي لمرحلة استعمار، وحتى جعل الناس يتعلقون بالدين كتعبير عن الهوية، هنا يبدو مدى تهافت الكتابات الاستشراقية عن المسلمين كمهووسين يكرهون الغرب من غير سبب[1].

---

(١) في ما يتعلق بتحليل العلاقة بين مقاومة الاستعمار في المراحل الأولى والحركات القومية الجماعية التي ظهرت في ما بعد في الستينيات، انظر: T.O. Ranger, «Connections Between Primary Resistance =

للأسف، عندما ذهبت الى القاهرة وبعدها سافرت الى الولايات المتحدة، اكتشفت أن الكثير من العرب غير عارفين بليبيا وتاريخها المأساوي. التجارب الاستعمارية الاستيطانية المعروفة هي فلسطين والجزائر، ولكن التجربة الثالثة (ليبيا) غير معروفة للكثيرين.

في الولايات المتحدة جئت للدراسة العليا بهذه الخلفية الاجتماعية، فاكتشفت أن تاريخ العالم الثالث يدرّس كتاريخ هامشي لشعوب تقليدية ليس لها تاريخ حيوي جدير بالدراسة، أو كما عبر عنها الانتروبولوجي الامريكي إريك وولف «أوروبا والشعوب بلا تاريخ»[٢].

دراسة المغرب العربي في الجامعات الأوروبية والامريكية يسيطر عليها علماء، إما ذوو تجربة عملية كضباط واداريين في الحكومات الاستعمارية الايطالية والفرنسية، أو متأثرون بدراسات الانتروبولوجيا الاجتماعية، الانكليزية. في الولايات المتحدة الامريكية مدرسة التحديث تمثل التيار الغالب لدراسة مجتمعات العالم الثالث والشرق الأوسط.

الدراسات الأولية عن المغرب العربي ركزت على احتياجات الادارات الاستعمارية، لذلك من الطبيعي لهؤلاء الباحثين إنكار وجود تاريخ حيوي وخلّاق لما قبل المرحلة الاستعمارية. صورة المجتمع قبل المرحلة الاستعمارية بالنسبة اليهم هي لمجتمع «تقليدي» يتكون من قبائل متمردة ومدن محكومة بدول متسلطة يرأسها ملوك يعاملون الناس كرعايا. القبائل والمدن في حالة صراع مستمر قبيل مجيء الادارات الاستعمارية[٣].

النظرية الأكثر شيوعاً في بريطانيا وامريكا لتحليل المغرب العربي، هي نظرية البناء الانقسامي. هذه النظرية بدأت بكتابات اميل دوركهايم ولكن يرجع الفضل في تطويرها الى عالم الانتروبولوجيا الاجتماعية الانكليزي إ. إ إيفانز ـ بريتشارد ومن بعده إرنست غلنر. البناء الانقسامي يفترض وجود مجتمع قبلي متكون من وحدات قبلية متشابهة. في غياب وجود

Movements and Modern Mass Nationalism in East and Central Africa,» *Journal of African History*, vol. 9, no. 3 (1968), pp. 437-463. =

وفي ما يتعلق بليبيا، انظر: John Davis, *Libyan Politics: Tribe and Revolution: An Account of the Zuwayya and their Government* (London: I.B. Tauris, 1987),

وحول القذافي، انظر:

Knut S. Vikor, «Al-Sanusi and Qadhafi-Continuity of Thought?» *Maghrib Review*, vol. 12, nos. 1-2 (1987), pp. 25-28.

(٢) انظر كبار ناقدي النظرة المركزية الاوروبية أمثال: Edward Said, *Orientalism* (New York: Vintage Books, 1979); Bryan S. Turner, *Marx and the End of Orientalism*, Controversies in Sociology; 7 (Boston; London: George Allen and Unwin, 1978), and Samir Amin, *Eurocentrism* (New York: Monthly Review Press, 1989).

(٣) انظر: Edmund Burke III, «The Image of the Moroccan State in French Ethnological Literature: A New Look at the Origins of Lyauty's Berber Policy,» in: Ernest Gellner and Charles Micaud, eds., *Arabs and Berbers: From the Tribe to Nation in North Africa* (Lexington, Mass.:Dic Heath Company, 1972), pp. 195-199.

انظر أيضاً: Archie Mafeje, «The Ideology of Tribalism,» *Journal of Modern African Studies*, vol. 9, no. 2 (1971), pp. 253-261.

دولة مركزية، النظام والقانون يتطلبان ردعاً مشتركاً للعشائر والبطون المتشابهـة للقبلية أو بـين القبائل لأية عشيرة، بطن أو قبيلة تحاول تغيير الوضع القائم. أو بعبارة أخرى «أنا واخي على ابن عمي وانا واخي وابن عمي على الغريب» كما يقـول المثل العـربي القديم. السؤال الـذي يجب ان يـطرح: هل العـلاقة بـين القبائـل والفلاحـين والمدن دائـماً في حالـة صراع، وهـل الايـديولـوجيا والأمثـال القبلية تعني بـالضرورة الأفعـال؟ ليس كـل مـا يقـولـه كتـاب البـناء الانقسامي خرافات، ولكن ما هو الاطار التـاريخي للمجتمع العـام بما فيـه القبائـل، التجارة والدول؟ غياب هذا الاطار التاريخي برأينا هو الذي يجعل هذا النموذج الانقسـامي مفروضـاً على الواقع في المغرب العربي المعاصر[٤].

أما في الولايات المتحدة الامريكية فالنموذج النظري لدراسـة المغرب العـربي بلا شـك هو نظريـة التحديث. المغـرب العربي كـما بقية العـالم الثالث، يتكـون من مجتمعات تقليـدية بـدأت في عملية التحـديث في المرحلة الاستعـمارية الأوروبيـة. المعتقدات التقليـديـة القبليـة والدينية بدأت في الانحسار وتبدلت بقيم غربية عقلانية حديثة[٥].

---

(٤) للإطلاع على التحليل الكلاسيكي للنموذج الانقسامي، انظر:

E.E. Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica* (Oxford: Clarendon Press, 1949), pp 59-60.

يعتبر ارنست غلنر من أهم المدافعين عن هذه النظرية في الوقت الحاضر. انظر:

Ernest Gellner, *Saints of the Atlas* (Chicago, Ill.: University of Chicago Press; London: Weidenfeld, 1969), pp. 35-70.

في ما يخص تطبيق هـذه النظريـة في التحليل السيـاسي، انظر: John Waterbury, *The Commander of the Faithful: The Moroccan Political Elite: A Study in Segmented Politics*, Modern Middle East Series; vol. 2 (London: Weidenfeld; New York: Columbia University Press, 1970).

انـظر ملخصاً في نقـد هـذا النمـوذج في: David Seddon, «Economic Anthropology or Political Economy: Approaches to the Analysis of Pre-Capitalist Formation in the Maghrib,» in: John Clammer, ed., *The New Economic Anthropology* (London Macmillan Press, 1978), pp 61-107; Talal Asad, *The Idea of an Anthropology of Islam*, Occasional Paper Series (Washington, D.C.: Georgetown University, Center for Contemporary Arab Studies, 1986), pp. 8-11, and Lila Abu-Lughod, «Zones of Theory in the Anthropology of the Arab World,» *Annual Review of Anthropology*, no.18 (1989), pp. 280-287.

للإطلاع على نقد عام بشأن التحليل الانثروبولوجي للأنساب، انظر:

David Murray Schneider, *A Critique of the Study of Kinship* (Ann Arbor: University of Michigan Press, 1984).

(٥) Daniel Lerner, *The Passing of Traditional Society: Modernizing in the Middle East*, with the assistance of Lucille W. Pevsner, and an introduction by David Riesman (New York: Free Press, 1958).

وقد صدر مؤخراً كتاب حديث عن تاريخ المغرب العربي:

Lisa S. Anderson, *The State and Social Transformation in Tunisia and Libya, 1830-1980*, Princeton Studies on the Near East (Princeton, N. J.: Princeton University Press, °1986).

وهذا الكتاب يحتوي على معلومات جديدة عن التاريخ الاجتماعي الليبي لم تكن متـوفرة سـابقاً في اللغـة الإنكليزية. ولكن، بما أن الكاتبة تنتمي إلى مدرسة التحديث الأمريكية، فهي تصـور التغيير الاجتـماعي وكأنـه قد أتى من الخـارج، وذلك على غرار الكاتب صموئيل هنتنغتون بنوع خاص. وفي ما يتعلق بالتاريـخ الاجتماعي =

حتى بعض الماركسيين الغربيين مثل إيف لاكوست الفرنسي حلل المجتمع المغربي قبيل الاستعمار الأوروبي كمجتمع ذي تكوين آسيوي للإنتاج. التكوين الآسيوي للانتاج باختصار مستمد من كتابات كارل ماركس وفريدريك انغلز. في مجتمعات العالم الثالث وجدت دولة مركزية قوية ومجتمعات قروية تعيش على الاكتفاء الذاتي. ماركس استمد هذا النموذج من ملاحظاته عن تاريخ الهند الذي بدا له مختلفاً عن تاريخ النموذج الاقطاعي للانتاج في اوروبا. ولكن معرفة ماركس بالهند وبالشرق بشكل عام بنيت على كتابات استشراقية عن الهند. ليس هذا فحسب ولكن ماركس تخلى عن منهج الديالكتيك في تحليله الهند حين أفترض التغير في الهند يأتي ليس من دينامية المجتمع الهندي ولكن من الخارج، الاستعمار الرأسمالي الانكليزي، الذي حطم النموذج الآسيوي وطور أدوات الانتاج والتقانة (التكنولوجيا). ولكن حتى لو افترضنا وجود تناسق نظري وسابقة تاريخية للنمط الآسيوي للإنتاج، سنجد في المغرب العربي قبيل مرحلة الاستعمار دولاً ضعيفة وغير قادرة على السيطرة على الدواخل وليست استبدادية أو مركزية كما في الهند. كذلك التركيبة القبلية في المغرب العربي مختلفة عن القرية الفلاحية. القبائل تحمل السلاح وتستطيع الحرب بينما الفلاح غير مدرب على استخدام السلاح ومحصور في حدود القرية[6].

الليبي، فهي تعتبر أن التغيير الذي حصل كان بتأثير الدولتين العصريتين اللتين حكمتا ليبيا، وهما الدولة العثمانية والدولة الإيطالية، ولذلك أغفلت أي ذكر للبناء الاقتصادي والاجتماعي المتشابك والإنجازات المثيرة التي كانت في ليبيا العثمانية في القرن التاسع عشر. للمزيد من التفاصيل انظر تعليقي على هذا الكتاب الذي نشر في:

The Arab Journal of International Studies, vol 1, no. 2 (Summer 1988), pp. 110-115.

ومن أهم مؤلفات صموئيل هنتنغتون:

Samuel Huntington, *Political Order and Changing Societies* (New Haven, Conn.. Yale University Press, 1968).

وللاطلاع على نقد كتابات هنتنغتون، انظر:

Colin Leys, «Samuel Huntington and the End of the Classical Modernization Theory,» in: Hamza Alavi and Theodor Shanin, eds., *Introduction to the Sociology of Development Societies* (New York: Monthly Review Press, 1982), pp. 332-349.

ومن أجل الاطلاع على نقد شامل في ما يخص الأدب التجديدي، انظر:

Irene L. Gendzier, *Managing Political Change· Social Scientists and the Third World,* Westview Special Studies in Social, Political and Economic Development (Boulder, Colo.: Westview Press, 1985).

(٦) Yves Lacoste, «General Characteristics and Fundamental Structures of Medieval North Africa,» *Economy and Society,* vol 3, no. 1 (1974), pp. 10-11.

للاطلاع على عوامل تدمير الطراز الآسيوي، انظر:

Karl Marx, «The Future of the British Rule in India,» in: Karl Marx and Frederic Engels, *On Colonialism* (New York. International Publishers, 1972), p. 81.

وللاطلاع على نقد الطراز الآسيوي للانتاج، انظر:

Perry Anderson, *Lineages of the Absolutist State* (London: Verso; New Left Books, 1974), pp. 462-495.

الادبيات الغربية عن المغرب العربي المعاصر تعاني مشكلتين أساسيتين: **أولاً**: النظرة المركزية الأوروبية والامريكية التي تنظر الى المجتمع المغربي وكأنه تقليدي، انقسامي قبلي، أو استبدادي آسيوي الانتاج من ناحية، وأن التقدم والتغيير الاجتماعي سيأتي من الغرب الأوروبي الرأسمالي. هذه الرؤية الغربية تنفي وجود تاريخ حيوي وخلاّق في ما قبل المرحلة الاستعمارية نظراً الى ما يدعى بسيطرة الأفكار الاسلامية غير العقلانية[٧].

ثانياً: الأدبيات الغربية وخصوصاً مدرسة التحديث الأمريكية ثبت فشلها في تفسير التحولات المعاصرة في المغرب العربي الآن. برغم التحولات الرأسمالية في المرحلة الاستعمارية وما بعدها، فما زالت المنطقة تعاني التبعية الاقتصادية، واستمرارية بعض العلاقات القبلية، والتخميس، والانتاج من اجل الاكتفاء الذاتي خصوصاً في ليبيا والمغرب[٨]. بالاضافة الى أن الصحوة الاسلامية المعاصرة تشكك في نموذج المغرب العلماني، الذي افترض كجزء أساسي من عملية التحديث والانتقال من المجتمع الاسلامي التقليدي الى المجتمع العلماني الحديث.

عندما قدمت الى الولايات المتحدة بغرض الدراسة العليا وجدت أن المنهجين الاساسيين لدراسة التغيير الاجتماعي هما: البناء الوظيفي والفيبري نسبة الى عالم الاجتماع والتاريخ ماكس فيبر. هنا التركيز أساساً على الاندماج ودور الايديولوجيا والأفكار كمحرك للتغيير الاجتماعي. تحت هذا التأثير كتبت بحثي لنيل درجة الماجستير في العلوم السياسية السؤال المنهجي الذي حاولت الاجابة عنه كان: ما هو تأثير الدين والعلاقات القبلية في السياسة في ليبيا بين عامي ١٩٥١ - ١٩٦٩؟ ولكن هذا البحث الفيبري لم يأتِ بإجابة مقنعة ولكن أسئلة جديدة[٩]. السؤال الأكثر أهمية هو: لماذا الدين والعلاقات القبلية ما زالت

= ولكن للأسف، يقتصر اندرسون في تحليله «بيت الاسلام» في الكتاب نفسه، بالاعتماد على صور متطرفة من الأصولية.

(٧) انظر: Abdallah Laroui, *The History of the Maghreb: An Interpretative Essay*, translated from French by Ralph Manheim, Princeton Studies on the Near East (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1977; 1982), pp. 262-287.

تظهر الدراسة الحديثة مناعة الأنظمة العالمية والاقتصادات التجارية الرأسمالية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. انظر: K.N. Chaudhuri, *Trade and Civilization in the Indian Ocean: An Economic History from the Rise of Islam to 1750* (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1985), p. 222, and Janet Lipman Abu-Lughod, *Before European Hegemony* (New York: Oxford University Press, 1989), pp. 353-354 and 372.

(٨) H.A. Benzabih, «The Jabal Al-Akhdar: A Half Century of Nomadic Livelihood,» in: E. G. H. Joffe and Keith. S. McLachlan eds., *Social and Economic Development of Libya* (Kent, England; London: Menas Press Ltd., 1982), p. 148, and Abdelai Doumou, «The State and Popular Alliances: Theoretical Preliminaries in the Light of Moroccan Case,» in: Peter Anyang' Nyong'o, ed., *Popular Struggle for Democracy in Africa* (London: Zed Books, 1987), pp. 48-69.

(٩) Ali. A. Ahmida, «The Structure of Patriarchal Authority: An Interpretive Essay on the Impact of Kinship and Religion on Politics in Libya between 1951-1960,» (M. A. Paper of Distinction, Political Science, University of Washington, Seattle, 1983).

تلعب دوراً أولياً في المجتمع والسياسة؟ بشكل أكثر تفصيلاً، لماذا تسيطر الدواخل على المدن في التاريخ الليبي المعاصر؟ باستثناء مدينة طرابلس، لعبت المدن الساحلية دوراً اقتصادياً ثانوياً على الدواخل، ليس كمدن المشرق مثل القاهرة وبيروت ودمشق، كيف استطاعت القبائل الليبية مقاومة الدولة المركزية العثمانية ـ الايطالية حتى عام ١٩٣٢؟ لماذا برقة لم تعرف مدناً مركزية كبيرة قبل المرحلة الاستعمارية؟ ولماذا انهار اقتصاد فزان التجاري في نهاية القرن التاسع عشر؟ هذه الاسئلة النظرية والامبريقية اقنعتني بمثالب المنهج الفيبري وضرورة البحث عن منهج بديل.

هذا الكتاب يهدف الى تجاوز مثالب المناهج السابقة ويركّز على محاولة فهم ديناميات التغير الاجتماعي والتاريخي في المغرب العربي. ومن ثم تقدم اجابات عن الاسئلة التاريخية عن تكوين الدولة والطبقات والثقافة الشعبية المقاومة، من خلال التركيز على العوامل الداخلية في المجتمع.

الجدل الأساسي لهذا الكتاب هو أن القبائل والدول المحلية في المغرب العربي لعبت أدواراً هامة في التحولات الاجتماعية من خلال المقاومة، والصراع من أجل البقاء، وحتى في حالات التعاون والتواطؤ مع الدول الاستعمارية. على عكس رؤية نظرية التبعية الاقتصادية، إن عملية دمج الاقتصاد الليبي في النظام الرأسمالي العالمي لم تكن عملية أحادية مطردة، بل عمليات معقدة لعبت فيها المقاومة دوراً أساسياً في إبطاء وتعديل هذا الدمج الاقتصادي. الاسلام الصوفي، والنظام العسكري القبلي، والتقاليد الشفهية كلها أسلحة للمقاومة العسكرية والثقافية.

الكتاب يطمح الى تحليل التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لليبيا بين عامي ١٨٣٠ ـ ١٩٣٢؛ هذه المرحلة شهدت تحولات وإرهاصات عديدة بدأت بمحاولة الدولة العثمانية وبعدها الدول الرأسمالية الأوروبية في التغلغل الاقتصادي والسياسي في المغرب العربي: ردود فعل المجتمع وفئاته وطبقاته من قبائل وطبقات وأقاليم وانعكاسات المصالح المختلفة والاقتصاد السياسي لهذه الفئات والطبقات والأقاليم؛ التحالفات القبلية الفلاحية سيطرت على دواخل ليبيا في القرن التاسع عشر قبل محاولة الدولة العثمانية بناء إدارة مركزية قوية في طرابلس الغرب؛ هزيمة الدولة العثمانية واحتلال مدن السواحل من قبل ايطاليا أدى الى إحياء التحالفات القبلية والفلاحية التي سيطرت على دواخل ليبيا حتى عام ١٩٣٢. إن قصر المرحلة الاستعمارية وانتهاءها بهزيمة ايطاليا في عام ١٩٤٣ ساعد على استمرارية العلاقات القبلية وتعزيز دور الدين في الحياة الاجتماعية والسياسية في مرحلة بعد الاستقلال، خصوصاً في ما وراء مدن الساحل الشمالية. إذن استمرارية علاقات الدم والدين هي نتاج عناد

= سيطر الزعماء في البلاد الداخلية على موظفي الدولة الكبار ما بين عامي ١٩٥١ و١٩٦٠، فمثلاً كان البرلمان المؤلف من مجلسين تحت سيطرة الزعماء. انظر: مالك عبيد أبو شهيوة، «النظام السياسي في ليبيا، ١٩٥١ ـ ١٩٦٩،» (رسالة ماجستير في العلوم السياسية، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٧٧)، ص ١٠٧ و١٧٩.

ومقاومة القبائل وقصر المرحلة الاستعمارية. هذه الدراسة تحاول أن تنظر بشكل عميق الى دور هذه القبائل والجماعات الفلاحية كمساهمين اساسيين في التحولات الاجتماعية وليس كقبائل متمردة مغلوبة على أمرها بلا تاريخ ذي أهمية. بعبارة أخرى، سنحاول النظر إلى التاريخ الليبي من تحت، من وجهة نظر القبائل والفلاحين خلال قرن، وكيف تفاعلت هذه الجماعات مع الضغوط الاقتصادية والسياسية أثناء المرحلة العثمانية والايطالية في ما بعد.

منهج هذه الدراسة يركز على الاقتصاد السياسي وبخاصة دور البيئة، وعلاقات الانتاج، ونظام ملكية الأراضي، بالاضافة الى البناء القانوني والسياسي، أو بعبارة أخرى، سنحاول تحليل التفاعل بين علاقات الانتاج والثقافة والايديولوجيا[10]. المؤرخ الأمريكي بيتر غران قدم دراسة رائدة في محاولة تحليل الأصول الاسلامية للرأسمالية في مصر، حيث درس كتابات الشيخ حسن العطار وكيف جاءت افكاره كتعبير عن تحولات محلية للرأسمالية. غران قدم جدلاً جديداً حين قال: إن هناك جذوراً محلية مبدعة للرأسمالية المصرية وليست بالضرورة نتاج الابداع الأوروبي مثلما هو الاعتقاد السائد في دراسات الشرق الأوسط[11].

نتفق مع غران وتومسون في رفض التضاد المفتعل بين التقاليد والحداثة او بين شرق تقليدي وغرب حديث. التقاليد ليست افكاراً بالية مصيرها الزوال، بل تعكس ايديولوجيات طبقات وفئات متعددة في المجتمع العربي. كذلك نرى أن الثقافة ليست مفهوماً جامداً ذا معنى واحد بل عملية حيوية دائمة التجدد والتغيير، إذا نظر بشكل جدلي الى محتواها الاجتماعي.

هذه الدراسة تبدأ بسنة ١٨٣٠ وهي في نظرنا بداية التغلغل الرأسمالي الأوروبي في المنطقة الغربية لليبيا العثمانية. هذا التغلغل الاقتصادي أدى الى انهيار حكم الأسرة القره مانلية خصوصاً بعد أن فشل يوسف باشا القره مانلي في توسيع دائرة حكمه بإشراك رؤساء القبائل والاعيان في الحكم. اخترنا سنة ١٩٣٢ كنهاية لهذه الدراسة لأن آخر مقاومة مسلحة في ليبيا هزمت في هذه السنة. بعد هذه الهزيمة استطاعت الحكومة الايطالية ان تعلن سيطرتها العسكرية والسياسية على كل ليبيا، وبذلك انهت سيطرة التحالفات القبلية الفلاحية التي حكمت البلاد خلال القرن التاسع عشر.

إسم «ليبيا» استخدم أول مرة خلال الفترة الاغريقية والرومانية واعادت الحكومة

---

(١٠) E. P. Thompson, *The Making of the English Working Class* (New York: Vintage Books, 1966), p. 11.

(١١) Peter Gran, *Islamic Roots of Capitalism: Egypt, 1760-1840,* foreword by Afaf Lutfi Al-Sayyid Marsot, Modern Middle East Series; no. 4 (Austin: University of Texas Press, 1979), esp. the introduction and chap. 7.

وتساهم المدرسة الجديدة في التاريخ الاجتماعي الهندي في التركيز على دراسة أوضاع المقاومة المتعددة الأوجه التي انطلقت من الهند المستعمرة. انظر: Gyan Parakash, «Writing Post-Orientalist Histories of the Third World: Perspectives from Indian Historiography,» *Comparative Studies in Society and History,* vol. 32, no. 2 (April 1990), pp. 383-408.

الاستعمارية الايطالية استخدامه كنوع من التبرير الايديولوجي الاستعماري، أو كما كان يدعي موسوليني من أنه لا بد من اعادة الامبراطورية الرومانية في البحر المتوسط[12].

العثمانيون منذ القرن السادس عشر استخدموا اسم طرابلس الغرب لوصف ليبيا. ولكن إبان الحكم العثماني كانت طرابلس الغرب جزءاً من الاقليم الأكبر المغرب الاسلامي[13]. هنا لا بد من الحذر في استخدام اسم ليبيا والليبيين قبل المرحلة الاستعمارية اذ لم تكن هناك ليبيا ولكن ولاية طرابلس الغرب. محاولات فرض الدولة الوطنية القطرية وكأنها نشأت منذ قرون بعيدة قبيل الدولة الاستعمارية هي في الغالب محاولة لفرض الحاضر على الماضي، لأن كلاً من الدولة القطرية الليبية والتونسية والجزائرية وغيرها في المنطقة بنيت خلال الفترة الاستعمارية وكرد فعل لها[14].

التركيز في هذه الدراسة يراوح ما بين النظام الاقتصادي الريعي الاقليمي والنظام الرأسمالي العالمي. لذلك سنتفادى مطب التركيز على الدولة الوطنية وحدها كوحدة للتحليل في فترة الدراسة الطويلة[15]. بالإضافة الى ادوات التحليل، هناك بعض المفاهيم في هذه الدراسة تتطلب تعريفاً لها. إعادة الانتاج تعني: استمرارية وتجديد علاقات الانتاج السائدة[16]. التحولات الاجتماعية نعني بها تغيير علاقات الانتاج السائدة وإضافة عناصر

---

(١٢) كمثل جيد على هذا النوع من التحليل، انظر. عمر علي بن اسماعيل، انهيار حكم الاسرة القرمانلية في ليبيا (١٧٩٥ ـ ١٨٣٥) (طرابلس الغرب: مكتبة الفرجاني، ١٩٦٦). لنقد منهج المقاربات الوطنية للمفارقات التاريخية في تاريخ الشرق الأوسط، انظر: Rifaat Abou El-Haj, «Social Uses of the Past: Recent Arab Historiography of Ottoman Rule,» *International Journal of Middle East Studies,* no. 14 (1982), pp. 182-201,

وكذلك مقالته عن تاريخ ليبيا:

«An Agenda for Research in History : The History of Libya between the Sixteenth and Nineteenth Centuries,» *International Journal of Middle East Studies,* no. 15 (1983), pp. 311-313.

(١٣) Magali Morsy, «Maghrebi Unity in the Context of the Nation-State: A Historian's Point of View,» *Maghreb Review,* vol. 8, nos. 3-4 (1983), pp. 70-76.

(١٤) انظر: Abou El-Haj, «An Agenda for Research in History: The History of Libya between the Sixteenth and Nineteenth Centuries,» pp. 311-313.

انظر ايضاً: Youssef M. Choueiri, *Arab History and the Nation-State: A Study of Modern Arab Historiography, 1820-1980* (London: Routledge, 1989).

انظر ايضاً: Partha Chatterjee, *Nationalist Thought and the Colonial World: A Derivative Discourse?* (London: Oxford University Press; Delhi: Zed Books, 1986).

(١٥) Anderson, *The State and Social Transformation in Tunisia and Libya, 1830-1980,* and Abdallah A. Ibrahim, «Evolution of the Government and Society in Tripolitania and Cyrenaica (Libya), 1835-1911,» (Ph. D. Dissertation, University of Utah, 1982).

وهو ينفي وجود اقتصادات مناطقية ما وراء حدود الدولة.

(١٦) Harriet Friedman, «Household Production and the National Economy: Concepts for the Analysis of Agrarian Formations,» *Journal of Peasant Studies,* vol. 7, no. 2 (1980), p. 162.

جديدة[١٧]. الطبقة الاجتماعية لفظ استخدمه ماركس لتحليل الطبقة بذاتها من خلال وعيها بتركيبها الطبقي. الطبقة هي علاقات موضوعية لمجموعة من الأفراد تربطهم علاقات الانتاج السائدة بالاضافة الى وعيهم هذه العلاقات[١٨]. هذا الفهم للطبقة الاجتماعية. غير كاف في نظرنا، لأنه يتجاهل الصراع داخل الطبقة نفسها والاطار الثقافي للطبقة الاجتماعية وقد نبّه إ. ب. تومسون في دراسته لظهور الطبقة العاملة الانكليزية الى اهمية فهم الطبقة الاجتماعية تبعاً لمفهوم إقتصادي وثقافي[١٩].

في ليبيا دراسة التركيب الاجتماعي في الغالب تركز على العلاقات القبلية. وكأن القبائل ليست قابلة للتغيير والتأثيرات الاقتصادية والاجتماعية. هذه النظرة اللاتاريخية تتجاهل ارتباط القبائل بالأسواق التجارية والفلاحين والدول، بعلاقات تجارية وسياسية، ومن ثم وجود علاقات غير متكافئة ومتغيرة في داخل التكونات القبلية[٢٠].

أيضاً من المهم النظر الى عمليات التكوين الطبقي على انها ليست ذات مسار واحد بل مسارات عدة. وهذا التعدد في عمليات التكوين الطبقي يؤدي الى وجود انشقاقات داخل الطبقة الواحدة. لذلك غالباً ما نجد فئات متنافسة داخل الطبقة الاجتماعية خصوصاً في غياب تهديد من قبل الطبقات الأخرى[٢١]. اهم عمليات التكوين الطبقي في هذه الدراسة هي ظهور طبقة فلاحية بعد استقرار بعض القبائل المترحلة، وكذلك ظهور طبقة عاملة في المدن[٢٢].

---

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٦٢.

(١٨) Karl Marx, *The Poverty of Philosophy* (New York: International Publishers, 1963; 1972), p. 125

(١٩) Thompson, *The Making of the English Working Class*, pp. 11 and 68.

للإطلاع على ما كتب في الموضوع، انظر:

William Roy, «Class Conflict and Social Change in Historical Perspective,» *Annual Review of Sociology*, no. 10 (1984), pp. 483-506

(٢٠) Talal Asad, «The Bedouin as a Military Force: Notes on Some Aspects of Power Relations between Nomads and Sedentaries in Historical Perspective,» in: Cynthia Nelson ed., *The Desert and the Sown: Nomads in the Wider Society* (Berkeley, Calif: University of California, Institute of International Studies, 1973), p. 71.

(٢١) للاطلاع على الانشقاقات داخل الطبقة، انظر: Nicos Poulantzas, «On Social Classes,» *New Left Review*, no. 70 (March-April 1973), pp. 35-37, and Barrington Moore. Jr., *Social Origins of Dictatorship and Democracy; Lord and Peasant in the Modern World*, Beacon Paper Backs; 268 (Boston: Beacon Press, 1966).

انظر ايضاً: Salim Tamari, «Factionalism and Class Formation in Recent Palestinian History,» in: Roger Owen, ed., *Studies in the Economic and Social History of Palestine in the Nineteenth and Twentieth Centuries* (Carbondale, Ill.: Southern Illinois University Press, 1982), pp. 177-202.

(٢٢) للاطلاع على مفهوم تكوين الطبقة الفلاحية، انظر: Kent Post, «Peasantization and Rural Political Movements in West Africa,» *Archives européennes de sociologie*, vol. 8, no. 2 (1972), p. 266.

وللإطلاع على مفهوم تكوين الطبقة العمالية، انظر: Shulamit Carmi and Henry Rosenfeld, «The =

تكوين الدولة والتكوين الاجتماعي مفهومان مهمان استخدما في هذه الدراسة. الدولة تبدأ في الظهور، إما من خلال الغزو أو الثورات والضغط السكاني والسيطرة الاقتصادية. بشكل أكثر تحديداً، تكوين الدولة يعني عادة في الدراسات السياسية عمليات توسيع سلطة الدولة في الداخل والخارج(٢٣). التكوين الاجتماعي يدل على نمط الانتاج السائد في مرحلة تاريخية(٢٤). بشكل اكثر تبسيطاً، في الواقع الاجتماعي هذا المفهوم يعني نظم ملكية الأراضي والتركيب الجغرافي ومصادر المياه والعلاقات المشاعية والطبقية والنظام القانوني الثقافي والايديولوجي.

مصادر الدراسة

تركيز ومنهج هذه الدراسة تطلبا البحث عن مصادر غير معتادة في كتابة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي. المصادر المعتادة هي مراكز الوثائق في المدن والصحف والمجلات ومراسلات القناصل الأجانب والأدبيات الثانوية من كتب رحالة ودراسات اكاديمية ومذاكرات، طالما أن تركيز هذه الدراسة على القبائل والفلاحين وردود فعلهم نحو الدول المركزية، لذلك من الطبيعي ان نجد مراكز الوثائق وتقارير القناصل الأجانب تعكس رؤى النخبات المدينية المحلية والمصالح التجارية الأوروبية. هذا لا يعني أن هذه المصادر غير مهمة ولكن لا بد من الحذر والوعي بمصالح الفئات التي كتبتها(٢٥).

للاسباب السابقة لا مناص للباحث من الاستماع والاهتمام بالتاريخ الشفهي والمصادر العربية وحتى الأغاني والأمثال الشعبية والشعر(٢٦). كذلك هذه الدراسة حاولت أن تكتشف

= Origins of the Process of Proletarianization and Urbanization of the Arab Peasants in Palestine,» *Annals of the New York Academy of Sciences,* vol. 220, no. 6 (1974), pp. 475-476, and Mahfoud Bennoune, «The Origins of the Algerian Proletariat,» *MERIP Reports* (February 1981), pp. 5-12.

(٢٣) للإطلاع على مفهوم تكوين الدولة، انظر: Ronald Cohen and Elman R. Service, eds., *Origins of the State: The Anthropology of Political Evolution* (Philadelphia: Institute for the Study of Human Issues, ©1978),

للاطلاع على مفهوم التكوين الاجتماعي الريعي، انظر: Henri Rosenfeld, «The Social Composition of the Military in the Process of State Formation in the Arabian Desert,» *Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland,* no. 95 (1956), pp. 75-86 and 174-195.

(٢٤) Samir Amin, «Modes of Production and Social Formation,» *Ufahamu,* vol. 4, no. 3 (Winter 1974), pp. 57-87.

(٢٥) لإلقاء نظرة ونقد التحليل الوضعي الكمي، انظر: Leszek Kolakowski, *The Alienation of Reason: A History of Positivist Thought* (New York: Doubleday and Company, 1968); Stuart Woolf, «Statistics and the Modern State,» *Comparative Studies in Society and History,* vol. 31, no. 3 (July 1989), pp. 590-596, and Gayatri Chakravorti Spivak, «The Rani of Sirmur: An Essay in the Reading of Archives,» *History and Theory,* vol. 24, no. 3 (1985), pp. 247-272.

(٢٦) انظر: Jan M. Vansina, *Oral Tradition: A Study in Historical Methodology* (Chicago, =

التاريخ الآخر ومساراته وحتى في حالة انعدام الاحصاءات والأرقام، لأن المهم برأينا هو رؤية تعدد وحيوية المجتمع وابراز ليس التاريخ الغالب الآن ولكن أيضاً ترميم التواريخ والمسارات التي هزمت أو أهملت(٢٧)، اعتمدنا في هذه الدراسة على وثائق عربية لم تنشر بعد. كذلك شكراً لمركز دراسات الجهاد في طرابلس على تجميعه التراث الشفهي لمجاهدين من الحرب الايطالية. سبعة مجلدات من الروايات الشفهية اعطتنا مصدراً غنياً لرؤية القبائل الليبية، بالاضافة الى المقابلات التي أجريناها.

هذا الكتاب مقسم الى خمسة فصول: **الفصل الأول** يتناول الاصول الاجتماعية للعلاقات القبلية والاقليمية في القرن التاسع عشر، **الفصل الثاني** يحلل اهم ملامح التكوين الاجتماعي العثماني خصوصاً التجارة، وعلاقات الملكية والدولة، **الفصل الثالث** يركز على الاقتصاد السياسي لاقليميّ طرابلس وفزان، **الفصل الرابع** يركز على اقليم برقة والصحراء الغربية، **والفصل الخامس** يحلل ردود فعل المجتمع الليبي على الغزو الايطالي.

هذه الدراسة تحاول أن تقدم رؤية منهجية جديدة لتاريخ ليبيا الاقتصادي والاجتماعي. **أولاً**: نظراً الى اختلاف الاقتصاد السياسي لاقاليم ليبيا الثلاثة في القرن التاسع عشر، لذلك واجهت الغزو الاستعماري الايطالي باقتصادات وقوى اجتماعية مختلفة، ثانياً: الدولة الاستعمارية الايطالية أدت الى زلزلة عنيفة للمجتمع الليبي، ولكن نسبياً كانت مرحلة قصيرة (١٩١١ - ١٩٤٣) اذا قورنت بطول فترة الاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس. ناهيك عن اختلاف طبيعة الاستعمارين، ايطاليا كانت دولة شبه رأسمالية مهتمة اساساً بمشكلة توطين فلاحي الجنوب، بينما فرنسا كانت اكثر تقدماً من ناحية الاقتصاد الرأسمالي. الطليان في ليبيا لم يهتموا جدياً بتحويل القبائل الليبية خارج المناطق الخصبة في الشمال الى فلاحين وعمال اجراء. ولكن العامل الأهم هو عناد وتصميم المقاومة القبلية والفلاحية لمدة عشرين عاماً

Ill.: Aldine Publishing Company, 1956), and *Oral Traditions as History* (Madison, Wis.: University of Wisconsin Press, 1985).

انظر ايضاً: James C. Scott, *Weapons of the Weak* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1985), pp. 27-37.

(٢٧) هنالك كتابات جديدة في موضوع المقاومة وخصوصاً في شبه القارة الهندية، وفي الهند بالذات. وهذه المدرسة تركّز على دراسة الجماعات الهامشية أو المهمشة، مثل الفلاحين والفقراء بشكل جديد يتجاوز الدراسات السائدة عن الحركة القومية التي تمثل الطبقات الوسطى. انظر اعمال كتّاب المجموعة في هذا الخصوص وفي مقدمتهم الباحث راناجيت غوها. لمزيد من التفاصيل، انظر:

Rosalind O'Hanlon, «Recovering the Subject, Subaltern Studies and Histories of Resistance in Colonial South Asia,» *Modern Asian Studies,* vol. 22, no. 1 (1988), pp. 187-224.

كذلك انظر الدراسة الرائدة عن دور الفلاحين الفلسطينيين في ثورة ١٩٣٦ في:

Theodore Swedenburg, «Memories of Revolt: The 1936-39 Rebellion and the Struggle for a Palestinian National Past,» (Ph. D. Dissertation, Anthropology, University of Texas at Austin, 1988).

عطلت التغلغل الاقتصادي الاستعماري، ومن ثم امكانية تحويل القبائل الى فلاحين وعمال وأجراء مثلما حدث في الجنوب التونسي ودخول الجزائر تحت التأثير الاستعماري الفرنسي.

هذا التعدد في ردود الفعل وخلاصة تأثيرها في نهاية المرحلة الاستعمارية أساسي لفهم تكوين المجتمع والدولة في الوطن العربي وتجاوز التحليلات الانشائية والتعميمات الغائمة من قبل الدراسات الاستشراقية، وكذلك انصار الدولة الوطنية وريثة المرحلة الاستعمارية.

علي عبد اللطيف حميدة
بورتلند/أورغون، الولايات المتحدة الامريكية
٢٥ آب/ أغسطس ١٩٩٣

الفصل الأول

الأصول الايكولوجيّة والاجتماعيّة للعلاقات الاقليميّة والقبليّة: خرافة الغزوة الهلاليّة

«ان كان أبو زيد عمّار عمّر سواني [مزارع] بلاده وان كان أبو زيد دمّار على الله تبقى حماده».

- مثل شعبي ليبي -

هـدف هذا الفصـل هو محـاولة تفسـير الأصول الايكـولوجيـة والاجتماعيـة لـلاقتصـاد الاقليمي والعلاقات القبلية في ليبيا العثمانية أو ولاية طرابلس الغرب في القرن التـاسع عشر. تفسـير هـذه الأصـول مهم لفهم طبيعـة البنـاء الاقتصـادي والاجتـماعي قبيـل مجيء الغـزو الايطالي. هذا يتطلب دراسة أهم ملحمة شعبية في المغرب العربي ألا وهي تغـريبة أو هجـرة قبيلتي بني هلال وبني سليم العربيتين في القرن الحادي عشر الميلادي. نحن لا نـدعي دراسة الفترة ما بين القرن الحادي عشر والتاسع عشر ولكن فقط مناقشة الجوانب المهمة للاجابة عن سؤال: ما هي جذور العلاقات القبليـة والاقليمية في ليبيـا العثمانيـة؟ لذا سنـركز عـلى ثلاث نقـاط أساسيـة: ما معنى المنـظومات القبليـة والاقليمية، وجغـرافية ولايـة طرابلس الغـرب، وأصول المنظومات القبلية؟

في العـام ١٩١١، واجهت الجيوش الايـطالية الغـازية مجتمعـاً ليبياً تعـددياً مكـوناً من تحالفات قبلية قوية قادرة على تهديد السلطة المركـزية للدولـة في مدينـة طرابلس وضـواحيها. كذلك واجه الطليان تنظيـمات اقليمية لمنـاطق جغرافيـة مثل طـرابلس والجبل الغـربي والقبلة وسرت وفـزان وبرقـة. الجدل الـذي سنحاول اثبـاته هـو أن الطبيعـة الجغرافيـة الصحراويـة والهجرات القبلية معاً يفسران أهمية التكوينات الاقليمية والقبلية.

التكوينات الاقليميـة نعني بها الـتركيب الاقتصادي والاجتـماعي المميز لاقليم فـزان أو برقة أو طرابلس، كذلك الاستقلال السياسي الداخلي من الدولة المركزية في طرابلس. الدولة المركزية في طرابلس سواء الدولـة القره مـانلية (١٧١١ ـ ١٨٣٥) أو الـدولة العثـمانية بعـدها (١٨٣٥ ـ ١٩١١) ظلت ضعيفة السلطة على الدواخل وبقيت قـادرة على جمع الضرائب من مدن الساحل غالباً. القبائل في الدواخل نظراً الى ضرورة حمل السلاح للدفـاع عن القطعـان والمراعي استطاعت أن تقلل من نفوذ الدولة العثمانية، بالاضافة الى وجـود دولة محليـة تحدت

الدولة العثمانية في طرابلس الغرب كما في حالة دولة أولاد محمد في فزان (١٥٥٠ ـ ١٨١٢) والدولة السنوسية في برقة (١٨٧٠ ـ ١٩٣١).

عندما جاءت الدولة العثمانية الى طرابلس الغرب في ١٥٥١ لمساعدة السكان المحليين لمواجهة الغزوات الاسبانية والبرتغالية، اضطرت للتعامل مع زعماء التحالفات القبلية ودولة أولاد محمد ومشاركة الحكم معهم نظراً الى كبر مساحة الولاية وعدم قدرة الدولة العثمانية أو ربما عدم اهتمامها بإعداد جيش كبير وموارد لغزو الدواخل الصحراوية. هذه العلاقات الودية بدأت تتغير الى صراع بين الدولة المركزية في طرابلس والتحالفات القبلية ودولة أولاد محمد حول جمع الضرائب والمكوس وايرادات التجارة عبر الصحراء.

اعتمدت التحالفات القبلية في الدواخل والدولة الاقليمية في فزان على تحالفات اقتصادية وسياسية نسميها الاقتصادات الاقليمية. وفي المرحلة السابقة على مجيء الاستعمار في شمال افريقيا وحدت اقتصادات اقليمية بين مناطق مختلفة. الحدود السياسية التي رسمت في نهاية القرن التاسع عشر والقرن العشرين لم توجد من قبل مثل جنوب تونس والمنطقة الغربية في ليبيا، برقة ودارفور وغرب مصر، فزان وبلاد السودان، وقد كونت اقتصادات اقليمية ارتبطت بأسواق وطرق تجارة وتحالفات قبلية وسياسية. المغرب الاسلامي قبيل القرن التاسع عشر كان يمثل امتداداً لإقليم واحد، لذلك كان مولد المؤرخ ابن خلدون في تونس، وقد عاش في الجزائر واصبح قاضياً في مصر حيث مات، بينما محمد بن علي السنوسي مؤسس الحركة السنوسية، ولد في الجزائر وعاش في المغرب والحجاز وأسس حركة اجتماعية دينية في برقة حيث مات.

جاءت أسرة أولاد محمد من فاس في المغرب واستقرت في فزان في القرن السادس عشر. هذه الاسرة تحالفت اقتصادياً وسياسياً مع الممالك الاسلامية في تشاد وبلاد النيجر حيث ارتبطت بعلاقات تجارية وجندت المقاتلين كما وجدت ملجأ في أوقات الضغط من الدولة العثمانية في طرابلس. كذلك القبائل البرقاوية لم تعترف بحدود سياسية بينها وبين صحراء مصر الغربية وتشاد والسودان. لقد اعتبرت القبائل البرقاوية صحراء مصر الغربية سوقاً لبيع قطعانها وخيولها وشراء أدواتها، وكذلك ملجأ في أوقات الجفاف والمجاعة والهزائم من قبل قبائل أخرى أو الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر.

ولاية طرابلس الغرب معظمها صحراء بلا انهار. والشريط الساحلي ذو مناخ بحر متوسطي. ولكن الدواخل تمثل جزءاً من فيافي الصحراء الكبرى، وفي منطقة خليج سرت يتقابل البحر المتوسط مع الصحراء وجهاً لوجه، وبالتالي تمثل منطقة عازلة بين برقة وطرابلس (انظر خريطة رقم (١ ـ ١)).

كمية الأمطار قليلة: شواطىء طرابلس تستقبل ٣٠٠ مليمتر من الأمطار سنوياً، بينما الجبل الأخضر أكثر حظاً، فكمية المطر تتراوح بين ٥٠٠ ـ ٦٠٠ مليمتر سنوياً، في فزان

وجنوب برقة كمية المطر شحيحة ونادرة تقريباً، حوالى ١٠ مليمترات سنوياً(١). باختصار، ٥ بالمئة من أراضي الولاية صالح للزراعة. لذلك مورست في القرن التاسع عشر الزراعة المستقرة في المنطقة الغربية أساساً خصوصاً في الشريط الساحلي، سهل الجفارة، الجبل الغربي، بالاضافة الى الجبل الأخضر، سهل المرج في برقة، وواحات فزان في الصحراء الكبرى.

اذا اردنا المزيد من التفصيل في تحليل الجغرافيا السياسية والاقتصادية لاقاليم ليبيا العثمانية الثلاثة فسنجد مثلاً: غرب ليبيا ـ طرابلس تتكون من ثلاث مناطق جغرافية: الشريط الساحلي، سهل الجفارة، والجبل الغربي. الشريط الساحلي يمتد من الزوّاية في الغرب الى مصراتة في الشرق. هذه المنطقة كانت تسمى في القرن التاسع عشر الساحل والمنشية. هنا نجد زراعة مستقرة وطبقة فلاحية مكونة من فلاحين صغار يعتمدون على العمل الأسري أو خمّاسة، يفلحون أراضي ملاك ويقتسمون المحصول(٢). بعد الشريط الساحلي يأتي أهم سهل، وهو سهل الجفارة الذي يمتد حتى الجنوب التونسي بسعة بين ثمانية الى اربعين ميلاً من الساحل. السهل فيه كثبان رملية وأعشاب صالحة لرعي الماشية. سهل الجفارة تمر به مجموعة أودية تمتلىء بالماء في فصل الشتاء من الجبل الغربي حتى تصب في البحر المتوسط. هذه الأودية تمثل مصدراً أساسياً لزراعة الحبوب(٣).

ما وراء سهل الجفارة يظهر جبل نفوسة أو الجبل الغربي. الجبل يستقبل مطراً اكثر من سهل الجفارة، بالاضافة الى وجود عيون وينابيع ماء في الجبل تساعد على ممارسة الزراعة المستقرة. الجبل يقترب من الساحل قرب مصراتة ولكن سفوحه الجنوبية صخرية وجافة تمتد حتى تصير جزءاً من الحمادة الحمراء شمال غرب فزان. هضبة الحمادة الحمراء تغطي مساحة ٤٠,٠٠٠ ميل مربع ـ بعدها يبدأ اقليم فزان ـ شرق طرابلس ويعرف بمنطقة القبلة التي بدورها تمتد شرقاً حتى منطقة سرت موطن القبائل الرحل أو شبه الرحل.

فزان، الاقليم الجنوبي للولاية، اقليم صحراوي سكانه يعيشون في الأودية الجافة حيث توجد الواحات والماء. أهم هذه الأودية وادي الشاطىء والآجال. النشاط الاقتصادي مقسم الى زراعة مستقرة في الواحات ورعي في مناطق الجفرة، الحمادة، الفيلة وسرت. هنا نجد تحالفات وتعاوناً بين سكان الواحات والقبائل والتجار(٤).

---

(١) ابراهيم احمد رزقانه، المملكة الليبية (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٤)، ص ٣٢، ٣٩ و٧٣.

(٢) Adolf Visher, «Tripoli,» *Geographical Journal,* no. 37 (November 1911), pp. 487-488.

انظر ايضاً: Jean Despois, «Types of Native Life in Tripolitania,» *Geographical Review,* no. 35 (1945), pp. 356-357.

(٣) Visher, Ibid.

(٤) جمال الدين الديناصوري، جغرافية فزان (بنغازي: دار ليبيا للنشر والتوزيع، ١٩٦٧)، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦، و Jean Despois, «Géographie humaine,» dans: *Mission scientifique du Fezzan, 1944-1945* (Paris; Alger: Institut de recherches sahariennes de l'université d'Alger, 1946), pp. 29 et 63.

برقة، الاقليم الثالث في شرق الولاية، يمتد من خلال شبه جزيرة تلامس البحر المتوسط، يفصله عن طرابلس منطقة سرت الصحراوية. أما في الشرق والجنوب فيحد اقليم برقة الصحراء. على عكس غرب ليبيا، جغرافية برقة ليس فيها سهل كسهل الجفارة. ولكن في برقة السهل الساحلي الضيق والجبل الأخضر يرتفع مباشرة ليطل على البحر المتوسط. بعد الجبل نجد سهل المرج الخصيب وبعدها هضبة واسعة، ولكن من غير مياه جوفية كثيرة. جنوب برقة صحراوي مثل فزان الحياة فيه محدودة في واحات مثل جالو، أوجله جخرة، تازريو، الجغبوب والكفرة.

نشأ الاقتصاد الرعوي في ليبيا كما في أماكن أخرى في العالم كنوع من التكيف البشري مع البيئات الصحراوية. الماء والمراعي تملكها القبيلة بشكل جماعي، والدفاع عن هذه الأراضي يأخذ طابعاً جماعياً. نظراً الى شحة الماء من المنطقي أن تنتقل القبيلة من مكان الى آخر بين المراعي ومصادر الماء. الطابع العسكري كذلك ضرورة من ضرورات البقاء في مواجهة الخصوم والتكيف مع طبيعة الترحال القاسية. لذلك فالقبيلة وحدة سياسية اقتصادية واجتماعية، ولكن القبيلة في ليبيا العثمانية ارتبطت بطرق التجارة والتحالف مع فلاحي الواحات[٥].

معظم سكان الولاية في القرن التاسع عشر كانوا ينتمون الى تنظيمات قبلية نظراً الى فقر الولاية ومناخها الصحراوي. مثلاً في العام ١٨٥٠ كان عدد سكان المدن صغيراً. فطرابلس تعدادها ١٢,٠٠٠، مصراته حوالى ١٠,٠٠٠، مرزق عاصمة فزان تعدادها بلغ ٥,٠٠٠، كذلك مدن برقة، بنغازي، المرج ودرنة[٦].

تعداد الولاية في عام ١٩١١ بلغ حوالى المليون من السكان: طرابلس (المنطقة الغربية) بلغ تعدادها حوالى ٥٧٠,٠٠٠، ١٢٦,٠٠٠ شبه رحل، ٨٦,٠٠٠ رحل، بينما ازداد عدد سكان مدينة طرابلس الى ٢٩,٠٠٠. فزان، شهدت نقصاً في عدد سكانها خصوصاً لو نظرنا الى واحات سوكنه، مزرحة، وغات لوجدنا حوالى ٣,٠٠٠ في كل واحة[٧]. برقة بلغ عدد

---

(٥) Lawrence Krader, «Pastoralism,» in: *Encyclopedia of the Social Studies* (1968), vol. 2, pp. 453-461.

لمراجعة الأدبيات الخاصة بالحياة الرعوية، انظر: Anatolii Mikhailovich Khazanov, *Nomads and the Outside World,* translated by Julia Grookenden with the foreword by Ernest Gellner, Cambridge Studies in Social Anthropology (Cambridge; New York Cambridge University Press, 1984).

(٦) E. Pellissier De Reynaud, «La Regence de Tripoli,» *Revue des deux mondes,* no. 12 (1955), pp. 14 et 16, et

الهادي ابو لقمة، دراسات ليبية (بنغازي: مكتبة قرينة، ١٩٧٥)، ص ٦٣ - ٦٤.

(٧) ابو لقمة، المصدر نفسه، ص ١٤٧ - ١٥٠، و

Enrico Di Agostini, *Le Popolazioni Della Tripolitania: Notizle, Ethniche e Storiche* (Tripoli· Uffico Politico Militare, 1917), pp. 2, 8 and 12,

وللكاتب نفسه، *Le Popolazioni Della Cirenica* (Benghazi: Governo Della Cirenica, 1922-1923), pp. 415 and 427.

سكانها حوالى ٢٠٠,٠٠٠ اغلبهم رحل واشباه رحل، ولكن تعداد المدن بقي صغيراً، حوالى ١٩,٠٠٠ في بنغازي و١٠,٠٠٠ في درنة[٨]. بإختصار، تعداد البدو الرحل وشبه الرحل مثل غالبية سكان الولاية. الاستثناء الوحيد بالنسة الى أهمية تعداد المدن هو مدينة طرابلس. السؤال الذي يجب طرحه: هل كان هذا التيار الغالب لفترة طويلة أم أنه تطور حديث؟

ومؤرخو التاريخ الليبي القديم في العهد اليوناني والروماني يشيرون إلى وجود زراعة مستقرة ومدن كبيرة مثل شحات، قورينا، طوكره، طليمته، لبده، طرابلس، صبراته وجرمه غير من طبيعتها تغيير الوضع الديموغرافي والجغرافي. وماذا صار لاقليم افريقيا الشمالية الذي كان مصدراً للحبوب للامبراطورية الرومانية حتى القرن السادس الميلادي[٩].

التحليل الشائع في الدراسات الغربية يرجع التغيير نحو البداوة والرعي الى غزوة القبائل العربية الحجازية بني هلال وسليم الى شمال افريقيا في القرن الحادي عشر. تقول هذه المصادر أن ما يقرب من ٣٠٠,٠٠٠ من هذه القبائل الفوضوية مدفوعة بالهوس الاسلامي جاءت بقطعانها ومواشيها الى شمال افريقيا واكلت الأخضر واليابس، وحطمت القنوات والمعدات ووسائل الري، ونهبت المدن. هذه الغزوة شجعت من قِبَل الخليفة الفاطمي المستنصر على عقاب عامله على افريقيا المعز بن باديس الصنهاجي الذي استقل بولايته ورفض دفع الخراج واعلن ولاءه للخليفة العباسي في بغداد[١٠].

أهم المدافعين عن هذا التحليل المؤرخ الفرنسي. إ. ف غوتييه الذي كان ضابطاً فرنسياً في مستعمرة مدغشقر وبعدها في الجزائر. إن هذا التحليل للأسف صار شائعاً عند العديد من المؤرخين العرب. غوتييه زعم أن شمال افريقيا لم تنهض من كارثة الغزو الهلالي

كما أن هناك ملخصاً لبحثه تحت عنوان:

«Sulla Populazioni Della Libia,» *Libia* (Gennio-Marzo 1954), pp. 4-13.

(٨) انظر: Y. W. Gregory [et al.], *Report on the Work of the Commission Sent by the Jewish Territorial Organization, Under the Auspices of the Governor General of Tripoli to Examine the Territory Proposed for the Purpose of a Jewish Settlement in Cyrenaica* (London: Jewish Organization, 1909), p. 11.

(٩) من اجل الاطلاع على المرحلة الرومانية، انظر: Robert Goodchild, «Farming in Roman Libya,» *Geographical Journal*, no. 25 (1952), pp. 70 - 80, and Rhods Murphy, «The Decline of North Africa Since the Roman Occupation: Climate or Human,» *Association of American Geographers*, no. 41 (June 1951), pp. 116-132.

(١٠) Emile Félix Gautier, *Les Siècles obscurs du Maghreb* (Paris: Payot, 1972), pp. 385 - 389; André Gulien, *Histoire de l'Afrique de Nord* (Paris: Payot, 1931), pp. 373 - 402; Jean Despois, *Le Dejbel Nafousa (Tripolitaine): Etude géographique* (Paris: Larose, 1935), p. 291; Muhammad Talbi, «Law and Economy in Afriqiya (Tunisia) in the Third Islamic Century,» in: Abraham L. Udovitch ed., *The Islamic Middle East, 700 - 1900: Studies in Economic and Social History* (Princeton, N. J.: Darwin Press, 1981), pp. 222-223, and Abdal-Rahman Ibn Khaldun, *The Muqaddimah*, Trans. by Franz Rosenthal (New York: Pantheon, 1958), pp. 304 - 305.

إلا بعد مجيء الاستعمار الأوروبي الحديث في القرنين التاسع عشر والعشرين. هذه القراءة لتاريخ المغرب اعتمدت على كتابات المؤرخ الاسلامي ابن خلدون في القرن الرابع عشر(١١). غير خافٍ هنا محاولة تبرير الاستعمار الفرنسي من خلال تصويره عملية الاعمار والتحديث التي قام بها بعكس المرحلة الاسلامية السابقة التي ادت الى بث الفوضى والدمار الاقتصادي.

هذا التفسير الايديولوجي للغزوة الهلالية بدأ يقابل بمراجعات تصحيحية ونقدية، فمثلاً عالم الآثار الانكليزي روبرت جولد تشايلد الذي تخصص في دراسة الآثار الرومانية واليونانية في شرق ليبيا، أشار الى أن الزراعة المستقرة بدأت في التدهور في القرن الثالث الميلادي، اي قبل الغزو الهلالي بسبب السياسة الرومانية وغزو قبائل الوندال وتخريبها شمال افريقيا. المؤرخان الفرنسيان ج. بونسيه وكلود كاهين يتفقان مع جولد تشايد ويضيفان بأن تغيير طرق التجارة وضعف الدولة الزيرية ساعدا على تغيير الاقتصاد في شمال افريقيا(١٢).

يعتقد إيف لاكوست بأن التركيز على تأثير القبائل الهلالية بهدف إيديولوجي هو لتبرير الاستعمار الفرنسي. كذلك يقول بأن ابن خلدون كتب عن الغزوة الهلالية بعد ثلاثة قرون، كما أنه كان متحيزاً ضد القبائل البدوية. ابن خلدون جاء من عائلة مدينية ثرية ولذا فكتاباته عكست نظرته الايديولوجية الطبقية(١٣). كما أنه صار مستشاراً للعديد من الدول الاسلامية التي نظرت الى البدو بشكل حذر(١٤). وبالإضافة الى أن الغزوة الهلالية لم تكن هم ابن خلدون الاساسي، إلا أنه وصف القبائل في أماكن أخرى من مقدمته كبناة دول(١٥).

هناك دراستان حديثتان تضيفان آراء جديدة عن هذه المشكلة التاريخية، لـ: محمود أبو صوّه وراضي دغفوس وقد اعتمدا على المصادر العربية المعاصرة للهجرة الهلالية. أبو صوه يركز على سرعة أسلمة وتعريب سكان المغرب البربر نظراً الى التقارب في القيم واسلوب الحياة البدوية بين العرب والبربر(١٦). راضي دغفوس اعتمد على كتابات المقريزي وابن تغري بردي التي أثبتت بأن هجرة بني هلال وسليم لم تكن أساساً بدافع ديني أو لعقاب العامل الفاطمي المعز بن باديس ولكن بسبب الجفاف والمجاعة في مصر العليا حيث استوطنت هذه

---

(١١) Yves Lacoste, *Ibn Khaldun; Naissance de l'histoire, passé du tiers-monde* (London: Verso, 1984), p. 76.

(١٢) Jean Poncet, «Le Mythe de la catastrophe hilalienne,» *Annales économies, sociétés, civilisations (ESC)*, no. 22 (septembre-octobre 1967), pp. 1099-1120, et Claude Cahen, «Quelques mots sur les hilaliens et le nomadisme,» *Journal of Economic and Social History of the Orient*, no. 11 (1963), pp. 130-133.

(١٣) Lacoste, Ibid., pp. 66 - 67.

(١٤) المصدر نفسه، الفصل ٢، ص ٣٥ - ٦٤.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٦٧.

(١٦) محمود أبو صوه، «رؤية جديدة للفتح الاسلامي لليبيا،» مجلة البحوث التاريخية، السنة ٨، العدد ١ (كانون الثاني/ يناير ١٩٨٦)، ص ٤٨ - ٤٩.

القبائل[١٧]. يبدو تدهور الاقتصاد الزراعي والمديني في شمال افريقيا كنتيجة عوامل تغيير في المناخ وضعف الدولة بالاضافة الى الهجرات والغزوات بداية بالوندال الذين جاؤوا من اوروبا، وكذا، تأثير الهجرة الهلالية هو اكمال للتأثيرات السابقة، ومن هنا تأتي خرافة الاعتقاد بالهجرة الهلالية وكأنها العامل الوحيد الذي حوّل اقتصاد شمال افريقيا من الزراعة المستقرة إلى الاقتصاد الرعوي. هذا الرأي لا يجب أن يفسر بأننا ننكر تماماً تأثير القبائل البدوية في المدن والزراعة، ومن الواضح أن هذه طبيعة معظم التنظيمات القبلية بشكل عام، ولكن تحليل الهجرة الهلالية في إطارها التاريخي يفرض فهم تأثيرها في التحولات الاجتماعية في شمال افريقيا بما فيها ليبيا.

استولت القبائل الهلالية على مصادر المياه وأخصب الأراضي، كما أنها حولت بعض البربر والمهاجرين المسلمين الذين فتحوا شمال افريقيا في القرن السابع الى تابعين. من الناحية الثقافية ساهمت هذه القبائل في تعريب شمال افريقيا بعد اسلامها في القرن السابع. هذه التأثيرات لم تحدث سريعاً ولكن اخذت قروناً، وربما حتى القرن الرابع عشر، كذلك في غاية الأهمية أن الهجرة الهلالية ادت الى بروز أهم ملحمة شعبية في التراث العربي المعاصر. تغريبة بني هلال وسليم منغرسة في أرياف مصر وشمال افريقيا وفلسطين. اهميتها بالنسبة الى الباحث المعاصر تكمن في أنها مخزون غني للاحباطات، المقاومة، واعادة تفسير الصراعات السياسية والاجتماعية، كما اثبتت الدراسات المعاصرة للهجرة. فاذا المقاومة ضد الاستعمار مثل عمر المختار والمقاومة الفلسطينية في الذاكرة الشعبية تقارن بفرسان الهلالية مثل أبو زيد وذياب[١٨].

في عام ١٩٠٨ جاءت بعثة علمية يهودية اوروبية الى برقة، بهدف استكشاف مدى امكانية إسكان يهود اوروبيين في برقة. بعد دراسة المنطقة كان انطباع البعثة كالآتي: رغم أن الأمطار في الجبل الأخضر أكثر من أي مكان آخر في ليبيا، فالأمطار برأي علماء البعثة ليست كافية لزراعة مستقرة تكفي عدداً كبيراً من السكان. ولكن أكثر اهمية بالنسبة الى علماء البعثة اكتشافهم بأن كمية المياه الجوفية قليلة جداً نظراً الى طبيعة التركيب الجغرافي للمنطقة. هذا الرأي يبدو غريباً اذا اخذنا في الاعتبار أن كميات الأمطار التي تصب على الجبل الأخضر أكثر من المنطقة الغربية. وجد باحثو البعثة ان طبيعة التربة في برقة لا تساعد على حفظ مياه الأمطار لكونها تتسلل الى البحر عكس المنطقة الغربية[١٩]. العلماء اشاروا الى امكانية تغيير في

(١٧) راضي دغفوس، «العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال،» أوراق (مدريد) (نيسان/ ابريل ١٩٨١)، ص ١٤٧ - ١٦٣.

(١٨) انظر: شوقي عبد الحكيم، سيرة بني هلال (بيروت: دار التنوير، ١٩٨٣). من أجل تحليل الآثار الاجتماعية لسيرة بني هلال في حضارة شمال افريقيا، انظر: Abd al-Rahman Ayyub, «The Hilali Epic: Material and Memory,» *Revue d'histoire maghrebine*, vol. 11, nos. 35 - 36 (décembre 1984), pp. 184 - 217.

للإطلاع على المغزى السياسي المعاصر لسيرة بني هلال، انظر أيضاً: Susan Slyomovic, «Arab Folk Literature and Political Expression,» *Arab Studies Quarterly*, vol. 8, no. 2 (1986), pp. 178-185.

(١٩) Gregory [et al.], *Report on the Work of the Commission Sent by the Jewish Territorial Organization, Under the Auspices of the Governor General of Tripoli to Examine the Territory Proposed for the Purpose of a Jewish Settlement in Cyrenaica*, pp. 5 - 6.

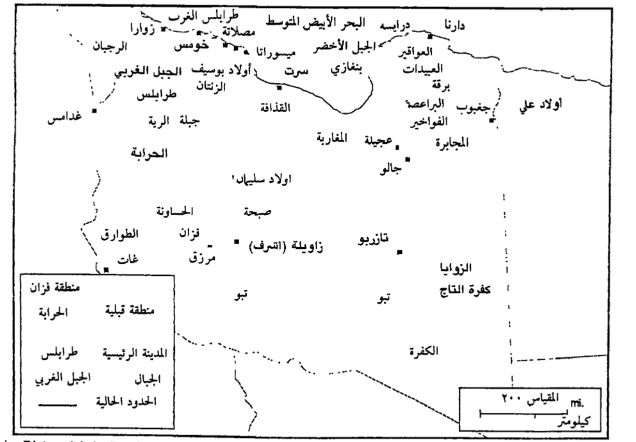
البيئة منذ القرن السادس الميلادي ادى الى تناقص كمية الأمطار الساقطة على الجبل الأخضر وبالتالي الغابات. هذا التقرير من قبل متخصصين من الجامعات الانكليزية والفرنسية يؤكد رأينا بأن الاقتصاد الرعوي في ليبيا ظهر نتيجة الغزوات والهجرات القبلية والتغييرات المناخية أيضاً.

من خلال هذا العرض السابق تبرز نتيجتان مهمتان: الاقتصادات الاقليمية وسيطرة العلاقات القبلية استمرت كرد فعل لتحولات مناخية ايكولوجية وعوامل بشرية اجتماعية واقتصادية[٢٠]. المناخ، طبيعة التربة، كمية الأمطار، والمياه الجوفية حددت الفرص المتاحة للسكان ونمط إنتاجهم. كذلك إحضار الجمل من الجزيرة العربية من قبل الرومان في القرن الثالث الميلادي اعطى البدو الرحل والتجار وسيلة فعالة كـ«سفينة الصحراء» للمواصلات، بالاضافة الى أن الجمال اصبحت مصدراً للحوم واللبن والملابس.

---

(٢٠) كانت اقتصادات السوق المحلية من المظاهر الشائعة في افريقيا والشرق الأوسط. انظر دراستين حول هذا الموضوع في: Paul E. Lovejoy and Stephen Baır, «The Desert-Side Economy of Central Sudan,» *International Journal of African Historical Studies,* vol 8, no. 4 (1975), pp. 550-565, and Hala M. Fatah, «The Development of Regional Markets of Iraq and the Gulf, 1800-1900,» (Ph. D. Dissertation, History, Los Angeles, University of California, 1986).

خريطة رقم (١ - ١) أهم المدن، مناطق القبائل والأقاليم (١٩١٠ - ١٩١١)



المصادر: Enrico Di Agostini, *Le Populazioni Della Tripolitania* (Tripoli. Uffico Politico Militare, 1917), p. 39; *Handbook of Libya*, p 97, and Aghil M. Barbar, «Tarabulus (Libyan Resistance to Italian Invasion, 1911-1920),» (Ph. D. Dissertation, History, Madison. University of Wisconsin, 1980), p. 98.

الفصل الثاني

التكوين الاجتماعي العثماني : التجارة والاقتصاد والاكتفاء الذاتي ، ١٨٣٠ - ١٩١١

«ترسلون اسطولاً يطالبني بدفع مصاريف الحملة وانت تعلم ما أنا فيه من ضيق وأن البلاد مجدبة منذ أربع سنوات وان إيرادي منحصر كله في الحاصلات وعلى كل حال الدين سوف أدفعه عاجلاً أم آجلاً، كما أرجو أن ترفع العلم الذي هو إشارة لعفوكم عن عجزي وعلامة رضاكم».

يوسف باشا القره مانلي، حاكم طرابلس الغرب في رسالة الى القنصل الانكليزي وارنغتون (١٨٣١).

كان التكوين الاجتماعي لليبيا العثمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر تكويناً ريعياً[1]. اقتطعت النخبة الحاكمة ريعاً وضرائب سنوية أو كبضائع وسلع ومنتجات أو نقود من القبائل والحرفيين والفلاحين والسفن التجارية الأجنبية التي كانت تمر بالساحل الليبي، وقوافل التجارة عبر الصحراء الكبرى بين البحر المتوسط وبلاد السودان (ما يعرف اليوم بتشاد والنيجر ومالي وشمال نيجيريا) نظراً الى طبيعة الولاية الصحراوية وعدم انتظام الأمطار. لذلك فالمنتوجات الزراعية الرعوية اختلفت بين سنة الى أخرى في السنين المطيرة يزداد الانتاج في الحبوب والمواشي، ولكن في سنين الجفاف يأتي خطر المجاعة[2]. على سبيل المثال، عانت الولاية من الجفاف في ١٨٥٦، ١٨٥٩، ٢ ـ ١٨٨١، ١٨٨٨، و ٢ ـ ١٩٥١. باختصار غالباً ما كان الفائض الاقتصادي الزراعي محدوداً[3].

---

(١) للاطلاع على التكوين الاجتماعي الريعي، انظر: Samir Amin: «Modes of Production and Social Formation,» *Ufahamu*, vol. 4, no. 3 (Winter 1974), p. 66, and *Class and Nation: Historically and in the Current Crisis* (New York: Monthly Review Press, 1980), pp. 1-19 and 46 - 70;

انظر أيضاً: Kate Currie, «Problematic Modes and the Mughal Social Formation,» *Insurgent Sociologist*, vol. 9, no 2 (1980), pp. 9-21.

(٢) ابو عبد الله محمد بن خليل بن غلبون، **التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخبار**، عني بتصحيحه والتعليق عليه الطاهر أحمد الزاوي، ط ٢ (طرابلس: مكتبة النور، ١٩٦٧)، ص ٢٨١.

(٣) Ettore Rossi, *Storica Di Tripoli e Della Tripolitania Dallo Conquesta Araba al 1911*, trans. into Arabic by Khalifa Al Tillisi (Beirut: Dar Al-Thaqafa, 1974), p. 277;

نقولا زيادة، **ليبيا في العصور الحديثة**، محاضرات (القاهرة: جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، قسم الدراسات التاريخية والجغرافية، ١٩٦٦)، ص ٥٣؛ محمد بن عثمان الحشائشي، **جلاء الكرب عن طرابلس الغرب**، تحرير علي مصطفى المصراتي (بيروت: دار لبنان، ١٩٦٥)، ص ٩٩، و Great Britain, Public Record Office, Consul Alvarez, «Benghazi, the F.O.A. Report on Trade and Commerce of Benghazi and Derna for the Years 1902-1903,» Received in 5 November 1904, p. 22.

على عكس الانتاج الزراعي، كانت تجارة القوافل عبر الصحراء بين بلدان البحر المتوسط وبلاد السودان وغرب افريقيا أكثر استقراراً وقدمت موارد ثابتة لتجار القبائل والدولة المحلية. ولكن حتى تجارة القوافل عبر الصحراء لم تكن خالية من المشاكل والانقطاع نظراً الى الحروب والغزوات والنهب الذي تعرضت له القوافل في بعض الاحيان.

ريع التجارة والضرائب كان نمط الانتاج الغالب على الاعاط الأخرى مثل الانتاج العائلي والفلاحي والحرفي في سهل طرابلس، والانتاج الرعوي في شرق طرابلس، والتخميس في فزان، والانتاج الرعوي في برقة. حكمت الدولة والطبقة الحاكمة العثمانية في طرابلس مجتمعات متعددة فلاحية/ رعوية في طرابلس وفزان واقتصاداً رعوياً في برقة. في هذا الفصل سنحاول تحليل ملامح الاقتصاد السياسي بشكل عام وعلاقة المجتمع بالدولة في القرن التاسع عشر.

أولاً: تجارة القوافل عبر الصحراء

تشير دراسات التاريخ الليبي القديم الى أن تجارة القوافل وجدت اثناء حكم الرومان في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، ولذلك نجد مدن شمال ليبيا كطرابلس وصبراتة ولبدا قد ازدهرت كمراكز تجارية لتصدير سلع تجارة القوافل[٤].

ولا بد ان طرابلس الغرب تميزت بموقع جغرافي هام بين أوروبا في الشمال والمشرق العربي، ولكن الأكثر أهمية كان قربها من بلاد السودان وغرب افريقيا. لذلك نجد أن ثلاثة من اهم أربعة طرق قوافل في شمال افريقيا مرت بليبيا في القرن التاسع عشر[٥]. طريقان مرّا بغرب - جنوب ليبيا: طرابلس - سوكنة، مرزق، غات، بورنو؛ وطرابلس، غدامس، غات - كانو. الطريق الثالث مر بين بنغازي - جالو - الكفرة - واداي (انظر خريطة رقم ٢ - ١)[٦].

اهتمت الدولة العثمانية بتنظيم وحماية التجارة وسلامة مرورها في الصحراء والواحات، لذلك نجد تحالفاً بين الفئة العسكرية الحاكمة في طرابلس، التجار وبعض رؤساء القبائل الذين قدموا الحماية لهذه القوافل مقابل أعطيات من الدولة والتجار. رجال القبائل العاديون وجدوا في هذه التجارة فرصة للعمل كحراس، مرشدين ومؤجرين للجمال. وقد حرصت الدولة العثمانية في طرابلس على التحالف مع حكام وسلاطين بلاد السودان مثل ممالك كانم، بورنو ووادي الاسلامية[٧]. ولكن الحكم العثماني في طرابلس الغرب خلال القرن السابع

---

(٤) Jean Despois, *La Colonisation italienne en Libye: Problèmes et méthodes,* traduit en arabe par Hashim Haydar (Benghazi: Dar Libya, 1968), p. 57.

(٥) Adu A. Boahen, «The Caravan Trade in the Nineteenth Century,» *Journal of African History,* vol 3, no. 2 (1972), p. 350.

(٦) Dennis D. Cordell, «Eastern Libya, Wadai and the Sanusiyya: A Tariqa and a Trade Route,» *Journal of African History,* vol. 18, no. 2 (1972), pp. 21-36.

(٧) انظر: B.G. Martin, «Five Letters from the Archives of Tripoli,» *Journal of the Historical Society of Nigeria* (1962), pp. 350-380.

عشر والثامن عشر لم يكن قوياً، ولذا نجد دولة محلية في إقليم فزان قد لعبت دوراً هاماً في تنظيم هذه التجارة، نعني دولة أولاد محمد التي نافست العثمانيين في السيطرة على التجارة بين عامي ١٥٥٠ ـ ١٨١٢[٧].

ثانياً: خلفية تاريخية

بدأ الحكم العثماني في الشمال الافريقي في العام ١٥٥١، كما أسلفنا، في إطار الصراع السياسي بين الحملات البرتغالية والإسبانية واهم دولة اسلامية في ذلك الوقت، الامبراطورية العثمانية. لذا كان طبيعياً أن يستنجد سكان سواحل شمال افريقيا بالدولة الاسلامية لنجدتهم من الاحتلال الأيبيري[٩]. ولكن هذا الصراع له جوانب اقتصادية واستراتيجية. الدولة العثمانية في بدايتها كانت دولة ريعية، أي اعتمد إقتصادها على الغزو والريع المقطوع من الأراضي التابعة لها للصرف على الدولة والطبقة الحاكمة. العثمانيون بلا شك اعتبروا أن دولتهم تدافع عن الايديولوجيا الاعلامية، ولكن كل دولة، بغض النظر عن الثقافة والايديولوجيا، تخضع لقوانين البقاء وخصوصاً الحصول على فائض مادي للصرف على الدولة والادارة. لذلك اهتمت الدولة العثمانية بنداء بعض سكان المدن كما في حالة طرابلس الغرب كما يخبرنا ابن غلبون لمعاونتهم في صد الهجمات الاسبانية. ضم طرابلس الغرب الى الدولة العثمانية جلب معه امكانية اضافة موارد ريعية من الولاية وأن تصبح بوابة افريقيا الاسلامية. في عام ١٥٥١ أفلح الاسطول العثماني في نزع طرابلس من فرسان القديس يوحنا حلفاء اسبانيا الذين احتلوا المدينة في عام ١٥١٠. وبذلك اصبحت طرابلس ولاية عثمانية عرفت باسم ولاية طرابلس الغرب[١٠].

كان الحكم العثماني محدوداً في المنطقة الساحلية وضواحيها، اما قبائل الدواخل ودولة اولاد محمد في فزان فلم يرحبوا بالحرارة نفسها التي رحب بها سكان مدينة طرابلس بالعثمانيين[١١].

توافق مجيء العثمانيين الى طرابلس مع ظهور دولة محلية في فزان عرفت باسم مؤسسها

---

(٨) لم تصدر حتى الآن دراسة علمية شاملة عن هذه الدولة الليبية الصحراوية، إذ إن معظم ما نعرفه عن تاريخها وصلنا عن طريق كتابات ابن غلبون وتقارير بعض الرحالة الغربيين أمثال هارنمان عام ١٧٨٩، وبارث عام ١٨٤٩، وناشتيغال عام ١٨٦٩. وقد اكتشفت مؤخراً مخطوطة مكتوبة من قبل كاتب غير معروف، وقد حققها الباحث الطرابلسي المشهور الخوجا، انظر: حبيب وداعة الحسناوي، محرر، تاريخ فزان، تحقيق الخوجا (طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٧٩). كذلك نشر الحسناوي اطروحته عن أولاد محمد، وهي أهم دراسة حتى الآن عن هذه الدولة.

(٩) ابن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخبار، ص ١١١ ـ ١١٣.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(١١) انظر: عمر علي بن اسماعيل، انهيار حكم الاسرة القرمانلية في ليبيا (١٧٩٥ ـ ١٨٣٥) (طرابلس الغرب: مكتبة الفرجاني، ١٩٦٦)، ص ٢٠٥.

محمـد الفاسي بـدولة اولاد محمـد، وحسب الروايـات الشفوية في فزان، كـان محمد الفـاسي شريفـاً من مدينـة فاس في المغـرب وانه قـدم الى فـزان واستقـر بهـا في العـام ١٥٥٠. هـذا الشريف الذي زعم انه ينتمي الى نسل النبي، ربما جاء الى فزان عن طريق قوافل التجارة أو كان في طريقه الى الحج. على أية حال، تأسيس الدول من قبل صُلحـاء او فقهاء او حـرفيين ليس بالجديد في المغرب الاسلامي. الذي نعرفه أن هـذا الشريف أسس دولة محليـة في فزان مركزها واحة مرزق وتحالف مع سلاطين الممالك الاسلامية في تشاد وشـمال نيجيريـا. حكمت دولـة اولاد محمـد اقليم فـزان من عـام ١٥٥٠ الى عـام ١٨١٢ ممـا يعني أنها خلقت جـذوراً وقاعدة محلية ساعدتها على البقاء كل هذه الفترة.

كان الأساس الاقتصادي لدولة أولاد محمد تجارة القوافـل عبر الصحـراء، فقد نـظمت الدولة هذه التجارة وحمتها من خلال تـوفير مـراكز للراحـة، اسواق للتبـادل وقضاة وحـراس للحماية وفضّ المنـازعات كـان اقليم فزان نـظراً الى موقعـه الاستراتيجي أهم سـوق لتجارة القـوافل خصـوصاً ان اهم طـريقين للتجـارة مرّا بـأراضيـه. أسرة أولاد محمـد عـاشت عـلى الضرائب والريع المفروضة على القوافل بالاضافة الى الضرائب المفروضة على الواحات.

أدى أهمية فزان كسوق لتجارة القوافل الى صراع طويل بين الدولة العثمانية ودولة اولاد محمد. الدولة العثمانية في طرابلس عادة ما ترسل حملة الى فزان مما يؤدي الى حـرب مع أولاد محمد أو الاعتراف بـإعطاء ريـع للدولة العثـمانية، ولكن بعـد ذهاب الجيش العثـماني يتراجـع أولاد محمـد عن دفع الـريـع هـذا الصراع استمـر حتى عـام ١٦٣٩ عنـدمـا تـوسط العلماء والاشراف في فزان بين الدولتين كما سنفصل في ما بعد. أدت هذه الوسـاطة الى اتفـاقية بـين الطرفين: الدولة العثمانية وافقت على الاعتراف باستقلال أولاد محمد بحكم فزان مقابل دفـع ريـع سنوي من عبيـد وذهب لطرابلس. ولكن السلطان محمـد بن جهيم رفض دفع الـريـع السنوي في عام ١٦٨٢، وقـد أدى هذا الـرفض الى إرسال حملة عثـمانية من طـرابلس بقيادة مراد المالطي الذي هزم أولاد محمد وقتل السلطان محمد بن جهيم. السلطان محمد الناصر بن محمد بن جهيم وافق على دفـع الريـع العثماني[١٢]. ولكن في عـام ١٦٨٩ رفض محمد النـاصر دفع الريع، وعندمـا ارسل الـوالي العثماني في طـرابلس حملة عسكريـة ضده استـطاع الناصر هزيمة هذه الحملة. ولهذا استقل أولاد محمد بموارد تجارة القوافل حتى ظهور احمد القـره مانـلي الذي أسس أسرة حاكمة في طرابلس في عام ١٧١١[١٣].

ظهور الدولة المستقلة عن الامبراطورية العثـمانية ليست ظـاهرة محـدودة ولكنها عكست ظهور طبقة الأعيان في ولايات الامبراطورية، في بداية القرن الثـامن عشر، كأسرة العـظم في دمشق، الجليلي في الموصل، الجزار في عكـا، ظاهـر العمر في فلسـطين، الاسرة الحسينية في تونس.

---

(١٢) الحسناوي، محرر، تاريخ فزان، ص ٧٣.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٧٦.

برزت هذه الطبقة كجامعي ضرائب (اعيان في المدن) في نهاية القرن السابع عشر واصبحت القاعدة الأساسية للأسر المستقلة في القرن الثامن عشر. هذه الأسر كأسرة القره مانلية في طرابلس عكست استقلالاً نسبياً ولكن مع ارتباط نسبي مع الامبراطورية. مثلاً أحمد القره مانلي جاء من طبقة الكولوغلية العسكرية. والكولوغلية هم أبناء ضباط إنكشارية أتراك وامهات ليبيات، ولكنهم في النهاية تصرفوا كأتراك وأعضاء في النخبة الحاكمة كضباط أو قوة خاصة أو بوليس وجامعي ضر ائب. ولكن الأسرة القره مانلية ليست كالولاة العثمانيين السابقين. لقد حاول الولاة القره مانليون تقديم أنفسهم للأهالي كليبيين وفي بعض الأحيان استخدموا اللغة العربية في كتاباتهم.

في عام ١٧١١ اصبحت طبقة الكولوغلية الطبقة الحاكمة. ورغم استقلالهم في طرابلس إلا أنهم احتفظوا بالحماية الامبراطورية خوفاً من أطماع الدول الأوروبية في غياب الحماية الدولية للسيادة. لذلك عند صعود باشا قره مانلي جديد، عادة ما يطلب فرماناً من السلطان العثماني في اسطنبول بتعيين الباشا الجديد. ولكن ولاة الأسرة القره مانلية تصرفوا سياسياً بشكل مستقل وفي بعض الحالات ضد مصالح الدولة العثمانية كما حدث في فترة الغزو الفرنسي لمصر. فلقد أيد يوسف باشا القره مانلي الحملة الفرنسية نظراً الى علاقته الاقتصادية مع فرنسا غير عابىء بمعارضة السياسة الامبراطورية في اسطنبول في عام ١٨١٥[١٤].

اضطرت الاسره القره مانلية لممارسة التقاليد القديمة في الولاية كنوع من سياسة الامر الواقع. جيش القره مانليين لم يكن قادراً على هزيمة التحالفات القبلية في الداخل أو دولة أولاد محمد. لذلك استمروا مثل الولاة المعينين من اسطنبول في السابق في المراوغة واغراء بعض شيوخ القبائل باعفائهم من الضرائب نظير تعاونهم مع الدولة في جمع الضرائب من القبائل الأخرى. ولكن القره مانليين، نوّعوا مصادر دخلهم بفرض ضرائب على السفن التجارية التي كانت تمر في الساحل الطرابلسي. ولكي يستطيعوا فرض هذه الضرائب بنى القره مانليون اسطولاً صغيراً للهجوم على السفن التي ترفض هذه الضرائب التي كانت تسمى أتاوات[١٥].

نجحت الاسرة القره مانلية في حكم الولاية فترة طويلة (قرن وربع) ويرجع ذلك الى سياستين مهمتين: التحالف مع شيوخ القبائل الكبيرة واعفائهم من دفع الضرائب مثل ما فعل يوسف باشا القره مانلي مع احفاد عشيرة اولاد نوير شيوخ المحاميد في الجبل الغربي وعائلة حدوث من البراعصة في الجبل الأخضر وعائلة سيف النصر شيوخ قبائل اولاد سليمان في سرت، وفزان. بجانب سياسة الاعفاء والاغراء المادي، عاقب يوسف باشا القبائل

(١٤) ابن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، ص ٢١٠.
(١٥) بن اسماعيل، انهيار حكم الاسرة القرمانلية في ليبيا (١٧٩٥ ـ ١٨٣٥)، ص ٤٠ و٢٠٣.

المتمردة بقسوة كما حصل لسلاطين أولاد محمد في فزان وقبائل الجوازي والفوايد في برقة في عامي ١٨١٢ و ١٨١٥[١٦].

شهدت بداية حكم يوسف باشا القره مانلي قمة نفوذ هذه الاسرة السياسي، ولكن في السنين الأخيرة كانت بداية أزمة حكم أدت الى سقوط هذه الأسرة أيضاً. يوسف حكم ما بين عامي ١٧٩٥ و١٨٣٢. صعد يوسف باشا الى الحكم بطريقة دموية، فلقد كان الابن الاصغر لعلي يوسف باشا القره مانلي، لكنه كان مصمماً على تولي الحكم. لذلك اغتال أخاه الأكبر حسن وطرد أخاه الأوسط احمد وأصبح والياً في عام ١٧٩٥.

بدأ يوسف باشا حكمه بزيادة قيمة الاتاوات والخراج على السفن التجارية للدول الأوروبية الصغيرة. الايرادات البحرية ساعدت يوسف باشا على التوسع في الداخل والسعي من أجل فرض الضرائب على القبائل المتمردة أولاد محمد. ولكن حربه مع الولايات المتحدة في عام ١٨٠٥ وتحالف فرنسا وبريطانيا ضده أديا الى الغاء بعض الاتاوات مما قلل دخل ميزانية الدولة[١٧].

بدأ يوسف القره مانلي في التركيز على سياسة التوغل في الداخل والسيطرة على تجارة القوافل للتعويض عن النقص في الاتاوات البحرية. لذلك بعث جيشه لاحتلال غدامس في عام ١٨١٠ وجهزه بحملة كبيرة هزمت وأنهت حكم أولاد محمد في فزان في عام ١٨١٢[١٨]. وفي خطة جريئة أعد حملة مكوّنة من ٦,٠٠٠ رجل بقيادة عبد الجليل سيف النصر شيخ قبائل أولاد سليمان الى كانم لمساعدة حليف القره مانليين الشيخ محمد الأمين الكانمي حاكم كانم الذي واجه تحدياً لحكمه في عام ١٨١٧[١٩]. هذه الحملة رجعت الى طرابلس بغنائم كبيرة، ٦,٠٠٠ جمل محملة بالبضائع والعبيد. للمرة الثانية وبالتحديد في عام ١٨٢٦ جهز يوسف باشا حملة عسكرية اخرى بقيادة مصطفى الأحمر والي فزان الى كانم وعاد أيضاً بغنائم كبيرة الى طرابلس[٢٠].

بدأت هذه السياسة الطموحة من قبل يوسف باشا تواجه بعض المصاعب في نهاية العشرينيات. الباشا استمر في سياسة البذخ في طرابلس من غير ان يوسع القاعدة الاجتماعية

---

(١٦) المصدر نفسه، ص ٢٣٠، و- Kola Folyan, «Tripoli and the War with the U.S.A., 1801-1805,» *Journal of African History*, vol. 13, no. 2 (1972), pp. 261-270.

(١٧) المصدران نفسهما

(١٨) احمد بن الحسين النائب الانصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب (طرابلس: مكتبة الفرجاني، [د. ت.])، ص ٣٣٠ للإطلاع على اعمال الكانمي، انظر:

Louis Brener, «Muhammad Al-'Amin Al-Kanimi and Religion and Politics in Bornu,» in: John Ralph Willis, ed., *Studies in West African Islamic History I* (London: Frank Cass, 1979), pp. 161-176

(١٩) Francis Rodd, ed., «A Fezzani Military Expedition to Kanem and Bagirmi in 1821,» *Journal of the Royal African Society*, no. 35 (April 1936), pp. 153-168.

(٢٠) الانصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

لحكمه وبدأ في سياسة الاستدانة من التجار الأوروبيين، هذه السياسة خلقت أزمة مالية للدولة، فدين يوسف باشا وصل الى نصف مليون دولار في عام ١٨٣٠.

حاول يوسف باشا في مغامرة يائسة زيادة موارده، فزاد قيمة الضرائب على الزراعة والمنتوجات الحيوانية، ولكن لم تكف لدفع ديونه. لذلك فرض ضرائب جديدة ليس فقط على الحرفيين وفقراء المدن بل حتى على الطبقة الحاكمة الكولوغلية الذين كانوا معفيين من الضرائب، مما أدى الى تمرد الكولوغلية ضد حكمه. بلغ اليأس مداه فاضطر يوسف باشا الى التنازل عن الحكم الى ابنه علي، ولكن الكولوغلية نادوا باسم حفيده محمد بن أحمد القره مانلي، وانضم الى المتمردين القنصل الإنكليزي وارنغتون لأن القنصل الفرنسي أيد تعيين علي القره مانلي[21].

هذه الأزمة داخل الاسرة القره مانلية الحاكمة أغرت القنصل الانكليزي الطموح وارنغتون بفكرة ضم طرابلس الغرب للامبراطورية البريطانية، وتحسباً من الاحتلال الانكليزي قررت الدولة العثمانية في اسطنبول اعادة حكم طرابلس مباشرة خصوصاً ان الجزائر قد احتلت في عام ١٨٣٠ من قبل فرنسا. الدولة العثمانية ارادت الحفاظ على طرابلس الغرب كبوابة لافريقيا الاسلامية[22].

ثالثاً: طبيعة الدولة في ليبيا العثمانية

شهد الثلث الأول من القرن التاسع عشر صراعاً شديداً من أجل السيطرة على الولايات العثمانية نظراً إلى الأطماع الرأسمالية الأوروبية من جهة، اضافة إلى التحولات الرأسمالية داخل الدولة العثمانية نفسها، مما شجع على محاولة تقوية الحكم العثماني، وفقدان بعض الولايات للدول الأوروبية مثل الجزائر. هذه العمليات توجت بالفتح العثماني لليبيا، الذي لا يختلف في عنفه وقسوته عن الفتح الأوروبي للمستعمرات، خصوصاً القتل والعنف في مواجهة قبائل الوسط والجبل التي حاولت المحافظة على امتيازاتها واستقلالها كما في العهد العثماني الأول وتحت ظل الأسرة القره مانلية.

نصف الدولة في ليبيا العثمانية بالريعية لاعتمادها على الريع والضرائب والاتاوات والخراج من القوافل والسفن والقبائل للحصول على الفائض اللازم لاعادة الانتاج والصرف على الفئة الحاكمة وادارتها وشرطتها وقصورها. ولكن الدولة الريعية ما قبل الحديثة تشمل أشكالاً عدة كما الدولة الرأسمالية التي ليست ذات نمط واحد.

انتهت أو برزت أربع دول في القرن التاسع عشر: دولة أولاد محمد (١٥٥٠ ـ ١٨١٢)، الدولة القره مانلية (١٧١١ ـ ١٨٣٥)، الدولة العثمانية (١٨٣٥ ـ ١٩١١) واخيراً

---

(٢١) بن اسماعيل، انهيار حكم الاسرة القرمانلية في ليبيا (١٧٩٥ ـ ١٨٣٥)، ص ٣٠٢.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٣٠١.

الـدولة السنـوسية (١٨٧٠ ـ ١٩٣١). الـدولة القـره مانليـة ودولة أولاد محمـد برأينـا تمثـلان النموذج الريعي، بينـما الدولـة العثمانيـة والسنوسيـة مرحلة انتقـالية حتى بـدايات التحـولات الرأسمالية.

الدولة القره مانلية ودولة أولاد محمد رغم انهما متشابهتان من ناحية اعتمادهما على الـريع النـوعي والنقد المبـاشر، إلا أن دولـة اولاد محمـد دولـة مـرتبـطة بـإقليم فـزان بينـما الـدولـة القره مانلية ادعت حكم الولايـة ككل. في النصف الثـاني من القرن التـاسع عشر، أصبحت الدولة العثـمانية تعكس مصـالح طبقـة رأسماليـة كما أوضحت الـدراسات الجـديدة عن هـذه المرحلة. كذلـك بدأ الـتركيز عـلى فرض ضرائب نقـدية عـلى الأفراد وليس القبيلة أو القـرية بشكل عام. كذلك الحركة السنوسية في برقة بدأت كحركة حديثة رغم الضرائب والهدايا غير النقـدية المقـدمة الى قيـادة الحركـة من قبل الاتبـاع كما سنـوضح في الفصـل المخصص لهـذا الموضوع.

لماذا ظهرت الدولة قبل الحديثة أو الانتقاليـة في الامبراطـورية العثـمانية؟ سؤال يفـرض نفسه. الدراسات الاقتصادية عن تاريخ الامبراطـورية العثـانية تشـير الى أزمة تضخم مـالي بسبب تدفق الفضة الامريكية عـلى الامبراطـورية بـين عامي ١٥٥٦ و١٦٢٥. هـذا التضخم سبب نقصـاً في رواتب ولاة واداريي الولايـات، وقـوى سلطة الأعيـان في الـولايـات الـذين اعتمدوا على الضرائب المحلية، وبالتـالي ادى الى ظهور طبقـة الأعيان في القـرن الثامن عشر كما أسلفنا[٢٣]. الأسرة القره مانليـة في طرابلس والحسينيـة في تونس تقـدمان مثلين عـلى طبقة الأعيان واستقلالها النسبي عن الحكومة المركزية في اسطنبول[٢٤].

اعتمدت الدولة القره مانلية على المصادر المحليـة والضرائب البحريـة لضمان استقـلالها النسبي عن الـدولة المـركزيـة في اسطنبـول. الجيش القره مـانلي في عهـد يوسف بـاشـا كـان صغيراً، حوالى ١٠,٠٠٠ رجـل معظمهم من الكـولوغليـة. ولكن هناك ٣,٠٠٠ رجـل من القبائل الموالية له في حالة الحرب[٢٥]. ولكن طبقة الكولـوغلية ازداد عـددها الى ٣٠,٠٠٠ في عام ١٨٣٠[٢٦]. الكولـوغلية والقبـائل الحليفـة كانـوا معفيين من الضرائب بـالاضافـة الى أن

---

(٢٣) Abdul-Karim Rafeq, «Changes in the Relationship Between the Ottoman Administration and the Syrian Provinces from the Sixteenth to Eighteenth Centuries,» in: Thomas Naff and Roger Owen, eds., *Studies in Eighteenth Century Islamic History*, Papers on Islamic History; 4 (Carbondale, Ill.: Southern Illinois University Press, 1977), pp. 53, 58-59 and 68.

(٢٤) Andrew C. Hess, «The Forgotten Frontier: The Ottoman North African Provinces During the Eighteenth Century,» in: Naff and Owen, eds., Ibid p. 76.

(٢٥) رودولفـو ميكاكي، طـرابلس الغرب تحت حكم اسرة القـرمانـلي، نقله للعة العـربية طـه فوزي؛ راجعه حسن محمود وكمال الدين عبد العزيز الخربوطلي، دراسات مترجمة من اللغات الأوروبيـة؛ ١ (القاهـرة: معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦١)، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٢٦) ابن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخبار، ص ٢٠٧؛ عبـد السلام ادهم وعبدالله ابراهيم، محرران، وثائق عن تاريخ ليبيا في القرن التاسع عشر (I)، ثورة غومه المحمودي (طرابلس: =

القبائل اغريت بالغنائم[٢٧]. ركز يوسف القره مانلي كما اسلفنا على أتاوات البحر المفروضة على سفن الدول الأوروبية خصوصاً الصغيرة. الاوروبيون اعتبروا هذه الأتاوات قرصنة[٢٨]. ولكن مسلمو شمال افريقيا اعتبروها رد فعل على القرصنة الأوروبية ودفاعاً عن بلدانهم، ولدى المراجعة نجد عند المؤرخ الطرابلسي ابن غلبون، وحسن الفقيه اسم الجهاد البحري[٢٩].

فُرض على السفن الأوروبية دفع الأتاوات وعند رفضها كانت تهاجم. لذلك اضطرت بعض الدول الصغيرة لدفع هدايا ليوسف باشا وأتاوات لضمان سلامة سفنها. وهكذا نجد أن النمسا قد دفعت ما بين عامي ١٧٩٦ و١٨٠٧ مبلغ ٨٤,٠٠٠ دولار، والسويد والدانمارك ١٢,٠٠٠ دولار، وفي عام ١٧٩٨ اضطرت السويد والدانمارك لدفع ١٠٠,٠٠٠ دولار لفك أسر بحارتها وسفنها من طرابلس[٣٠]. ولكن هذه السياسة القره مانلية ضعفت في النهاية بعد صدام يوسف باشا مع الولايات المتحدة في عام ١٨٠٥ وبعد هزيمة فرنسا في عام ١٨١٥ مما أدى الى اتفاق الدول الأوروبية على سياسة موحدة في البحر المتوسط وانهاء ما كان يسمى «بالقرصنة».

لم تجدد الدولة القره مانلية جيشها ولم توسع القاعدة الشعبية للحكم ولا السوق كما في العديد من الحكومات التي سبقت المرحلة الاستعمارية كتونس ومصر والمغرب، وأدت سياسة الاقتراض الى الانهيار المالي للدولة ومجيء الدول الأوروبية. وهذا ما حصل ليوسف باشا القره مانلي حتى عام ١٨٢٠ اذ خفضت فرنسا وبريطانيا مقدار الضرائب البحرية للدولة القره مانلية[٣١]. أيضاً فشلت محاولة يوسف القره مانلي فرض ضرائب على الأهالي واعفاء

= مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٣)، الوثيقة رقم ١٥ و٢٨، و Great Britain, FO, 101/91, Consul Jago to O'Conor, 21/12/1901.

(٢٧) Paolo Della Cella, *Narrative of an Expedition from Tripoli in Barbary to the Western Frontier of Egypt in 1817 by the Bay of Tripoli,* trans. by Anthony Aufrere (London: J. A. Arch, 1823), pp. 7 and 9-10.

(٢٨) بن اسماعيل، انهيار حكم الاسرة القرمانلية في ليبيا (١٧٩٥ - ١٨٣٥)، ص ٨٥ - ٢١٠.

(٢٩) انظر: Abdallah Laroui, *The History of the Maghreb: An Interpretative Essay,* trans. from French by Ralph Manheim, Princeton Studies on the Near East (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1977; 1982), pp. 234 and 238; Rossi, *Storica Di Tripoli e Della Tripolitania Dallo Conquesta Araba al 1911,* pp. 43 and 132, and Jerome B. Weiner, «New Approaches to the Study of Barbary Corsairs (1),» *Revue d'histoire maghrebine,* nos. 13-14 (janvier 1979), pp. 205-208.

(٣٠) Kola Folyan, *Tripoli During the Reign of Yusuf Pasha Qaramanli* (ILE-IFE, Nigeria: The University Press, 1975), p. 29.

انظر أيضاً: United States National Archives (USNA), Report of the American Consul in Tripoli, «Marine Forces in Tripoli,» 16 May 1801, and

بن اسماعيل، انهيار حكم الاسرة القرمانلية في ليبيا (١٧٩٥ - ١٨٣٥)، ص ١٢٠ - ١٢٤ و٢٢٦.

(٣١) بن اسماعيل، المصدر نفسه، ص ١٤٨ و٢٣٠.

بعض شيوخ القبائل[٣٢]، كذلك سياسة اعداد حملات الى فزان في عام ١٨١٢[٣٣]، وبلاد السودان في عامي ١٨١٩ و١٨٢٦[٣٤]، حيث نجحت في البداية ولكن الدين ازداد أكثر من الايرادات. مما أدى كما اسلفنا الى فرض ضرائب على الكولوغلية الذين ثاروا عليه، وبالتالي عجلوا في سقوط حكم الأسرة القره مانلية في عام ١٨٣٥.

رابعاً: دولة أولاد محمد (١٥٥٠ - ١٨١٢)

كان اقليم فزان بحكم موقعه الاستراتيجي وقربه من بلاد السودان اضخم سوق تجارية لتجارة القوافل. هذه التجارة تتطلب حماية وخدمات لضمان سلامتها الدولية. هذه الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية ساعدت على قيام دول محلية نظمت وضمنت هذه التجارة واستفادت من جمع الريع والضرائب من التجار. هناك دولتان محليتان ظهرتا في فزان: دولة بني الخطاب الأباضية في القرن العاشر الميلادي وكانت عاصمتها زويلة، ودولة أولاد محمد الذين أسسوا واحة مرزق العاصمة الجديدة لفزان حتى نهاية القرن الثامن عشر[٣٥]. شيخ قبائل أولاد سليمان عبد الجليل سيف النصر حاول بناء دولة ثالثة في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، ولكن مصرعه المفاجىء قضى على الفكرة في عام ١٨٤٢ خصوصاً بعد هجرة جزء كبير من قبائل أولاد سليمان الى تشاد.

دولة اولاد محمد ولا شك أهم الدول الداخلية التي لم تحظ بالدراسة في الماضي، ومعلوماتنا عن هذه الدولة متناثرة بين كتابات ابن خلدون والانصاري مؤرخي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والروايات الشفوية والمخطوطات وملاحظات الرحالة الأجانب. الباحث الليبي حبيب وداعة الحسناوي جمع أهم المخطوطات المتعلقة بدولة اولاد محمد ونشر أطروحته بعد أن أنهينا هذه الدراسة. دراسة الحسناوي هي بلا شك أهم دراسة علمية عن هذه الدولة.

الرحالة الألماني فريدرك هارنمان زار فزان في عام ١٧٨٩، وذكر خلال زيارته مرزق عاصمة أولاد محمد بأن مصادر دخل اولاد محمد كانت تأتي من الضرائب على تجارة القوافل ومن غنائم وضرائب الغزو وسكان الواحات. مرزق أهم سوق لتجارة الصحراء ازدحمت

---

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٢٨.

(٣٣) ابن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخبار، ص ١٥٨، والإنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ص ٣١٨ - ٣١٩.

(٣٤) الانصاري، المصدر نفسه، ص ٣١٩، و George Francis Lyon, *A Narrative of Travels in Northern Africa in the Years 1818-1820*, accompanied by Geographical Notices of Soudan and the Course of the Neiger (London: Cass, 1966), pp. 127 and 227.

(٣٥) F. Hornemann, «The Journal of F. Hornemann's Travels from Cairo to Marzuk in the Years 1797-1798,» in: E. W. Bovill, ed., *Missions to the Niger*, The Hakluyt Society, 2nd ser; nos. 123 and 128-130 (Cambridge, Mass.: Hakluyt Society at the University Press, 1964-1966), p. 102.

بتجار من انحاء شمال وغرب افريقيا. القوافل الآتية من القاهرة دفعت ٦ ـ ١٠ دولارات ضريبة عن حمل كل جمل، والقوافل الآتية من بورنو وبلاد الهوسا دفعت مثقالين ذهباً ضريبة عن كل عبدٍ أو أمةٍ بيعا في اسواق مرزق(٣٦). أهم التجار في أسواق مرزق حسب رواية هورنمان جاؤوا من: طرابلس، سوكنة، جالو، مصر، بورنو، بلاد الهوسا، وأوروبا، على سبيل المثال كان هناك قنصل إنكليزي(٣٧).

وفرت دولة أولاد محمد في مقابل الضرائب على التجارة الحماية وخدمات السوق للتجار (بما فيها الطعام) وبيوت للاقامة وجمال للإيجار، كذلك مرشدين وحمّالين. مرزق كانت في أوج ازدهارها بأسواقها وحرفييها وصناعاتها التقليدية، مثل صبغ الجلود وصناعة السلال والحصر. هذا الرواج التجاري ساعد على الانفاق على الموسيقى مما ادى الى ظهور أهم لون موسيقي غنائي في ليبيا، اللحن المزركاوي الشائع الآن في ليبيا(٣٨).

اعتمدت هذه الدولة التجارية الريعية من الناحية الايديولوجية على نسب الاسرة المتصل بأسرة الرسول، لذلك اولاد محمد قدموا أنفسهم كأشراف يحكمون بالشريعة الاسلامية. كذلك فإن استمرارية هذه الدولة في حكم فزان من القرن السادس عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر يدل على تأييد قطاع كبير من سكان فزان وممالك بلاد السودان لهم، فرغم محاولات الدولة العثمانية القضاء على هذه الدولة اكثر من مرة الا ان مطالبة أهالي فزان ومساعدة حكام مملكة كاتسينا ساعد اولاد محمد على الرجوع الى حكم فزان.

طمعت الدولة العثمانية في احتلال هذا الاقليم منذ بداية ضم طرابلس الغرب الى الامبراطورية في عام ١٥٥١. يضيف احتلال فزان الى العثمانيين جزية وضرائب على تجارة القوافل بالاضافة الى الذهب والرقيق والتمر. كذلك منذ البداية احتدم الصراع بين الولاة العثمانيين في طرابلس وسلاطين أولاد محمد في فزان. نجد غطاء لهذا الصراع بين عامي ١٥٥١ ـ ١٧١١: الدولة العثمانية ترسل (محلة) أو حملة عسكرية مكونة من الكولوغلية والقبائل المتحالفة الى فزان بغرض طلب جزية أو ريع من أولاد محمد، في العادة يقبل أولاد محمد دفع الريع، ولكن عندما تضعف الدولة العثمانية في طرابلس ينقض اولاد محمد الاتفاق ويمتنعون عن الدفع لطرابلس.

عادة ما يؤدي عدم دفع الضريبة الى مجيء المحلة العسكرية والى حرب تؤدي الى انسحاب سلاطين أولاد محمد بخدمهم وحريمهم وخزينتهم الى بلاد السودان وخصوصاً مملكة كاتسينا. ولكن اولاد محمد بعد أن يجندوا اتباعاً وعبيداً يرجعون الى مرزق بعد أن يتغلبوا

---

(٣٦) المصدر نفسه.

(٣٧) المصدر نفسه، ص ١٦٠.

(٣٨) Gustav Nachtigal, *Sahara and Sudan,* translated from the Original German, with New Introduction and Notes by Allan G.B. Fisher and Humphrey J. Fisher with Rex S. O'Fahey (New York: Barnes and Noble, 1974), vol. 1: *Tripoli and Fezzan,* pp. 87 and 122.

على الحامية العثمانية الصغيرة، خصوصاً اذا اخذنا في الاعتبار تأييد قطاع كبير من سكان فزان لاشراف اولاد محمد[٣٩].

ترك لنا المؤرخ الطرابلسي ابن غليون وصفاً لاتفاق بين احد سلاطين اولاد محمد والوالي العثماني بعد أن توسط علماء الدين الفقهاء بين الطرفين في عام ١٦٣٩. بناء على هذا الاتفاق يدفع اولاد محمد جزية للدولة العثمانية مكونة من ٤,٠٠٠ مثقال ذهب، نصفها تدفع ذهباً والنصف الآخر كعبيد، العبد الذكر يكلف ٢٥ مثقالاً بينما الأمة ٣٠ متقالاً. كما يتحمل أولاد محمد تكاليف ارسال العبيد والذهب الى سوكنة في وسط ليبيا. ويتكلف مصاريف الرحلة ما بعد سوكنة وحتى طرابلس الوالي العثماني في طرابلس[٤٠]. بناء على هدا الاتفاق اعترف القائد العسكري العثماني عثمان داي بسلطة أولاد محمد على فزان تحت الحماية العثمانية واعطى لقب شيخ لمحمد بن جهيم سلطان أولاد محمد[٤١].

لاحظ هارنمان أن الجزية الى طرابلس كانت ٦,٠٠٠ دولار سنوياً في عام ١٧٨٩ ولكنها خفّضت الى ٤,٠٠٠ دولار في السنة التي تلتها وحتى نهاية حكم الاسرة في عام ١٨١٢[٤٢]. وكما اسلفنا اضطرت حكومة يوسف القره مانلي الى مصادر مالية جديدة لدفع ديونه الى التجار الأوروبيين. لذلك حاول التركيز على تجارة الصحراء ومن تم قرر التخلص من دولة اولاد محمد كوسطاء حتى يستطيع الاستفراد بضرائب وريع فزان دون مشاركة أولاد محمد. وقد استطاعت حملة القره مانليين هزيمة اولاد محمد وقتلت السلطان وعائلته وضمت فزان للحكم القره مانلي المباشر في عام ١٨١٢[٤٣].

ولكن الدولة القره مانلية كدولة ريعية لم تكن قادرة على مواجهة الدول الأوروبية التي هزمت فرنسا وقررت السيطرة على البحر المتوسط بعد عام ١٨١٥[٤٤]. أدى هذا الى تدهور ضرائب وريع البحر. حتى المحلات العسكرية لبلاد السودان لم توفر موارد كافية[٤٥]، خصوصاً وان دين الدولة كبير، نصف مليون دولار[٤٦]. ولم تنته متاعب الدولة القره مانلية، إذ اعلنت قبائل اولاد سليمان والمحاميد التمرد على سلطة يوسف. وحتى بعد أن تنازل يوسف

---

(٣٩) المصدر نفسه، ص ١٦٠.

(٤٠) ابن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، ص ١٥٣، والحسناوي، تاريخ فزان، ص ٦٧.

(٤١) الحسناوي، المصدر نفسه، و Hornemann, «The Journal of F. Hornemann's Travels from Cairo to Marzuk in the Years 1797-1798,» p. 100.

(٤٢) Hornemann, Ibid.

(٤٣) ابن غلبون، المصدر نفسه، ص ١٥٨.

(٤٤) بن اسماعيل، انهيار حكم الاسرة القرمانلية في ليبيا (١٧٩٥ - ١٨٣٥)، ص ٢٣٠.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٢٢٧.

(٤٦) المصدر نفسه، وللإطلاع على نص معاهدة الصلح مع طرابلس الغرب لكل من بريطانيا وفرنسا، انظر ص ٤٤٨ - ٤٥٢ و٤٧٨ - ٤٧٩.

لابنه علي عن العرش في عام ١٨٣٢ أعلنت الكولوغلية والقبائل المتمردة تأييدهم لحفيده محمد(٤٧).

قررت الدولة العثمانية في اسطنبول التدخل في طرابلس الغرب وانهاء الاستقلال السياسي للأسرة القره مانلية خصوصاً أن الدول الرأسمالية الأوروبية بدأت في الافصاح عن مطامعها في ولايات الامبراطورية. بناء على احدى الوثائق العثمانية في طرابلس احتلت الحكومة العثمانية البلدة وانهت الأزمة فيها، وبعد مداولات قررت الحكومة ارسال الاسطول وانهاء حكم الأسرة القره مانلية التي مزقتها الخلافات حول الحكم بين علي القره مانلي وابن اخيه محمد. هذا القرار من قبل الباب العالي بالتدخل دافعه الأساسي هو الخوف من ضياع طرابلس الغرب مثلما ضاعت الجزائر لفرنسا، خصوصاً ان القنصل الانكليزي وارنغتون كان حليفاً لمحمد القره مانلي والقبائل المتمردة ضد يوسف وابنه علي القره مانلي في ولاية طرابلس الغرب. فهي، تقول الوثيقة، مهمة استراتيجياً كبوابة للامبراطورية العثمانية في افريقيا الاسلامية(٤٨).

ولكن الدولة العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر مرت بتحولات اقتصادية وسياسية نوعية أثرت في سياساتها وفي الطبقة الحاكمة. بناء على الدراسات الجديدة للتاريخ الاجتماعي العثماني وخصوصاً كتابات المؤرخ رفعت علي أبو الحاج في نهاية القرن السادس عشر تغير نمط الانتاج العثماني من الريعي الى الانتقالي الى الرأسمالية. وفي منتصف القرن التاسع عشر بدأت العلاقات الرأسمالية في السيطرة على الدولة العثمانية، أبو الحاج يقترح بأن هذه التطورات ليست وليدة التأثير الأوروبي ولكن خلاصة تطورات داخلية في الامبراطورية حتى عام ١٨١٥ عندما بدأت الدول الأوروبية محاولة التغلغل في الامبراطورية(٤٩).

تشير الادلة المتاحة لإثبات هذه التحولات الى التضخم المالي الذي برز في نهاية القرن السادس عشر، نظراً الى تدفق الفضة الامريكية على أوروبا والدولة العثمانية. لذلك اتبعت الحكومة العثمانية سياسة تشجيع مالكين زراعيين لدفع الضرائب نقداً في نهاية القرن السابع عشر. كذلك باعت الدولة اراضيها لمالكين خاصين نظير مبالغ نقدية كانت خزينة الدولة في حاجة ماسة اليها. ادت هذه السياسة الى دفع الضرائب نقداً وليس عيناً مما مهد لظهور العلاقات الرأسمالية في الاقتصاد(٥٠).

هذا التحليل الجديد للتاريخ العثماني كذلك ينظر الى مرحلة الاصلاحات الادارية

---

(٤٧) الانصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، ص ٢٣٥.

(٤٨) بن اسماعيل، المصدر نفسه، ص ١٩ - ٢٠.

(٤٩) Rifaat Ali Abou El-Haj, *The Nature of the State,* a manuscript;

للإطلاع على تأثير الرأسمال الأوروبي، انظر: Sevket Pamuk, *The Ottoman Empire and European Capitalism, 1820-1913* (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1987), and Resat Kasaba, *The Ottoman Empire and the World Economy: The Nineteenth Century,* SUNY Series in Middle Eastern Studies (Albany, N. Y.: State University of New York Press, ©1988).

(٥٠) Abou El-Haj, Ibid.

العثمانية التي تعرف بتنظيمات (١٨٣٩ ـ ١٨٧٦) على أنها تتويج لتحولات داخلية في الامبراطورية وليست نتاجاً للتأثير الأوروبي الخارجي. بعبارة أخرى، ليست جذور الرأسمالية اوروبية فقط ولكنها ظهرت في مجتمعات أخرى كما في الامبراطورية العثمانية[٥١]. كذلك من المهم، كما أشار المؤرخ الأمريكي دونالد كوارترت، أن التحولات الرأسمالية الأوروبية واجهت مقاومة داخل الامبراطورية ولم تكن عملية ذات مسار واحد[٥٢].

هذا التحليل الجديد للاقتصاد السياسي العثماني يؤيد ملاحظاتنا على الأحداث السياسية في ولاية طرابلس الغرب في منتصف القرن التاسع عشر. تحولت الدولة العثمانية من دولة ريعية الى رأسمالية، لذلك تغيرت السياسة العثمانية تجاه سكان الولايات وأخذت شكلاً رأسمالياً استعمارياً.

ركزت السياسة العثمانية في طرابلس الغرب على تقوية الادارة والسيطرة على قبائل الداخل حتى تستطيع جمع الضرائب، وبالتالي الصرف على الولاية في مواجهة المنافسة الاستعمارية الأوروبية في شمال افريقيا. هذه السياسة الجديدة نجحت في هزيمة التحالفات القبلية في الجبل وفزان ونظمت تجارة القوافل عبر الصحراء. وازدهرت تجارة القوافل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى عام ١٨٨٠[٥٣]. ولكن هذه التجارة بدأت في التناقص في نهاية القرن، خصوصاً بعد أن نجح الاستعماران الفرنسي والانكليزي في التوغل داخل غرب افريقيا وتحويل التجارة الى المحيط الاطلنطي عن طريق السفن. ولكن هذا التحول في طرق التجارة في غرب الولاية اعطى الفرصة لطريق واداي ـ الكفرة ـ بنغازي للظهور في ظل حماية الحركة السنوسية. باختصار، لم يغير مجيء الدولة العثمانية الى طرابلس الغرب طبيعة الصراع بين القبائل في الدواخل، ولكن التوجه الرأسمالي للدولة العثمانية أدى الى تحالفات جديدة خصوصاً في المنطقة الغربية، طرابلس مركز الولاية، واستمرت قبائل الداخل من خلال تحالفاتها وتطور الحركة السنوسية في ردع ومقاومة هذه السياسة العثمانية الجديدة، في التمرد على العثمانيين.

خامساً: تجارة القوافل عبر الصحراء

ذكرنا بأن تجارة القوافل ليست جديدة ولكنها ترجع الى فترة الحكم الروماني في القرن الخامس الميلادي، نظراً الى الموقع الجغرافي لليبيا القديمة. هذه التجارة استمرت حتى المرحلة الحديثة. وكانت قد بُنيت في القرن الثامن عشر على تبادل في سلع الزينة والرفاهية، مثل الملابس، العاج، ريش النعام، الذهب، الجلود، الأسلحة والرقيق. صدّر التجار

---

(٥١) Kasaba, Ibid., p. 50

(٥٢) Donald Quartaert, *Social Desintegration and Popular Resistance in the Ottoman Empire, 1881-1908: Reactions to European Economic Penetration* (New York: New York University Press, 1983).

(٥٣) Nachtigal, *Sahara and Sudan*, vol. 1, p. 122

الأوروبيون الملابس، الاسلحة، الزجاج، المسابح الى الأسر الحاكمة من ممالك بلاد السودان والصحراء الذين كانت لديهم الثروه لشراء سلع الترف اقتصاديو ولاية طرابلس الغرب وقبائل الداخل استفادوا من هذه التجارة كوسطاء. وجمعت الدولة ضرائب من التجار في مقابل حماية تجارتهم(٥٤). التحار والقبائل كذلك استفادوا من هذه التجارة. التجار المحليون جمعوا أرباحاً مضمونة غالباً من التجارة الصحراوية، والقبائل الصحراوية التي مرت بأوطانها قوافل التجارة مثل أولاد سليمان، زويّة، مجابرة، وطوارق وجدوا عملاً كحمّالين ومرشدين ومؤجرين للجمال، بالإضافة الى أن شيوخ القبائل القوية كانت لهم أعطيات سنوية لضمان سلامة المرور في الصحراء(٥٥).

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر ازدهاراً لتجارة القوافل عبر الصحراء، ولازدياد الطلب على الملابس الانكليزية في الصحراء وبلاد السودان ليس من قبل الاسر الحاكمة فقط ولكن رخص الملابس أدى الى رواجها عند العامة أنضاً. ولكن هده التجارة لم تؤد إلى ظهور علاقات عمالية قوية على حساب التكوينات الجماعية العشائرية في دواخل الولاية.

كان غرب افريقيا وبلاد السودان المورد الأساسي لتجارة الذهب والرقيق قبل اكتشاف امريكا في القرن الخامس عشر. أوروبا استوردت الذهب من غرب أفريقيا. الرقيق كان سلعة مهمة حتى حظر هذه التجارة في عام ١٨٦٠. ضمنت تجارة الرقيق عبر شمال افريقيا العثمانية بشكل غير موضوعي في الدراسات الغربية وبالذات دراسات المؤرخين الاسرائيليين التي تتهم العرب بأنهم مسؤولون عن هذه التجارة. وفي مقابل هذا التحليل الايديولوجي المتحيز فإن بعض الكتّاب العرب يرفضون وجود هذه التجارة أساساً. فتجارة الرقيق وجدت في معظم المجتمعات بما فيها أوروبا وهي من نتاج علاقات الغزو والسيطرة الاقتصادية الاجتماعية. من هنا يصعب الدفاع عن نظرية ثقافية للعبودية خارج الاطار التاريخي لها. استخدمت الامبراطورية الانكليزية تجارة الرقيق لاستعمار مناطق شمال امريكا والبحر الكاريبي بشكل هائل نظراً الى موت العديد من السكان الاصليين او لعدم وجود أيدٍ عاملة كافية. ولكن هذه التجارة أصبحت فجأة غير اخلاقية في نهاية القرن التاسع عشر مما دفع

---

(٥٤) MDJL, Doc/99, «A Report from the Governor of Fezzan Muhammad Sami,» (1911), p. 4.

(٥٥) للإطلاع على دور التجار الغدامسيين، انظر الوثائق المنشورة حديثاً: بشير يوشع، محرر، غدامس. **وثائق تجارية، تاريخية، اجتماعية** (طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبين، ١٩٨٢)، ص ٢٨. وقد قدّر ماريون جونسون عددهم بـ ١٢٩: ١٩ في كانو، ٤ في سوكوتو، ٣ في زاريا، ٣ في نوبي، ٤ في أدوماوا، ٦ في زندر، ٣٧ في تونس، بالاضافة الى آخرين في طرابلس الغرب. انظر: Marion Johnson, «Calico Caravans: The Tripoli Kano Trade After 1880,» *Journal of African History,* no. 17 (1976), p. 11, and Louis Brenner, «North African Trading Community in the 19th Century Central Sudan,» in: Daniel F. McCall and Norman R Bennet, eds., *Aspects of West African Islam* (Boston: University African Studies Center, 1971), p. 138.

انكلترا عنها، ولكن هذا المنع مرتبط برغبة الامبراطورية في استغلال العمالة الافريقية في افريقيا وبالتالي صار من الضروري تبني وجهة نظر اخلاقية تجاه هذه التجارة.

في ما يتعلق بالصحراء الكبرى، كان هدف السياسة الانكليزية هو السيطرة على تجارة القوافل. لذلك بالغ، القناصل والرحالة الانكليز في القرن التاسع عشر بحجم تجارة الرقيق في ولاية طرابلس الغرب كتبرير لاستعمار بلاد السودان. جاء العديد من الرحالة الانكليز في الصحراء لاكتشاف منابع نهر النيجر مفتاح المواصلات في غرب افريقيا. هذا اللغط الايديولوجي حول حجم تجارة الرقيق يتطلب مراجعة موضوعية للوثائق التاريخية حتى يأخذ النقاش طابعاً موضوعياً.

زودتنا وثائق العائلات التجارية مثل عائلة يوشع الغدامسية بمعلومات مهمة لفهم تجارة القوافل في القرن التاسع عشر. هذه التجارة، على عكس تقارير القناصل الأوروبيين في طرابلس، لم تكن تجارة في الذهب والرقيق بل في سلع تصدرت صادرات بلاد السودان تمثلت في: الشمع، الجلود، ريش النعام، الاسلحة. أما الواردات فكانت: ملابس القطن الانكليزية، الزجاج، الورق، الشاي، والسكر[٥٦].

الرحالة الأوروبيون والقناصل من ناحية أخرى ركزوا على تجارة الرقيق. الرحالة ليون قدر عدد الرقيق الذين وصلوا طرابلس بحوالى ٣,٠٠٠، و ١,٠٠٠ الى بنغازي في عام ١٨١٩. الرحالة كليبورتن ودنهام أعطى تقديراً أقل، ٢,٠٠٠ من الرقيق وصل طرابلس في عام ١٨٢٤. القنصل الفرنسي دي رينود قدر عدد الرقيق الذين وصلوا طرابلس من بلاد السودان بحوالى ٢,٧٠٨ في عام ١٨٥٠[٥٧].

المؤرخ الطرابلسي ابن غلبون ووثائق عائلة يوشع الغدامسية اكثر مصداقية من هؤلاء القناصل الذين عاشوا في طرابلس بلا دراية بما يحصل في دواخل البلاد. نحن نرى أن سياسة تضخيم حجم تجارة الرقيق في افريقيا العثمانية ومعاداتها في نهاية القرن التاسع عشر ذات طابع سياسي بغرض تبرير التوسع الاستعماري في ما بعد. ألم تبد تجارة الرقيق التي صدّرت حوالى ٢٠ مليوناً من الافارقة الى العالم الجديد بالاضافة الى ملايين ماتوا أثناء الأسر؟ كذلك اين ملايين العبيد الذين بيعوا في الامبراطورية العثمانية؟ نحن بالطبع لا نريد انكار وجود هذه التجارة ولكن مجرد وضعها على المحك الوثائقي التاريخي[٥٨].

وجدت تجارة الرقيق في افريقيا والشرق الأوسط قبيل مجيء الاوروبيين: استخدم

---

(٥٦) يوشع، المصدر نفسه، ص ٣٣٩ ـ ٣٤٥.

(٥٧) Great Britain, Co 2/13, Lieut. H. Clapperton to R. Wilmont, Harson, 6 June 1825; Hans Fisher, «A Journey from Tripoli Across the Sahara to Lake Chad,» *Geographical Journal* (March 1909), p. 265, and E. Pellissier De Reynaud, «La Regence de Tripoli,» *Revue des deux Mondes*, no. 12 (1955), p. 43.

(٥٨) Adu A. Boahen, *Britain, the Sahara and the Western Sudan* (Oxford: Clarendon Press, 1964), pp. 160 and 164, and Eric Williams, *Capitalism and Slavery* (New York: Perigee, 1980), pp. 135-136.

الرقيق كمصدر للخدم للعائلات الثرية، وكذلك كجنود وحراس في بلاد السودان والدولة القره مانلية. العبيد صاروا عمالاً زراعيين في واحات فزان وبرقة تشير الوثائق التاريخية للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر الى تجارة الرقيق في ليبيا العثمانية ولكن ليست بالأهمية التي اعطاها القناصل الأوروبيون، أما في القرن العشرين فلقد انتهت هذه التجارة.

ازدهرت تجارة القوافل عبر غرب ليبيا فن الفترة ما بين ١٨٥٠ ـ ١٨٨٠ ربما لنجاح الدولة العثمانية في تأييد سلطتها وتنظيم التجارة عبر فزان. اهم سلع هذه التجارة كانت العاج، ريش النعام وجلود الماعز. على سبيل المثال، كانت صادرات العاج من غرب افريقيا الى اوروبا بقيمة ٤,٠٠٠ جنيه استرليني في عام ١٨٧١، ولكنها تضاءلت الى ٢,٠٠٠ جنيه استرليني في عام ١٩٠٤، (انظر الملاحق).

ريش النعام، سلعة أخرى مهمة ازداد الطلب عليها في أوروبا نظراً الى شيوعها كـ «موضة» أثناء الحرب النابليونية. استخدم ريش النعام كأقلام، مراوح وزينة لقبعات السيدات. حصل أوج هذه التجارة، في عام ١٨٨٣ عندما صُدِّر ما قيمته ٢٣٧,٠٠٠ جنيه استرليني من ريش النعام، ولكن كما في حالة العاج تضاءلت الصادرات في عام ١٩٠٤ الى ٢٣,٠٠٠ جنيه استرليني.

السلعة الثالثة المهمة لتجارة القوافل هي الجلود، خصوصاً جلود الماعز التي صُدِّرت من غرب افريقيا الى اوروبا والولايات المتحدة في فترة السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر. ولكن كما حصل للسلع الأخرى تناقصت الصادرات مع بداية القرن العشرين.

ساهمت عدة عوامل تاريخية في تضاؤل تجارة القوافل عبر غرب ليبيا العثمانية. ولكن أزمة طرق المنطقة الغربية أدت الى بروز طريق جديد عبر شرق ليبيا هو طريق بنغازي ـ الكفرة ـ واداي في نهاية القرن التاسع عشر[٥٩]. أزمة خطوط التجارة عبر غرب ليبيا سببها غزوات رابح الزبير والاستعمار الفرنسي في منطقة بحيرة تشاد والغزو الانكليزي لغرب افريقيا. لقد أدت غزوات رابح الزبير والغزو الفرنسي الى القضاء على مملكة كانم والى الاحتلال الفرنسي لوادي وتمبكتو في عام ١٩٠٤. هذه الحروب شلّت حركة التجارة بالاضافة الى السياسة الانكليزية التي بنت خط سكة حديد من كانو الى لاغوس، مما ادى الى توجيه تجارة بلاد السودان الى المحيط الأطلنطي بدلاً من شمال افريقيا. كذلك حصل نوع من التغيير في الذوق الأوروبي (مثل ريش النعام) ساعد على قله الطلب من المستهلكين. باختصار تدهور تجارة القوافل عبر غرب ليبيا يرجع الى عوامل داخلية مثل حروب رابح الزبير، أو خارجية مثل الغزو الاستعماري الفرنسي والانكليزي والتغيير في أذواق المستهلكين. ولكن تجارة القوافل لم تنته بنهاية القرن، فلقد وجد التجار في الحركة السنوسية حماية لهم مما

---

(٥٩) ماريون جونسون، «تجارة ريش النعام في النصف الأول من القرن التاسع عشر،» مجلة البحوث التاريخية، العدد ١ (كانون الثاني/ يناير ١٩٨١)، ص ١٣٤

ادى الى انتعاش طريق جديد عبر شرق ليبيا، وهو طريق بنغازي - الكفرة - وادي [٦٠]. أما بالنسبة الى السياسة العثمانية الجديدة، فركزت على تطوير الزراعة المحلية كبديل اكثر استمرارية مهم لاستقرار الادارة العثمانية. هذه السياسة الاقتصادية الجديدة أدت الى أن تحل العلاقات الزراعية ونظام ملكية الأراضي مكان التجارة.

سادساً: نظام ملكية الأراضي

شمل نظام ملكية الاراضي في القرن التاسع عشر أنواعاً عدة في ليبيا العثمانية. قانون الأراضي العثماني الصادر في عام ١٨٥٨ اعترف بالأنواع الآتية: الملك أو الأرض المملوكة ملكية خاصة، الميري أو الخراج المملوكة من الدولة، الوقف، المتروكة، والأرض الموات.

القانون العثماني للأراضي عكس الطبيعة الخاصة للدولة العثمانية وخصوصاً مرحلة التكوين في القرن الثالث عشر، وبالتالي كان مزيجاً من النظام القبلي التركي والاسلامي للملكية. القانون الاسلامي يعترف بالملكية الفردية الخاصة والملكية العامة للدولة. هناك الملك الخاص الذي يعطي المالك حق الحيازة، الاستعمال وحق الرقبة أو التصرف، وأراضي الخراج ملكها للدولة ولكن الأفراد الذين يعملون فيها لهم حق الاستعمال فقط. ولكن القانون العثماني شمل أراضي التيمار وهي أراضٍ مملوكة من الدولة أعطيت لفرسان ملاك اراضي في الأقاليم يسمون السباهي. السباهي لهم حق جمع الضرائب من الفلاحين وبالمقابل يقومون بإعداد الجنود وعدتهم في حالة الحرب، ولهم أيضاً حق إبقاء جزء من الضرائب لأنفسهم. هذا هو بإختصار نظام ملكية الأراضي العثماني الكلاسيكي.

ولكن قانون ملكية الأراضي الذي صدر في عام ١٨٥٨ عكس التحولات الرأسمالية التي بدأت تقوى داخل الدولة، ومن ثم التركيز على الملكية الفردية وتسجيل الأراضي من قبل السكان. هنا لا بد من الحذر في فهم تطبيقات هذا النظام الجديد. لم يطبق النظام الجديد في كل أنحاء الامبراطورية بدرجة واحدة لاختلاف الولايات من ناحية الأهمية والتقاليد الجغرافية والاقتصادية وقدرة الدولة المركزية على تطبيق القانون[٦١]. لننظر الآن الى تطبيق هذا القانون في ليبيا العثمانية.

---

(٦٠) انظر: C.W. Newbury, «North Africa and the Western Sudan in the 19th Century. A Re-Evaluation,» *Journal of African History,* no. 7 (1966), pp. 233-246; Stephen Bair, «Trans-Sahara Trade and the Sahel: Damergu, 1870-1930,» *Journal of African History,* no. 18 (1977), pp. 37-60; Johnson, «Calico Caravans: The Tripoli Kano Trade After 1880,» and

جونسون، «تجارة ريش النعام في النصف الأول من القرن التاسع عشر،» ودراسة أحمد سعيد الفيتوري الشاملة:

Ahmad Said Fituri, «Tripolitania, Cyrenaica and Bilad Al-Sudani Trade Relations During the Second Half of the Nineteenth Century,» (Ph. D. Dissertation, History, University of Michigan, 1982).

(٦١) دار المحفوظات التاريخية، ملف الأراضي؛ للإطلاع على التفاصيل انظر:

Kemal H. Karabat, «The Land Regimes, Social Structure and Modernization in the Ottoman Empire,» in: William R. Polk and Richard L. Chambers, eds., *Beginnings of Modernization in* =

الملكية الخاصة في القانون العثماني تعطي عائلة أو فرداً الحق في الملكية الشاملة أو حق الاستعمال والتصرف. بعبارة أخرى، حق استغلال الأرض وبيع وشراء الأرض. هذا النمط وجد في المناطق الزراعية المستقرة في الشريط الساحلي ومنطقة الساحل والمنشية، الجبل الغربي وواحات الصحراء في طرابلس وفزان. في هذه الاراضي نجد الطابع الغالب لاستغلال الأرض، إمّا العمل الفلاحي العائلي أو التخميس. لم توجد ملكية اراضٍ كبيرة في القرن التاسع عشر إلا في حالات معدودة في طرابلس، ولكن نجد نمط كبار ملّاك في فزان، إذ غالباً ما نجد طبقة تجار/ ملاك اراضٍ يؤجرون اراضيهم لفلاحين مقابل نسبة من الانتاج. نجد هذا الطابع في فزان في بساتين ومزارع النخيل التي زودت الولاية بمعظم حاجاتها من التمور[٦٢].

النمط الثاني لملكية الأراضي في ليبيا العثمانية هو الأرض المملوكة من قبل الدولة، «الميري». الدولة لها حق التصرف في هذه الأراضي[٦٣]. ولكن الدولة عادة ما تعطي بعض الأفراد حق الاستغلال أو الاستعمال. هنا لم نلاحظ ظهور طبقة ملاك اراضٍ تملك مزارع في الارياف وتعيش في المدن، مثلما حدث في لبنان وسوريا وفلسطين. الطبيعة الصحراوية وغلبة التكوينات القبلية قللت من فرص ظهور هذا النمط للملكية. ولكن بنهاية القرن التاسع عشر أجرت السياسة العثمانية، خصوصاً في المنطقة الغربية، تحولات جديدة في نظم الملكية.

النمط الثالث للملكية الشائع في الامبراطورية العثمانية هو الوقف الاسلامي، أو الحبس كما هو يعرف في المغرب الاسلامي. الوقف أو الحبس هو أرض يوقفها المالك الخاص بناءً على وصية أو وقفية لخدمة مسجد، مدرسة، أو ضريح. هذا الوقف يبين مدى مرونة

= *the Middle East: The Nineteenth Century*, Publications of the Center for Middle Eastern Studies; no. 1 (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1968), pp. 69-70, Peter Sluglett and Marion Farouk Sluglett, «The Application of the 1858 Land Code in Greater Syria, Some Preliminary Observations,» in: Tarif Khalidi, ed., *Land Tenure and Social Transformation in the Middle East* (Beirut: American University of Beirut, 1984), p. 410, and Rifaat Abou El-Haj, «An Agenda for Research in History: The History of Libya Between the Sixteenth and Nineteenth Centuries,» *International Journal of Middle East Studies*, no. 15 (1983).

(٦٢) قدّر عبد القادر جامي، حاكم غات في بداية القرن العشرين، عدد أشجار البلح في فزّان بحوالى ١,٧٥٠,٠٠٠ شجرة تنتج ١,٦٠٠,٠٠٠ كيلة (الكيلة تساوي ٨ كيلوغرامات)، أي بما قيمته ٢,٤٠٠,٠٠٠ قرش. انظر: عبد القادر جامي، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، ترجمه من التركية محمد الاسطى (طرابلس: دار المصراتي، ١٩٧٣)، ص ٨٧؛ محمد ناجي ومحمد نوري، طرابلس الغرب، ترجمة اكمل الدين محمد احسان (طرابلس: دار مكتبة الفكر، ١٩٧٢)، ص ٧٠ ـ ٧١؛ Nachtigal, *Sahara and Sudan*, pp. 113 - 115, and Jean Despois, «Fezzan» in: *Encyclopedia of Islam*, New Edition (Leiden: E. J. Brill, 1965), vol. 2. p. 877.

(٦٣) MDJL, Soc. Doc/ 99, «A Report from the Governor of Fezzan Muhammad Sami,» طلب محمد سامي حاكم فزّان، من المجلس الاستشاري للدولة في طرابلس الغرب الموافقة على زراعة ١٥٠٠ شجرة بلح في أرض الدولة (الميري) الواقعة في المنطقة ووضعها في تصرف الجوامع كوقفية بدلاً من الأشجار التي تلفت خلال عصيان عبد الجليل. انظر ايضاً: عبد السلام ادهم واحمد صدقي الدجاني، وثائق تاريخ ليبيا الحديث: الوثائق العثمانية، ١٨٨١ ـ ١٩١١ (بنغازي: مطبعة الجامعة، ١٩٧٤)، ص ١٦٣.

الفقه الاسلامي في مواجهة تجاوزات الدولة على الملكية. حيث إن اراضي الوقف مملوكة ملكية خاصة في المدن ولا سلطة للدولة من الناحية النظرية عليها. بعبارة أخرى، وجدت الطبقة التجارية الحضرية في نظام الوقف الاسلامي وسيلة لمواجهة سلطة الدولة في تأميم ممتلكاتها وأراضيها[٦٤]. ولكن اراضي الوقف لم توجد فقط في المناطق الحضرية والواحات في طرابلس وفزان بل أيضاً في دواخل برقة[٦٥]، ويجب ألا ننسى بأن اراضي زوايا الحركة السنوسية كانت اوقافاً تشمل ٦٠٠,٠٠٠ آيكر في بداية القرن العشرين[٦٦].

النمط الرابع للملكية هو الارض المتروكة، وهي الأرض العامة المملوكة من قبل الدولة ولكن تركت لاستعمال قرية أو قبيلة. ولكن القبائل الليبية نظرت الى اوطانها واراضيها كملكية شاملة وليس للدولة حق فيها. اراضي المراعي ملكت من قبل القبيلة بشكل جماعي، ولذلك ليس من حق أي فرد في القبيلة بيع هذه الأرض بلا اجماع بقية الأعضاء.

حاولت حكومة الولاية تطبيق قانون الأراضي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وخصوصاً تشجيع الأفراد على تسجيل الأراضي في «الطابو» بشكل فردي. هذا التشجيع على الملكية الفردية يدعم التوجه الرأسمالي للامبراطورية، لأن جمع الضرائب في الماضي ذا الطابع الريعي كان على كل قرية أو قبيلة كجزء من الانتاج وليس بالضرورة دفعها بالعملة. القانون الجديد ركّز على المسؤولية الفردية وبالتالي التخلص من الوسطاء في جمع الضرائب من الشيوخ والسباهي. كذلك القانون الجديد الغى امتيازات المرحلة ما قبل الرأسمالية مثل إعفاء الاشراف والصلحاء والكولوغلية والأعيان من دفع نسبة من الضرائب أو كل الضرائب. هذا الالغاء اغضب هذه الفئات مما شجع بعضهم على التفاوض والتواطؤ مع الدولة الايطالية لاحتلال ليبيا كما في حالة حسونة القره مانلي حفيد علي باشا القره مانلي آخر حكام الأسرة القره مانلية.

اختلف تطبيق قانون ١٨٥٨ للأراضي من ولاية الى أخرى وداخل كل ولاية. في حالة ولاية طرابلس الغرب نجح التطبيق في المنطقة الغربية ولكن كان محدود التأثير في الدواخل

---

(٦٤) Fraj Stambouli and Abdel-Kader Zghal, «Urban Life in Precolonial North Africa,» *British Journal of Sociology*, no. 27 (March 1976), pp. 10-11.

(٦٥) قدر القنصل الايطالي أ. ميدانا (A. Medana) عائدات الوقف من املاك الوصاية بحوالى ٥١,٦٤٠ قرشاً. انظر: A. Medana, «Il Vilayet Di Tripoli Di Barbaria Dell' Anno 1901,» *Bolletino Deqli Affari Esteri* (Rome) (November 1904), p. 48.

وفي عام ١٩١٠، كانت عائدات الوقف في طرابلس الغرب ٥٠,٠٠٠ ليرة تركية. انظر: Francesco Coro, *Stettantessei Anni Di Dominazione Turca in Libia, 1835-1911*, trans. by K. Al-Tillisi (Tripoli: Dar Al-Firjani, 1971), p. 54.

(٦٦) E. E. Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica* (Oxford: Clarendon Press, 1949), p. 77.

كان اجمالي العائدات من المساكن السنوسية، حسب المصادر في السلطات الايطالية، حوالى ٢٠٠,٠٠٠ ليرة ايطالي في عام ١٩٢٨. انظر: Rodolfo Graziani, *Cirenica Pacificata* (Benghazi: Dar Al-Andalus, 1974), p. 25.

وخارج مدن برقة، قبيل الغزو الايطالي في عام ١٩١١. هذا التطبيق اللامتكافىء سببه خصوبة اراضي طرابلس كمركز للولاية ومقاومة القبائل في الدواخل للتغلغل العثماني، خصوصاً في برقة بعد توحيد الحركة السنوسية القبائل والتجار تحت لوائها بعد عام ١٨٧٠ للأسباب المذكورة، نجد نظام الملكية في ليبيا العثمانية مزيجاً من النظام العثماني وأعراف الملكية القبلية.

استمر الغزو العثماني العسكري للمنطقة العربية مدة عشرين سنة أو حتى هزيمة قبائل المحاميد التي رفضت التوسع العثماني وحاولت الحفاظ على استقلالها الطويل عن السلطة المركزية. بعد هزيمة المحاميد بدأت الدولة العثمانية في تقوية السلطة المركزية عن طريق نشر التعليم وبناء الادارة وتشجيع تسجيل الأراضي والاستقرار بدل الترحل. اثمرت هذه السياسة ظهور طبقة من الاعيان وشيوخ القبائل الذين اندمجت مصالحهم في الادارة الجديدة. سجل بعض شيوخ القبائل والأعيان الأراضي بأسمائهم، ولذلك وجد العديد من رجال القبائل العاديين انفسهم فجأة بلا اراض فاضطروا للهجرة الى مدينة طرابلس ومصراتة أو إلى جنوب تونس للعمل في مزارع العنب (الكرمة) والزيتون التي بدأ الاستعمار الفرنسي في اعدادها. نلاحظ هنا في منطقة الساحل والمنشية والجفارة بداية ضعف العلاقات القبلية وبقاء العائلة كوحدة مهمة بنهاية القرن التاسع عشر. لكن هذه التغيرات لم تؤثر في اقتصادات قبائل القبلة والحمّادة التي ظلت كقبائل برقة خارج تأثير هذه السياسة الجديدة[٦٧].

كان، كما اسلفنا في السابق، إقتصاد ولاية طرابلس الغرب تجارياً أساساً ولكن الزراعة والرعي زودا السكان بمصادر أساسية للإكتفاء الذاتي. الفائض الزراعي والرعوي لم يكن منتظماً إذ كانت تأخذ الدولة العثمانية جزءاً منه كضرائب وريع. ولكن الاقتصاد الزراعي والرعوي لم يكونا منفصلين، ولكن متكاملين. القبائل تبادلت مع سكان الواحات منتجات القمح، الشعير، اللحوم، والسمسم، في مقابل انتاج فلاحي الواحات، مثل الزيت، البقول، والتمور.

برغم هشاشة وعدم انتظام الانتاج الزراعي في ليبيا العثمانية لقلة الأمطار أو عدم انتظامها، إلا أنه في السنوات المطيرة يزداد الانتاج، خصوصاً اذا كان هناك طلب على المنتجات المحلية في الخارج. في عام ١٨١٠ خلال الحرب الانكليزية الفرنسية في البحر المتوسط أصبحت الولاية المصدر الأساسي للحبوب واللحوم للاسطول الانكليزي في مالطا. في تلك السنة صدّرت الولاية ٥٠٠ رأس من الماشية و٢٠,٠٠٠ هكتوغرام من الحبوب الى

(٦٧) جيل هلال، دراسة في الواقع الليبي (طرابلس: مكتبة الفكر، ١٩٦٧)، ص ٢ و١٢٤، و Keith S. McLachlan, «The Role of Indigenous Farming in the Agrarian Structure of Tripolitania in the 19th and 20th Centuries,» in: M.M. Buru, S.M. Ghanem and Keith S. McLachlan, eds., *Planning and Development in Modern Libya* (Wisbech, Cambridgeshire, England: Middle East and North Africa Studies Press Ltd., 1985), pp. 34-35.

مالطا[٦٨]. في عام ١٨٥٠ قدر القنصل الفرنسي دي رينود الانتاج الزراعي الرعوي للولاية كالآتي[٦٩]:

السلعة	قيمتها بالجنيه الاسترليني
حبوب	٥٩,٨٤٠
زيت زيتون	٢٩,٦٨٠
مواشي	١٦,٣٢٠
زبدة	١٦,٢٤٠

يبدو أن تلك السنة كانت وفيرة المطر أو صابة. هناك أيضاً سنوات عجاف عندما لا يأتي المطر حيث يصبح شبح الجفاف والمجاعة محتملاً، مما يتطلب استيراد الحبوب من الخارج[٧٠]. الاستثناء لهذا الاقتصاد غير المستقر هو إقليم فزان حيث تعتمد بساتين ـ مزارع النخيل على المياه الجوفية في الري. هذه الواحات الغنية زودت الولاية بمعظم حاجاتها من التمور كما أنها كانت هدفاً لغارات القبائل البدوية الجائعة في سنين الجفاف[٧١].

سابعاً: بدايات التحولات الرأسمالية (١٨٨٥ ـ ١٩١١)

شهدت الفترة بين عامي ١٨٨٥ ـ ١٨٩٦ التصدير التجاري الواسع لنبات بري ينمو في سهل الجفارة الى انكلترا. هذا النبات الصحراوي الذي ينمو بشكل طبيعي يسمى «الحلفا» ويستخدم في صناعة الورق. وسيطرت شركتان انكليزيتان على تجارة تصدير الحلفا. وقد تطلبت هذه التجارة نمو مراكز تجارية للتصدير وأيد عاملة محلية، لذلك وسعت الموانىء

(٦٨) E.G.H. Joffe: «Trade and Migration Between Malta and the Barbary States, 1835-1911,» in: Buru, Ghanem and McLachlan, eds., Ibid., p. 3, and «British Malta and the Qaramanli Dynasty, 1800-1835,» *Revue d'histoire maghrebine,* vol. 12, nos. 37-38 (juin 1985), p. 32.

(٦٩) De Reynaud, «La Regence de Tripoli,» p. 43.

(٧٠) استورد الطحين في عام ١٨٦٦ عندما ضرب الجفاف منطقة الوصاية، انظر: United States National Archives (USNA), 3 June and 3 December 1866.

كذلك استورد الطحين من تركيا عام ١٨٨١ للسبب نفسه. انظر: Anthony Cachia, *Libya Under the Second Ottoman Occupation, 1835 - 1911* (Tripoli: Government Press, 1945), p. 40.

(٧١) André Caunelle, «Le Semi-Nomadisme dans l'Ouest Libyen: Fezzan, Tripolitaine,» dans: UNESCO, *Recherches du Zone Aride 19: Nomads et nomadisme au Sahara* (Paris: UNESCO, 1963), p. 104; Jacques Thiry, «Le Fezzan notes historiques et socio-économiques», *Correspondance d'orient études,* no. 3 (1963), p. 47, et Jean Despois, «Géographie humaine,» dansı: *Mission scientifique du Fezzan, 1944-1945* (Paris; Alger: Institut de recherches sahariennes de l'université d'Alger, 1946).

الخمسة، زليطن والزاوية للاستجابة لهذه التجارة. كما بُني أربعة مجمعات لكبس الحلفا في العزيزية والخُمس، والأهم نلاحظ بداية أول طبقة عاملة في ليبيا العثمانية.

شجّع تضاؤل تجارة القوافل عبر غرب الولاية وتدهورها، وكذلك فرصة العمل في صناعة تصدير الحلفا، شجعا العديد من رجال القبائل العاديين على العمل في قلع وتجميع وكبس وتصدير الحلفا. أدت هذه التجارة الرأسمالية الى فصل رجال القبائل عن الانتاج الجماعي المرتبط بالأرض نظير العمل بأجر كعمال في تجارة تصدير الحلفا[٧٢].

بدأت الصادرات الطرابلسية للحلفا بـ ٢٠,٠٠٠ طن في عام ١٨٨٥، ووصلت أوجها الى ٢١٠,٠٠٠ طن في عام ١٨٨٨ (انظر الملاحق). ولكن هذه التجارة الرأسمالية بدأت في الانخفاض بنهاية القرن نظراً الى اكتشاف بديل للحلفا وهو ألياف الخشب لصنع الورق. الياف الخشب أرخص بمراحل من الحلفا. بالاضافة الى أن طريقة قلع الحلفا بشكل بدائي أدت الى تناقص كمية هذا النبات. ولكن رغم المنافسة من قبل فرنسا والسويد، المنتجين لألياف الخشب حتى بداية القرن العشرين، ظلت تجارة الحلفا مستمرة (انظر الملاحق).

جاءت التحولات من الانتاج الريعي الى الرأسمالي كنتيجة عوامل داخلية مثل وجود طبقة تجارية محلية في الولاية. السياسة العثمانية، كما أوضحنا في قانون الأرض الصادر في عام ١٨٥٨، اضافة الى الشركات التجارية الأوروبية وصادراتها الى الولاية، وكذلك تجارة الحلفا في المنطقة الغربية خصوصاً، كل ذلك جعل التحولات الرأسمالية غير متكافئة، الا أن تأثيرها كان في طرابلس اكثر منه في منطقتي فزّان وبرقة.

قسمت الدول الأوروبية الرأسمالية افريقيا في مؤتمر برلين (١٨٨٣ ـ ١٨٨٤) الى مناطق نفوذ تبعاً لعوامل متعددة أهمها البحث عن أسواق، مصادر المواد الخام، عمالة رخيصة، المواقع الاستراتيجية، أو ربما في منافسة مع دول أخرى. يهمنا أساساً التغلغل الاقتصادي في الامبراطورية العثمانية وتقسيمها في ما بعد. أسلفنا أن الدولة العثمانية بدأت هي الأخرى في تحولات رأسمالية ولكنها كانت رأسمالية ضعيفة بالمقارنة بالدول الأوروبية التي سبقتها في التحولات الرأسمالية مثل بريطانيا، فرنسا وأخيراً المانيا. هذه التأثيرات الرأسمالية بدأت بالاستثمار الاقتصادي والامتيازات لشركات ورعايا دول اوروبية في الدولة العثمانية عندما كانت الدولة قوية، كما في عام ١٥٣٥. هذه الامتيازات اعطيت الى التجار الأوروبيين في

---

(٧٢) C. R. Pennell, «Political Loyalty and the Central Government in Pre-Colonial Libya,» in: E.G.H. Joffe and Keith S. McLachlan, eds., *Social and Economic Development of Libya* (Kent, England; London: Menas Press Ltd., 1982), p. 14.

كذلك يشير احمد صدقي الدجاني إلى أن العمال الذين يتاجرون بالحلفا كانوا يعملون ١٤ ساعة كل يوم، انظر. احمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال الايطالي أو طرابلس الغرب في آخر العهد العثماني الثاني، ١٨٨٢ ـ ١٩١١ (بنغازي: المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧١)، ص ٢٢٢، ٢٣٤ و٢٣٨. كما ان العمال كانوا يقبضون أجراً ضئيلاً بحدود خمسة فرنكات في اليوم: مقابلة شخصية مع الحاج محمد الاسطى في طرابلس الغرب بتاريخ ٢٢ ايلول/ سبتمبر ١٩٨٥، وانظر: Robert Harrison, «Migrants in the City of Tripoli,» *Geographical Journal*, no. 57 (July 1967), p. 415.

المراكز والولايات الغنية كمصر وسوريا. ولكن نظراً الى أهمية تجارة الصحراء نجد قنصليات فرنسية وانكليزية قد ظهرت في نهاية القرن السابع عشر[٧٣]. وتركزت تجارة ولاية طرابلس الغرب مع مجموعة محددة من الدول مثل: انكلترا، فرنسا، الدولة العثمانية، مصر، تونس، النمسا، الولايات المتحدة والمانيا. ولكن انكلترا اخذت نصيب الأسد في التجارة مع الولاية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فقط بعد عام ١٨٩٩ أخذت ايطاليا مكان انكلترا الأول في هذه التجارة. هذا التغير في التجارة الخارجية لم يكن مصادفة بل نتيجة السياسة الايطالية التي ركزت على التمهيد لغزو الولاية اقتصادياً في نهاية القرن الماضي (انظر الملاحق).

بدأت السياسة الاستعمارية الايطالية في منطقة شرق افريقيا والبحر الأحمر، خصوصاً إقليم اريتيريا. هذه السياسة نفذت في عهد رئيس الوزراء كريسبي (١٨٧٠ - ١٨٩٦)، أولاً. مثل التجارب الاستعمارية الأخرى، بدأت إيطاليا بشركة تجارية اشترت ميناء عُصب في اريتيريا عام ١٨٨٢. لكن كريسبي استخدم الجيش لاحتلال مساواه في عام ١٨٨٥ وشمال الصومال في عام ١٨٨٩. وهذه السياسة التوسعية في شرق افريقيا انتهت بكارثة عسكرية عندما استطاع امبراطور الحبشة منليك هزيمة الجيش الايطالي في معركة «عدوة» عام ١٨٩٦[٧٤]. وبهذه الهزيمة انتهت الحياة السياسية لكريسبي.

كارثة عدوة لم تنه أحلام التوسع الايطالي الاستعماري، فلقد جدد الصناعيون والمبشرون والقوميون المتعصبون أهمية القوة الاستعمارية لايطاليا. الآمال كانت معقودة على استعمار تونس لوجود جالية ايطالية كبيرة هناك، ولكن احتلالها من قبل فرنسا في عام ١٨٨٢ وجه أنظار أنصار الفكرة الاستعمارية الى طرابلس الغرب، آخر ولايات الامبراطورية العثمانية في شمال افريقيا. وخوفاً من ضياع طرابلس الغرب لحساب دولة أخرى، بدأت السياسة الايطالية في الاتصالات الدبلوماسية لتأمين موافقة الدول الاوروبية الأخرى وخصوصاً انكلترا وفرنسا. ولم تمانع الحكومة الانكليزية في احتلال ايطاليا طرابلس الغرب، فالوجود الايطالي سيكون كمنطقة عازلة للوجود الفرنسي في بقية دول المغرب العربي. كذلك اعتبرت ايطاليا استعمار طرابلس كنوع من التعويض من قبل فرنسا مقابل احتلالها تونس.

ركزت السياسة الايطالية على سياسة التغلغل الاقتصادي والدعاية السياسية في الولاية كخطوة تمهيدية للاحتلال العسكري، لتبرير استعمار ليبيا. وركزت الدعاية الايطالية على تخلف الإدارة العثمانية واهمالها السكان المحليين وصورت الاستعمار الايطالي كعملية تحضيرية لانقاذ الليبيين من ظلام حكم قرون الامبراطورية العثمانية[٧٥].

---

(٧٣) Mark Dyer, «Export Production in Western Libya, 1750-1793,» *African Economic History,* no. 13 (1984), p. 118

(٧٤) Tekeste Negash, *Italian Colonialism in Eritrea, 1882-1941: Policies, Paraxis and Impact* (Uppsala: Sweden, 1987), p. 2.

(٧٥) لمراجعة هذا الموضوع، انظر: ليزا اندرسون، «آراء غربية في اصلاح عثماني في ليبيا في أواخر القرن التاسع عشر،» **مجلة البحوث التاريخية**، العدد ٧ (١٩٨٥)، ص ١١١ - ١٢٥.

كانت القنصلية الايطالية من المؤسسات الاساسية لنشر وتنفيذ الدعاية الايطالية في طرابلس ومصرف روما في المرحلة بين عام ١٨٧٦ وحتى الغزو العسكري في ١٩١١. بنى الطليان ٦ مدارس ايطالية ومطبعة ايطالية لنشر كتب وجرائد يومية في عام ١٩٠٩(٧٦). هذه المدارس والجرائد نجحت في استقطاب اليهود الليبيين أولاً، الذين عملوا كوسطاء بين الطليان والأهالي بحكم درايتهم باللغة والثقافة المحلية وخبرتهم أيضاً باللغات الأوروبية كتجحر وسطاء، وبعضهم أخذ الجنسية الايطالية(٧٧).

ثامناً: مصرف روما والتمهيد الاقتصادي للاستعمار

أسس مصرف روما في عام ١٨٨٠ تحت اسم الفاتيكان وبمشاركة الحكومة الايطالية برأسمال خمسة ملايين لير إيطالي. رئيس المصرف روميلو تيتوني هو شقيق وزير الخارجية الايطالي توماسو تيتوني خلال نشاط المصرف بين ١٩٠٣ ـ ١٩٠٩(٧٨). وظف المصرف العديد من التجار اليهود والمسلمين الليبيين كوسطاء بين البنك والأهالي. اليهود عملوا في المصرف بحكم علاقتهم التجارية مع ايطاليا وبحكم درايتهم باللغة الايطالية، اما التجار المسلمون فكانوا يبغون حماية تجارتهم والاستفادة من فرص التعامل التجاري مع المصرف، لذلك ليس غريباً ان يغيروا طاعتهم من دولة الى أخرى تستطيع أن توفر لهم الحماية وفرصة الاستثمار. من بين التجار اليهود عائلة حسن، ناحوم وأربيب(٧٩). التجار المسلمون سهلوا للمصرف شراء الأراضي بأسمائهم، مثل عائلة المنتصر، بك درنه، حسونه القره مانلي، احمد الازمرلي من طرابلس، ومصطفى بن قدارة من زليطن(٨٠).

---

(٧٦) Angelo Del Boca, *Gli Italiani in Libia: Tripoli Bel Soul D'Amore, 1860-1922* (Rome: Literza Figli, 1986), pp. 41-42, and R. Mori, «La Penetrationi Pacifica Italiana in Libia dal 1907 al 1911 e il Banco Di Roma,» *Revista di Studi Politici Internationali,* no. 24 (1957), pp. 110-111.

(٧٧) Rachel Simon, «The Relations of the Jewish Community of Libya with Europe in the Late Ottoman Period,» in: Jean Louis Miège, ed., *Les Relations intercommuneautaires juives in méditerranée occidentale, XIIIème - XXème siècles* (Paris: Centre nationale de la recherche scientifique, 1984), pp. 71 et 74.

(٧٨) R. A. Webster, *Industrial Imperialism in Italy, 1908-1915* (Berkeley, Calif.: University of California Press, 1975), p. 152.

(٧٩) Mori, «La Penetrationi Pacifica Italiana in Libia dal 1907 al 1911 e il Banco Di Roma,» p. 112; Boca, *Gli Italiani in Libia: Tripoli Bel Soul D'Amore, 1860-1922,* p. 33; الطاهر أحمد الزاوي، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ط ٢ (بيروت: دار الفتح للطباعة والنشر، ١٩٧٠)، ص ٣٤؛ عقيل البربار، «مصرف روما ودور السلطات العثمانية في الوقوف ضد التسلل الايطالي إلى ليبيا، ١٩٠٧ ـ ١٩١١،» مجلة البحوث التاريخية، العدد ٢ (تموز/ يوليو ١٩٨٢)، ص ٢٤١، و Rachel Simon, «The Socio-Economic Role of the Tripolitanian Jews in the Late Ottoman Period,» in: Michel Abitbol, ed., *Communautes juives des marges sahariennes du Maghreb* (Jerusalem: [s. n.], 1982), pp. 323-324

(٨٠) دار المحفوظات التاريخية، ملف العائلات الليبية؛ الزاوي، المصدر نفسه، و Francis McCul- =

بـدأ المصرف نشاطـاته بفتـح فروع في معـظم المدن المهمـة في الولايـة، بعدهـا بدأ في الاستثمار في العقارات وشراء الأراضي ونجح بواسطة وسطائـه في شراء ٤٠٠,٠٠٠ آيكر من الأراضي[٨١]. أقرض المصرف الأهالي قروضاً بشروط مغرية، فنسبة الارباح ٩ بالمئة وهي بـلا شك قليلة اذا قورنت بشروط النسب التي يطلبها التجار اليهود بين ٢٠ ـ ٦٠ بالمئـة. استثمر المصرف أيضاً في بناء مطاحن للحبوب، مصنع للجيلاتي ومطبعة حديثة، بالاضافـة الى تجارة القوافل عبر الصحراء والنقل البحري بين طرابلس ومصر وايطاليا[٨٢].

أدت هذه النشاطات الكثيفة للمصرف الى ارتياب سلطات الولاية العثمانية والصحافـة المحلية. حاول الوالي العثماني رجب باشا التنبيه الى نشاطات المصرف المريبـة، كذلـك فعلت صحف طرابلس، أبو قشة والمرصاد[٨٣]. كذلك أبدت بعض القبائل وضـوح وعيها السيـاسي تجاه نشاطات المصرف. وقد ذكر الصحفي الفرنسي جورج ريمون الذي زار الولايـة في بدايـة القرن العشرين القصة التالية: استثمر فرع المصرف الروماني في بنغازي تربية قطعـان الغنم، مشاركة مع بعض رجال القبائل، حيث زودهم المصرف بـالمال لشراء الحيـوانات نـظير رعيها ومشاركة الارباح في نهاية العام. ولكن بعد عامين جاء بعض الرعاة الى فرع المصرف بأكياس مليئة بآذان الغنم وهم يتباكون بـأسى مدعـين أن وباءً قتـل الغنم، والآذان هي دليل عـلى ما حدث. في نهاية تلك السنة لوحظ أن أسواق برقة مليئة بأغنام بأذن واحدة[٨٤].

خلاصة القول، نجح المصرف في توظيف بعض الأعيان والتجار من المسلمين واليهـود

---

lagh, *Italy's War for a Desert; Being some Experiences of a War Correspondent with the Italians in Tripoli* (Chicago, Ill.: F.G. Browne and Co., 1913), p. 18. =

(٨١) Francesco Crispi, *The Memoirs of Francesco Crispi,* trans. by Mary Prichard-Agnetti from the Documents Collected and Edited by Thomas Palamenghi-Crispi (London: [n. pb.], 1923), pp. 474-475; Giovanni Giolitti, *Memoirs of My Life,* trans. by Edward Storer (New York: Howard Fertig, 1973), p. 260; Charles Lapworth, *Tripoli and the Young Italy* (London: Stephen Sweft, 1912), p. 59, and

البربار، المصدر نفسه، ص ٢٤١ ـ ٢٤٣.

(٨٢) البربار، المصدر نفسه، ص ٢٤٠.

(٨٣) كانت هناك صحافة حرة في عهد تركيا الفتاة المتحررة في عـام ١٩٠٨، كما سمـح لبعض الاحزاب السياسية بالعمل، فصدرت عدة صحف وطنية. انظر: علي مصطفى المصراتي، صحـافة ليبيـا في نصف قرن: عرض ودراسة تحليلية لتطور الفن الصحفي في ليبيا (بيروت: مطابع دار الكشاف، ١٩٦٠)، و Shaban Fituri Gashut, «The Development of Libyan Newspapers, 1860-1972: A History and Interpretation,» (M.A. Thesis, University of Kansas, 1972).

وقد طبع كل من القنصلية الايطالية ومصرف روما صحفها الخاصة بواسطة التجار اليهود مثل غوستافو أربيب. ومن هـذه الصحف الايطاليـة: *Il Gournale Di Tripoli, Il Messagerio Di Tripoli;* and *L'Eco Di Tripoli.*

انـظر: Simon, «The Socio - Economic Role of the Tripolitanian Jews in the Late Ottoman Period,» p. 327.

(٨٤) Georges Rèmond, *Aux Camps Turca Arabes, notes de guerre en Cyrenaique que en Tripolitaine, 1912,* trad. en arabe par Muhammad A. El-Wafi (Paris: [s. n.], 1913); 2ème éd. (Tripoli: al-Mu'assasa al'Ama, 1983), p. 281.

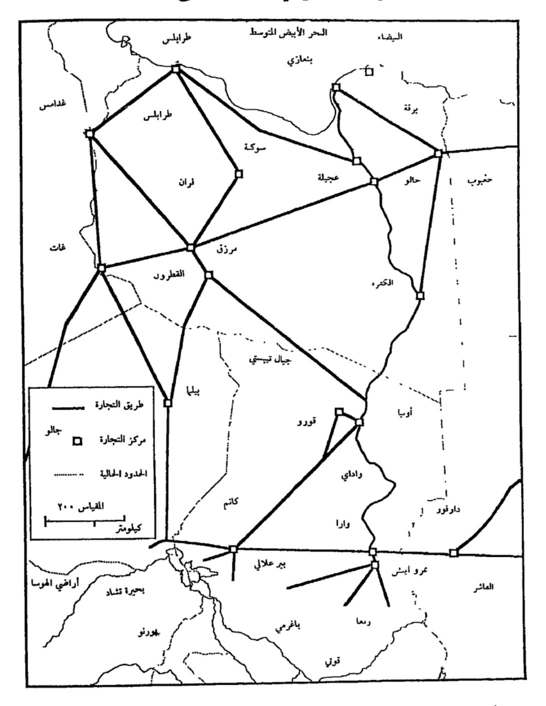
في مدن الساحل، ولكنه فشل في التوغل في الدواخل. للموضوعية هنا لا بد من توضيح طبيعة الظروف السياسية في تلك الفترة. الكثير من الليبيين لم تكن لهم دراية بالاستعمار الايطالي واغراضه، كذلك اعطى المصرف فرصاً مغرية للكثيرين[٨٥]. نجح المصرف أيضاً في شراء الكثير من الأراضي في المنطقة الغربية[٨٦]. ولكن المصرف من الناحية المالية عانى عجزاً في ميزانيته وفشل الكثير من استثماراته. ولكن النجاح الاقتصادي لم يكن الهدف الأول من إنشائه. المصرف نجح في مهمته الاقتصادية والسياسية، في جعل ايطاليا الشريك الأول لتجارة الولاية الخارجية، وكذلك نجح بالتعاون مع القنصلية الايطالية في نشر اللغة الايطالية في مدينة طرابلس بعد إنشاء مجموعة من المدارس والصحف الايطالية.

(٨٥) Renzo De Felice, *Jews in an Arab Land: Libya, 1835-1970,* trans. by Judith Roumani (Austin: University of Texas Press, 1985), p. 18, and

البربار، «مصرف روما ودور السلطات العثمانية في الوقوف ضد التسلل الايطالي الى ليبيا، ١٩٠٧ - ١٩١١،» ص ٢٤٢ - ٢٤٧.

(٨٦) البربار، المصدر نفسه، ص ٢٤١.

خريطة رقم (٢ - ١)
طرق القوافل في القرن التاسع عشر



المصدر: Dennis D. Cordell, «Eastern Libya, Wadai and the Sanusiyya: A Tariqa and a Trade Route,» *Journal of African History*, vol. 18, no. 2 (1972), p. 25

الفصل الثالث

الاقتصاد السياسي لطرابلس وفزان: الأسواق، الدول، وبدايات التكوينات الطبقية، ١٨٣٠ - ١٩١١

«إن مساعي اسلافكم [الولاة العثمانيون] لم تكن في سبيل الاصلاح وفي سبيل دين محمد. بل في سبيل ترحيل ما يدخل لديهم إلى بلدانهم».

رسالة الشيخ غومة المحمودي زعيم انتفاضة الجبل الغربي (١٨٣٢ - ١٨٥٨)، الى الوالي العثماني محمد أمين باشا ينتقد فيها سياسة الولاة العثمانيين السابقين.

سنحاول في هذا الفصل تحليل الاقتصاد السياسي لاقليمي طرابلس وفزان بشكل اكثر تفصيلاً بعد المقدمة العامة لاقتصاد الولاية في الفصل السابق، أولاً لأن فزان ضُمت عسكرياً إلى مركز الولاية في طرابلس إبّان بداية القرن عندما هزم يوسف باشا القره مانلي دولة اولاد محمد في فزان؛ وثانياً أدى مجيء الدولة العثمانية في عام ١٨٣٥ الى فتح عسكري ضد الأحلاف القبلية للمحاميد وأولاد سليمان استمر حتى عام ١٨٦٠ حين رسخت السلطة العثمانية وجودها في طرابلس وواحات فزان، ولكن ظهور الحركة السنوسية في برقة أدى الى تحديد الوجود العثماني في مدن الساحل كبنغازي والمرج ودرنة، ومن ثم أعطى دواخل برقة استقلالية اقتصادية سياسية سنحللها في فصل مستقل.

سيركز هذا الفصل على تحليل ثلاث ظواهر أساسية: **أولاً**: كيف كان تأثير السياسة العثمانية الجديدة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، **ثانياً**: ما هي آثار تدهور تجارة القوافل في اقتصاد فزان في نهاية القرن، **وثالثاً**: ما هو تأثير الاستثمارات التجارية الأوروبية، أو بعبارة أخرى، لماذا، كيف واين، أدت هذه الأحداث إلى التغيير الاقتصادي الريعي للولاية، وكيف كانت ردود فعل الدولة العثمانية، التجار، العمال والفلاحين المحليين تجاه هذه التحديات؟

تتطلب الإجابة عن الأسئلة السابقة عرضاً مختصراً للأحداث السياسية قبل عام ١٨٣٥، وتحليلاً للفئات والطبقات الاجتماعية من فلاحين، قبائل وتجار. كذلك طبيعة سياسة الدولة العثمانية وتأثيرها في الولاية، ثم عواقب تدهور تجارة القوافل عبر الصحراء.

أولاً: مختصر الأحداث السياسية قبل عام ١٨٣٥

لم تكن ولاية طرابلس الغرب بغنى الولايات الأخرى مثل سوريا ومصر، ولكن موقعها الاستراتيجي كبوابة لافريقيا العثمانية كان أكثر أهمية للحكومة العثمانية في اسطنبول. كذلك،

حتى منتصف القرن التاسع عشر، نجحت التحالفات القبلية والفلاحية في منافسة الدولة المركزية في طرابلس، وفي حالات ظهور دولة اقليمية كدولة أولاد محمد، استمر الصراع طويلاً حول السيادة، الريع والاتباع. التجار والفلاحون تحالفوا مع الدول والقبائل التي تستطيع أن تقدم لهم الحماية. العبء الأكبر للضرائب، الخراج والريع وقع على أكتاف التجار والفلاحين والعبيد. كذلك وجدت أكثر من دولة وسوق، بل ارتبطت هذه الفئات والطبقات بالاقتصادات الاقليمية لغرب مصر بالنسبة الى برقة، بلاد السودان لفزان وجنوب تونس لطرابلس.

ثانياً: التركيب الاجتماعي

قدر التعداد السكاني لمنطقة طرابلس وفزان بحوالى ٦٠٠,٠٠٠ تقريباً في عام ١٩١١. هؤلاء السكان كانوا مقسمين إلى فئات، طبقات وقبائل: تجار، فلاحون، عبيد وتكوينات قبلية جماعية. عكست غالبية السكان مزيجاً من البربر، العرب، الاتراك والزنوج. هذا التعدد العرقي خفّفه الاعتقاد في الاسلام السني المالكي لغالبية السكان ما عدا وجود أقلية تعتقد في الاسلام الإباضي الخارجي واقلية يهودية منغلقة على ذاتها في مدينة طرابلس والجبل الغربي. كذلك نجد فروقاً في الهيئة الاجتماعية بين القبائل العربية الهلالية الفاتحة والقبائل الأخرى الثانوية، ثم بين الاشراف أو الشرفاء الذين ينتمون إلى أسرة الرسول. باختصار، كان المجتمع الليبي في القرن التاسع عشر مجتمعاً تعددياً عكس انتماءات طبقية، قبلية، واقليمية، ولكن في الوقت نفسه ارتبط بعرى الاسلام المالكي السني.

التركيب الحضري في المدن شمل طبقة الأعيان (تجار، إداريين، وعلماء دين) والحرفيين. الدواخل عاش فيها التجار، الفلاحون، العبيد والقبائل. الفلاح هو العامل الحرّ الذي استقر في مزرعة «السواني» ودفع الضرائب الى الدولة أو القبيلة مقابل الحماية من القبائل الأخرى. العبد هو إما خادم في منزل أو مزرعة أو راع مملوك من قبل عائلة أو قبيلة. اما تركيب القبائل الاجتماعي فمتعدد بناء على الترحال والتحالفات مع الدولة أو القبائل الأخرى. هنا لا بد من توضيح أن القبائل الدائمة الترحال كانت نادرة في القرن التاسع عشر، كحالة قبيلة الفواخر المرابطين في برقة. كانت أغلب القبائل تتبع نمط معيشة الرحل في تنقلها خلال مواسم السنة بين المراعي، الأوطان والواحات. هذه القبائل مارست الزراعة الموسمية ورعي الحيوانات، ولكن بعضها مارس التجارة بشكل أساسي كالمجابرة والزوية. ولقد لاحظنا ارتباطاً بين فلاحي الواحات والقبائل من ناحية التبادل الاقتصادي والتحالف الاجتماعي في ليبيا العثمانية على عكس الدراسات الأخرى التي تدرس هاتين الفئتين بشكل منفصل في منطقة الشرق الأوسط وآسيا.

ثالثاً: أصول التكوينات القبلية

أسلفنا في الفصل الأول أن اصول التكوينات القبلية في ليبيا الاسلامية أو ما كان

يعرف بولاية افريقيا ترجع الى القرن الحادي عشر بعد مجيء قبائل بني هلال وسليم الى شمال افريقيا. اما تعداد هذه القبائل فكان ٣٠٠,٠٠٠ نسمة، وقطعانهم عرّبوا المنطقة بنشر اللغة العربية كما اثروا في البنية الاجتماعية. استقرت معظم قبائل بني سليم في برقة وسرت والحفرة بينما استقرت بعض قبائل بني هلال في المنطقة الغربية وجنوب تونس، واستمرت فروع هلالية أخرى بالهجرة حتى المغرب الأقصى.

خلفت هجرة القبائل الهلالية الى شمال افريقيا وليبيا تأثيرات كبيرة في التكوين السكاني، إذ تزاوجت هذه القبائل مع القبائل البربرية والعربية التي جاءت في القرن السابع الميلادي[١]، هذا التزاوج نتج منه تعريب شمال افريقيا وأسلمتها ولكن بطابع بربري. لذلك عندما امتد الحكم العثماني الى شمال افريقيا وجد العثمانيون أن الأسلمة والتعريب يشملان كل السكان ما عدا الأقلية اليهودية المنغلقة والمتشبثة بهويتها الدينية[٢]، أو بعض الجيوب البربرية في الجبل الغربي ومدينة زوارة على الساحل[٣].

استولت القبائل الهلالية من الناحية الاقتصادية على معظم الأراضي الخصبة، المراعي ومصادر المياه. كذلك فرضت دفع ريع لها من قبل القبائل المهزومة والفلاحين كحالة قبائل المحاميد الهلالية التي سيطرت على منطقة الجفارة والجبل الغربي. وقد أعفت الدولة القره مانلية في عهد يوسف باشا عائلة سوف وشيوخ المحاميد من دفع الضرائب وهو نوع من الاعتراف بقوة هذه القبيلة في عام ١٧٩٥.

جمعت قبائل أولاد سليمان من بني سليم التي استوطنت اقليم سرت وفزان الريع من فلاحي واحات فزان. وحكمت عائلة سيف النصر قائدة قبائل اولاد سليمان فزان في ما بين عامي ١٨٢٠ و١٨٤٠[٤]. القبائل الأخرى المهمة هي: الرجبان، مقارحه، ورفله، أولاد بوسيف، الزنتان، والمشاشية سيطرت على منطقة القبلة، الجبل وشمال فزان، وكانت لها اشجار نخيل في الواحات ونشاط في تجارة القوافل كمرشدين، مؤجرين الجمال، تجار، أو حلفاء لتجار[٥].

مارست معظم القبائل زراعة الحبوب وخصوصاً الشعير والقمح في السنين المطيرة

---

(١) Youssef Toni, «Tribal Distribution and Racial Relationships of the Ancient and Modern People of Cyrenaica,» in:

حوليات كلية الآداب (جامعة عين شمس، كلية الآداب)، العدد ٨ (١٩٦٣)، ص ١٧٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٨٩.

(٣) Enrico Di Agostini, «Sulla Populazioni Della Libia,» *Libia* (Gennio-Marzo 1954), pp. 7 and 12.

(٤) Dennis D. Cordell, «The Awlad Sulayman of Libya and Chad: Power and Adaptation in the Sahara and Sahel,» *Canadian Journal of African Studies*, vol. 19, no. 2 (1985), pp. 325 and 328.

(٥) André Caunelle, «Le Semi-nomadisme dans l'ouest libyen: Fezzan, Tripolitaine,» dans: UNESCO, *Recherches du Zone Aride 19: Nomads et nomadisme au Sahara* (Paris: UNESCO, 1963), p. 101.

ورعي الحيوانات وجمع التمور في فصول مختلفة من الترحال. لم توجد الملكية الخاصة خارج المدن والواحات ولكن المواشي تملك بشكل خاص أو عائلي. أما أراضي المراعي وأوطان القبائل فهي ملك عام للقبيلة كلها. وتستخدم أراضي القبيلة ومراعيها لزراعة الشعير والقمح، كذلك للرعي.

القبيلة الطرابلسية في القرن التاسع عشر هي وحدة سياسية، اقتصادية، اجتماعية، مبنية بشكل أساسي حول عيلة برأسها رجل يتبعه الأطفال والنساء، وهذه العائلات تكوّن عشيرة أو لحمة، والعشائر تكوّن قبيلة والقبائل المتحالفة تكوّن صفاً[٦]. وحّدت حركة الصفوف قبائل وفلاحين، خصوصاً في فترة الخطر الخارجي كهجوم قبائل معادية، أو حرب مع الدولة، أو غزو أجنبي. وتنتج القبيلة ما تستهلكه وتبادل الفائض مع سكان الواحات والمدن. كذلك شيوخ القبيلة يقومون بحل النزاعات المحلية والقبلية في ما يسمى بالميعاد[٧].

الحروب بين القبائل هي نتيجة الجفاف الذي يؤدي أحياناً الى الصراع على مصادر المياه والمراعي، كما حدث في الحرب التي قامت بين أولاد سليمان والفرجان في عام ١٧٦٧، أولاد بوسيف والمشاشية ضد الزنتان والرجبان في عام ١٧٨٠، المقارحة واولاد بوسيف ضد اولاد سليمان ورفلة والقذاذفة في فترة ١٨٣٢ ـ ١٨٤٢، والزنتان ضد أولاد بوسيف في فترة ١٩١٠ ـ ١٩١١[٨].

دفعت الظروف الجغرافية الجافة والاقتصادية في المنطقة القبائل الطرابلسية الى التكيف معها من خلال دورة اقتصادية بين زراعة الشعير والقمح في فصل المطر شتاءً والحصد في فصل الربيع، وتبادل الحبوب وزيت الزيتون والمواشي مع سكان الواحات مقابل التمور في فصل الصيف والخريف، اما من الجفارة أو من فزان. أدى هذا الاقتصاد الى اعادة إنتاج العصبية القبلية واستمراريتها. لقد عاشت القبائل الطرابلسية شبه الرحل بين الفلاحين الصغار في الساحل والجبل الغربي، أما قبائل منطقة سرت والقبلة فدخلت بدورها واحات الجفرة وفزان في فصل الصيف والخريف. خلاصة القول اندمجت القبائل والفلاحون في اقتصاد واحد.

---

(٦) للتعرف أكثر إلى تكوين القبائل الليبية، انظر: Emorys L. Peters, «Cultural and Social Diversity in Libya,» in: A.J. Allan, ed., *Libya Since Independence: Economic and Political Development* (New York: St. Martin's Press, 1982), pp. 103-107.

(٧) في ما يتعلق بالأعراف القبلية، وخاصة الميعاد أو مجلس الشيوخ الكبار، انظر: Massimo Colucci, «Il Diritto Consuetudinario Della Cirenica,» *Rivista Giuridica Del Medio Estremo Oriente E Guistizia Coloniał,* no. 1 (1932).

(٨) انظر: Lauraine Charles Feraud, *Annales Tripolitaines* (Tunis: Tournier, 1927), p. 251,

وقد ترجم محمد أ. الوافي هذا الكتاب إلى العربية سنة ١٩٧٣ في طرابلس وتمت إعادة طباعته سنة ١٩٨٣. انظر أيضاً.

André Cauneile: «Le Nomadisme de Zintan (Tripolitaine et Fezzan),» *Travaux de l'institut de recherches sahariennes,* vol. 16, no. 2 (1957), p. 97, et «Le Nomadisme du Megarha (Fezzan),» *Travaux de l'institut de recherches sahariennes,* no. 12 (1954), p. 63.

رابعاً: الفلاحون

أسلفنا بأن الفلاحين الصغار عاشوا في الساحل، الجبل الغربي وواحات فزان. هؤلاء الفلاحون زرعوا بساتين ومزارع مملوكة من عائلات، أو عملوا كخمّاسة في أراضي ملاك مقابل نسبة من المحصول في نهاية السنة. الساحل والجبل هي المناطق التي تسقط عليها اكبر كمية من الامطار في المنطقة، بالإضافة الى وجود عيون ماء في منطقة الجبل الغربي[٩]. وجد الفلاحون أنفسهم بين الدولة الريعية في طرابلس والقبائل المسلحة في الدواخل، لأنهم مرتبطون بالزراعة المستقرة ولا يحملون السلاح كالقبائل، لذا كانوا عرضة لضرائب الدولة ومطالب القبائل. كان إنتاجهم الزراعي قليلاً لتدني التقانة (التكنولوجيا) متل الفأس في الحرث والحيوانات في الري. بالإضافة الى أن حجم السواني [المزارع] في المتوسط لم يزد على هكتار واحد. هذه السواني وصل عددها الى ٥٠,٠٠٠ في عام ١٩٠٠[١٠].

أهم منتجات سواني الساحل الطرابلسي كانت الخضروات، الفواكه، الحبوب. أما في الجبل الغربي فنجد التين، الزيتون والحبوب. يستهلك الفلاحون الطرابلسيون جزءاً من إنتاجهم والباقي يقايضونه مع القبائل أو يدفع كريع للدولة. أهم الأسواق التجارية الزراعية هي طرابلس، غريان، مصراته، والزاوية. ويحصل الفلاحون على أدواتهم من هذه المدن التي عرفت بحرفها مثل نسج الأكلمة والفرش والاردية والسلال[١١]. بعبارة أخرى زوّد الفلاحون هذه المدن بالمنتوجات الغذائية مقابل شراء احتياجاتهم من اسواقها.

المياه الجوفية هي المصدر الأساسي للري خصوصاً ان الامطار الشتوية تختلف من سنة الى أخرى. والدلو المصنوع من جلد الماعز وحبال يشدها حيوان، في العادة حمار يقوده فلاح يسمى جبّاد، هي الوسيلة الشائعة للري في ليبيا العثمانية[١٢].

لم تساعد الظروف المناخية للولاية على وجود نسب عالية من الكثافة السكانية، ولذلك وجدنا ثلاث وسائل ريعية في تنظيم علاقات العمل الاقتصادي: التخميس، المغارسة والتخريص. يؤجر ملاك الأراضي أو التجار، الفلاحين، ويسمون الخمّاسة [لأنهم في العادة لهم خمس المحصول]، أو يتفق ملاك الأراضي مع الفلاح على فلاحة الأرض وزراعتها وريها

---

(٩) Jean Despois, *Le Dejbel Nefousa (Tripolitaine): Etude géographique* (Paris: Larose, 1935), p. 135.

(١٠) P. Lombardi, «Italian Agrarian Colonization During the Colonial Period,» in: E.G.H. Joffe and Keith. S. McLachlan, eds., *Social and Economic Development of Libya* (Kent, England; London: Menas Press Ltd., 1982), p. 95, and Claudio G. Segré, *Fourth Shore: The Italian Colonization of Libya* (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1974), p. 146.

(١١) Gerald Henry Blake, *Misurata. A Market Town in Tripolitania,* Research Paper Series; no. 9 (Durham, England: University of Durham, Department of Geography, 1968), pp. 24 and 30.

(١٢) Jean Despois, «Development of Land Tenure in Northern Africa,» in: Dudly L. Stamp, ed., *A History of Land Use in Arid Regions* (Paris: UNESCO, 1961), pp. 220-221.

مقابل نسبة من المحصول، إما الربع أو الثلث، أو الخمس أو النصف بناء على الاتفاق[13]. بالاضافة الى التخميس هناك نظام المغارسة. وهو يشير الى اتفاق مشابه للتخميس، أي عقد بين الفلاح ومالك الأرض يقوم الفلاح بناء عليه بغرس أشجار وهي عادة زيتون أو نخيل. وبعد سنتين أو ثلاث تقسم الأشجار بينهما حسب النسبة المنصوص عنها في العقد[14]. ويلجأ بعض الملاك في مواسم الحصاد الى عقد مع فلاح مقابل نسبة من المحصول حسب العقد. هذا التقليد كان شائعاً في حصاد الزيتون والتمور في الجبل الغربي وواحات فزان. وقد استخدمت هذه التقاليد للتغلب على قلة الايدي العامله من قبل ملاك مثل الكولوغلية في مدن الساحل أو التجار وشيوخ القبائل. وتعود أصول الفلاحين إما إلى عبيد معتوقين أو قبائل هامشية بلا سمعة أو هيبة[15].

عاشت القبائل الطرابلسية في منطقة الجفارة، جزء من الجبل الغربي، والقبلة. نجد في منطقة غرب سهل الجفارة قبائل الصيعان كمثال لشبه الرحل. أوطان الصيعان مجاورة للمحاميد، أقوى قبائل الجبل والجفارة التي امتلكت أخصب المراعي وأهم الآبار. ومن أجل بقائهم تنقلّ الصيعان بين سهل الجفارة وواحاته لجمع التمور. هذه الدورة الاقتصادية تعكس السمة الأساسية للقبائل[16]. ولكن الصيعان لا يستطيعون جمع الريع من القبائل الأخرى وسكان الواحات مثلما يفعل المحاميد الذين يطالبون مقابل حماية الفلاحين والقبائل الصغيرة باعطيات من القمح، الشعير، الزيتون، والحطب. كذلك استخدمت العشائر الغنية داخل بعض القبائل رعاة من القبائل التابعة والفقيرة في رعي المواشي، كما وجدنا في جبل ترهونة قبائل الجعافرة والهوارة عملوا كرعاة للقبائل الكبيرة الغنية مقابل تزويدهم بالملابس، الغذاء ونسبة من المواشي. هذا التقليد القبلي شبيه بالتخميس الزراعي بالاضافة الى انه دليل على أن التركيب الاجتماعي القبلي ليس متكافئاً كما وصفت الكثير من الدراسات عن القبائل الليبية[17]. كذلك يجب ملاحظة أن القبائل والفلاحين حتى في حالات الحرب والصراع المستمر اندمجوا في اقتصاد تكاملي واحد. كانت الغزوات والحروب محدودة في أيام المجاعة

---

(١٣) في ما يتعلق بتوزيع الإنتاج الزراعي في المنطقة الغربية طرابلس، انظر: Jamil Hilal, «Agriculture and Socio-Economic Change in the Region of Msillata, Tripolitania,» *Dirassat. Libyan Economic and Business Review* (Benghazi University), vol. 5, no. 1 (Spring 1969), p. 97;

في ما يتعلق بأوضاع برقة، انظر: محمد بن عثمان الحشائشي، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، تحرير علي مصطفى المصراتي (بيروت: دار لبنان، ١٩٦٥)، ص ١٠٠، وفي ما يتعلق بفزان، انظر: Caunelle, «Le Semi-nomadisme dans l'ouest libyen: Fezzan, Tripolitaine » pp. 108-109, et Jean Despois, «Géographie humaine,» dans: *Mission scientifique du Fezzan, 1944-1945* (Paris; Alger: Institut de recherches sahariennes de l'université d'Alger, 1946), pp. 134 et 236.

(١٤) Hilal, Ibid.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٧٨.

(١٦) J. I. Clarke, «The Si'aan Pastoralists of the Jafara,» in: S.G. Willmont and J. I. Clarke, eds., *Field Studies in Libya* (Durham, England: Durham University Press, 1960), p. 52.

(١٧) Caunelle, Ibid., pp. 108-109.

وحملات الدولة العسكرية، ونجد في فترات الحرب مثل انتفاضة الجبل بقيادة الشيخ غومة المحمودي أن الفلاحين والقبائل توحدوا بقيادة غومة بين عامي ١٨٣٢ ـ ١٨٥٨[١٨].

خامساً: التحالفات القبلية: حركة الصفوف

ارتبط سكان المدن، الفلاحون، والقبائل بايديولوجيات قبلية، اقليمية، ودينية في القرن التاسع عشر. هذه الايديولوجيات عكست تفاعلات مع اقتصادات الانتاج العائلي الاكتفائي، والتجاري.

الايديولوجيا أو العصبية القبلية هي تعبير عن الملكية الجماعية للأرض والمراعي. تنتسب القبيلة الى جد مشترك يربط العشائر والعائلات مع بعضها. الاعتقاد في أصل جد أو جدة واحدة مهم للعيش في بيئة قاسية فيها القليل من الماء والأراضي الصالحة للزراعة. يشمل الاصل القبلي الواحد بالاضافة الى عشائر القبيلة العشائر التابعة، الحرفيين، والعبيد الذين يعيشون في أراضي القبيلة. الايديولوجيا القبلية تعكس الاستقلال المادي والاقتصادي كوحدة مستقلة[١٩].

لم يؤد نشاط القبائل في تجارة القوافل عبر الصحراء الى إضعاف العصبية القبلية، لأن هذه التجارة المركنتلية للسلع لا تتطلب تغييراً في العلاقات ما قبل الرأسمالية كما الحالة في تجارة إنتاجية رأسمالية زراعية. على العكس استخدمت القبائل التجارية ارباح وعوائد تجارة القوافل في التوسع على حساب القبائل الأخرى، خصوصاً الاستيلاء على مراعي وآبار مياه القبائل الأخرى في الصراع، مثلاً بين قبائل الطوارق وأولاد سليمان في جنوب غرب فزان، والزوية والتبو في جنوب شرق برقة. ولكن لا بد من الأخذ في الاعتبار أن الاقتصاد الاكتفائي القبلي لم يكن يكفي. لذلك أعطت التجارة عبر الصحراء العديد من القبائل فرصة للانتعاش المعيشي[٢٠].

---

(١٨) وثيقة رقم ٥١ في: عبدالسلام ادهم وعبدالله ابراهيم، محرران، وثائق عن تاريخ ليبيا في القرن التاسع عشر (I) ثورة غومه المحمودي (طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٣)، ص ١٦٤؛
N. Slouch, «La Tripolitaine sous la domination de Karamanli,» *Revue du monde musulman*, vol. 6, no. 11 (novembre 1908), p. 437, et Allen Streicker, «Government and Revolt in the Tripoli Regency. 1795-1855,» (M. A. Thesis, Northwestern University, 1970), pp. 36 and 79-80.

(١٩) Peters, «Cultural and Social Diversity in Libya,» p. 106.

(٢٠) وثيقة رقم ٤٧ في: بشير يوشع، محرر، غدامس: وثائق تجارية، تاريخية، اجتماعية (طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٢)، ص ١٠٩، و
Cordell, «The Awlad Sulayman of Libya and Chad: Power and Adaptation in the Sahara and Sahel,» p. 330.

كذلك اضطر تجار القوافل للتعامل مع القبائل لأن الدولة المركزية في طرابلس لم تكن قادرة على توفير الحماية خارج المدن. ومن ثم وجد التجار ضرورة في دفع الاعطيات للقبائل الكبيرة من اجل ضمان سلامة العبور بين طرابلس، فزان وبلاد السودان.

اعتبر الفلاحون والقبائل في منطقة طرابلس انفسهم جزءاً من مدن وقبائل، كذلك هم من المنطقة الغربية أو طرابلسيون على المستوى الاقليمي، وفي النهاية مسلمون ينتمون الى أمة محمد كما العادة، باستثناء الأقلية اليهودية. لقد اعتقد قبائل وفلاحو الدواخل في طرابلس بالاسلام الشعبي مثل الحركات الصوفية، زيارة الأولياء وطلب بركاتهم، علاجهم وحمايتهم، كما في حالة الولي الطرابلسي سيدي عبد السلام الأسمر المدفون في بلدة زليطن والشيخ احمد الزروق المدفون في مصراته. انتشر الاسلام الشعبي الصوفي في شمال افريقيا في القرن الرابع عشر الميلادي كرد فعل على تراخي الحكومات الاسلامية في المدن أمام الغزو الاسباني والبرتغالي. الطرق العروسية، التيجانية، العيساوية، الزروقية، والمدنية هي أشهر الطرق الصوفية التي وجدت في المنطقة الغربية في القرن التاسع عشر. أما الطريقة السنوسية فظلت محدودة الانتشار في أطراف المنطقة لأسباب سنتولى تفصيلها في ما بعد. باختصار، بسطت الطرق الصوفية الاسلامية الاسلام وعكست مصالح القبائل في الدفاع عن استقلالها في مواجهة الأخطار الخارجية. وعلّم شيوخ الطرق الصوفية القرآن، وتوسطوا في حل النزاعات القبلية واشرفوا على الزوايا، الأضرحة، والمناسبات الدينية[٢١].

تمتعت القبائل في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين باستقلال سياسي عن الدولة المركزية. واعتادت القبائل الكبيرة على حمل السلاح لحماية مراعيها وقطعانها من القبائل الأخرى. كما لم تتمكن الدولة المركزية من فرض سلطتها وقانونها على دواخل البلاد وبالذات في برقة، سرت، القبلة، الجبل الغربي وفزان. كمثال على الطابع العسكري للقبيلة في بداية القرن العشرين نجد مثلاً: في برقة قبيلة الدرسة ملكت ٦,٠٠٠ قطعة سلاح، العواقير ١٤,٠٠٠، والزوية ١١,٠٠٠[٢٢]. ازداد طلب الاسلحة في طرابلس بعد الغزو الايطالي، لذلك نجد في عام ١٩٢٠ عدد الأسلحة كما يلي: في منطقة الجبل والقبلة، الرجبان والزنتان لديهم ٢,٥٠٠، الصيعان ٥,٠٠٠، الحرابة ٥,٠٠٠ بندقية[٢٣]. بعد هزيمة المقاومة ضد الطليان في عام ١٩٣٢ قدرت السلطات الاستعمارية السلاح المصادر من القبائل المقاومة بـ ٧٠,٠٠٠ بندقية: ٤٠,٠٠٠ من طرابلس، ١٠,٠٠٠ من منطقة

---

(٢١) انظر: P. Shinar, «Notes on the Socio-Economic and Cultural Role of the Sufi Brotherhoods and Maraboutism in the Modern Maghreb,» paper presented at: Proceedings of International Congress of Africanists, 1, 1962, pp. 272-285.

(٢٢) Great Britain, Naval Intelligence, *A Handbook of Libya* (London: H. M. Stationary Office, 1928), pp. 46-51.

(٢٣) Rodolfo Graziani, *Verso El-Fezzan,* trans. by Taha Fawzi (Tripoli: Maktabat al Firjani, 1973), p. 85.

القبلة وفزان، و ۲۰,۰۰۰ من برقة. أما عدد الذين ساهموا في مقاومة الطليان فقدر بنحو ۱٦۰,۰۰۰ شخص[٢٤].

لو قارنا قوة هذه القبائل المسلحة التي قاومت الغزو الايطالي بين عامي ۱۹۱۱ - ۱۹۳۲ بالعدد المتواضع للقوة العثمانية في ولاية طرابلس الغرب لاتضح مدى قوة المجتمع الأهلي وضعف الدولة المركزية. كان الوجود العسكري العثماني في ولاية طرابلس الغرب قليلاً ومحدوداً في المدن الساحلية وبعض واحات الدواخل. كانت القوة العسكرية في بنغازي ۱,۱۰۰ جندي سنة ۱۸۸۱ و۳,٥۰۰ سنة ۱۸۹۰[٢٥]، وكان العدد الاجمالي للقوة العسكرية العثمانية في الولاية سنة ۱۸۹۰ كالآتي: ٤,۰۰۰ في برقة، ۳۰۰ في فزان و۲۰,۰۰۰ في طرابلس. أما القوات الرديفة من كولوغلية أو قبلية مرتبطة بالحكم العثماني فلم تزد على ۳,۰۰۰[٢٦]. كانت هذه القوة المتواضعة العدد قد تناقصت سنة ۱۹۱۱ بسبب انتفاضة في اليمن ضد الحكم العثماني إذ تطلبت سحب جزء من القوات العثمانية في ليبيا وارسالها الى اليمن، لذلك لم يبق في ليبيا سوى ۳,۰۰۰ جندي عثماني في مواجهة الجيش الايطالي الحديث بعدد ٤۰,۰۰۰ جندي مدعم بسفن حربية وحتى بطائرات استخدمت لأول مرة في القرن العشرين[٢٧].

ذكرنا أن القبائل سيطرت على دواخل الولاية في القرن التاسع عشر وحافظت على استقلالها من خلال تحالفات قبلية تسمى الصفوف. هذه الصفوف ظهرت كأحلاف قبلية وفلاحية في مواجهة الغزو الخارجي، اما من قبل الدولة العثمانية أو قبائل معادية أو غازية. أهم هذه الصفوف القبلية في القرن التاسع عشر في منطقة طرابلس، جنوب تونس وفزان: صف يوسف وشداد في جنوب تونس وغرب طرابلس، صف البحر والصف الفوقي في شرق وشمال طرابلس، القبلة وفزان[٢٨].

عبّر صف يوسف عن تحالف قبائل الجنوب التونسي وعرب طرابلس وخصوصاً ورغمة والمحاميد الغربيين. هذا الصف أو التحالف القبلي كان ينافسه صف شداد الذي ضم قبائل المحاميد الشرقيين، النوايل والصيعان. كما ذكرنا، يبرز التحالف القبلي داخل الصف في فترات الصراع والحروب إما في مواجهة حملة الدولة المركزية أو صف خصم أو غازي. عندما

---

(٢٤) Rodolfo Graziani, *Cirenica Pacificata,* trans. by Ibrahim B. Amir (Benghazi: Dar Al-Andalus, 1974), p. 124, and Humphrey J Fisher and Virginia R. Fisher, «Fire Arms in Central Sudan,» *Journal of African History,* vol. 12, no. 2 (1971), pp. 215-239.

(٢٥) Michel F. Le Gall, «Pashas, Bedouins and Notables: Ottoman Administration in Tripolitania and Benghazi, 1881-1902,» (Ph. D. Dissertation, History, Princeton University, 1986), p. 186.

(٢٦) Great Britain, FO, Report of Consul J. R. Hay, 160/4, December 1839.

(٢٧) Great Britain, FO, Report of Consul A. Dickson, 12 Octobur 1911.

(٢٨) Enrico Di Agostini, *Le Populazioni Della Tripolitania: Notizle, Ethniche e Storiche* (Tripoli: Uffico Politicio Militare, 1917), p. xix, and E.G. H. Joffe, «Social and Political Structure,» in: *Social and Economic Development of Libya*, pp. 23-24.

قاد الشيخ غومة المحمودي صف المحاميد ضد الدولة العثمانية التي أعلنت نيتها لفرض الحكم المباشر على الجبل الغربي بين عامي ١٨٣٥ ـ ١٨٥٨، عبأ الشيخ غومة فلاحي وقبائل الجبل (عرب وبربر) بالاضافة الى ورغمة في الجنوب التونسي ضد الجيش العثماني. وقفت ورغمة وقبائل الجنوب التونسي مع حلفائهم المحاميد في الجبل فقدموا لهم المساعدة في القتال وفي إيجاد ملجأ للهروب. لذلك بعد هزيمة انتفاضة الجبل وقتل الشيخ غومة هاجر ٨٠,٠٠٠ شخص من القبائل التي شاركت في الانتفاضة الى جنوب تونس في عام ١٨٥٨[٢٩]. بالمقابل عندما هزم الجيش الاستعماري الفرنسي انتفاضة قبائل الجنوب التونسي بقيادة علي بن غداهم، لجأ الأخير و١٠٠,٠٠٠ من أتباعه الى طرابلس[٣٠].

سيطر المحاميد على منطقة الجبل الغربي من خلال صف يوسف في مواجهة صف الدولة المركزية وصف شداد في تونس الساحلية وكذلك في مواجهة صف البحر في طرابلس الساحلية. ويوازي صف يوسف في منطقة سرت والجفرة الصف الفوقي بقيادة قبائل أولاد سليمان، القبيلة القوية التي سيطرت على المنطقة الوسطى في سرت والجفرة وشرق فزان خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. البيت القائد لقبائل أولاد سليمان هو عائلة سيف النصر، كما هي عائلة نوير بالنسبة الى قبائل المحاميد. لقد حافظ أولاد سليمان على الاستقلال السياسي لمناطقهم، لذلك في حالة ضعف الدولة المركزية أو محاولتها ضرب الاستقلال السياسي لهذه القبائل نجد رد فعل مقاوم من قبلهم.

ساعد ضعف الدولة القره مانلية الشيخ غومة وشيخ قبائل أولاد سليمان عبد الجليل سيف النصر على تدعيم استقلالهم ومركزهم الإداري. قتل الوالي الطموح يوسف باشا القره مانلي شيخ أولاد سليمان سيف النصر، لكن تعرض أولاده وخصوصاً عبد الجليل لمحاولة احتواء هذه القبيلة العنيدة. لذلك عين يوسف باشا عبدالجليل سيف النصر الذي تربى في قصر يوسف باشا، كوالٍ لفزان في عام ١٨٢٠. وعندما بدأت الدولة القره مانلية في التصدع نتيجة الديون الخارجية والصراع حول العرش داخل الأسرة استقل عبدالجليل بحكم فزان مدعماً بحلفائه في الصف الفوقي: أولاد سليمان، ورفلة، وقذاذفة، وسكان ودان وهون في الجفرة[٣١].

نظمت الدولة المركزية في تونس وطرابلس صفوفاً موالية لها لعدم وجود جيش كبير

---

(٢٩) انظر: United States National Archives (USNA), 6/61, «McCartey to Webster,» 6 July 1843.

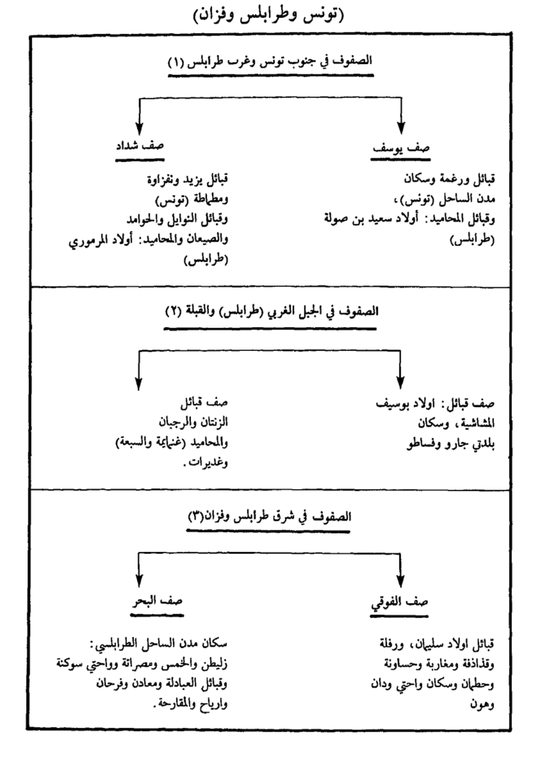
(٣٠) Great Britain, Public Record Office (PRO), FO 195, 1375, «Drumond Hay to Dufferin,» 5 June 1881.

حارب كثير من رجال القبائل التونسيين مع اخوانهم الليبيين ضد الجيش الايطالي عندما هاجمت ايطاليا ليبيا في عام ١٩١١. للاطلاع على التفاصيل، انظر: محمد المرزوقي، دماء على الحدود: ثورة ١٩١٥، معارك وابطال؛ ٣ (تونس؛ طرابلس: الدار العربية للكتاب، ١٩٧٥)، ص ٢٧ و٤٩ ـ ٨٠.

(٣١) Di Agostini, *Le Populazioni Della Tripolitania: Notizle, Ethniche e Storiche*, p. xx, and Caunelle, «Le Semi-nomadisme dans l'ouest libyen: Fezzan, Tripolitaine,» p. 106.

جدول رقم (٣ - ١)

حركة الصفوف القبلية في القرن التاسع عشر
(تونس وطرابلس وفزان)



للدولة مثل صف شداد في تونس وصف البحر في طرابلس، الذي ضمّ سكان مدن المنشية والساحل مثل الخمس وزليطن ومصراتة وتاجوراء وقبائل أولاد سالم والعبادلة ومعادن وفرجان بالإضافة إلى قبائل أرياح من سوكنة ومقارحة وادي الشاطىء وسكان واحتي سوكنة وزلة خصوم أولاد سليمان(٣٢). بعبارة أخرى، وجدت القبائل المتحالفة مع السلطة المركزية والتي دفعت ضرائب للدولة أو اعفيت مقابل التحالف، نفسها مرتبطة بالسلطة المركزية في تونس وطرابلس، ولكن الخلاف الأساسي بين انتفاضة الشيخ غومة المحمودي والشيخ عبدالجليل سيف النصر يكمن في رغبة غومة في الحفاظ على إعفاء المحاميد من بعض الضرائب كأكبر قبيلة في منطقة الجبل الغربي، بينما دوافع الشيخ عبد الجليل سيف النصر كانت أكثر طموحاً لبناء دولة محلية في منطقة الجفرة وفزان(٣٣).

سادساً: انتفاضة عبد الجليل سيف النصر في فزان (١٨٣٠ ـ ١٨٤٢)

أسلفنا بأن فزان كانت مرتبطة بالاقتصاد الاقليمي لبلاد السودان وبالذات الممالك الإسلامية أو ما يعرف الآن بتشاد والنيجر ونيجيريا ومالي. هذا الموقع الاستراتيجي لفزان، بين بلاد السودان وساحل البحر المتوسط، جعل الاقليم سوقاً تجارية لتجارة القوافل خصوصاً أن أهم طريقين لهذه التجارة مرّا بفزان، الأول طرابلس وغدامس وغات، والثاني طرابلس وسوكنة ومرزق وبلاد السودان. كانت واحات فزان وغدامس وغات وخصوصاً عاصمة الاقليم مرزق موانىء صحراوية وأسواقاً لتجارة القوافل عبر الصحراء. هذه التجارة ربطت غرب افريقيا بمنطقة البحر المتوسط وأوروبا. خلاصة القول، ارتبط إقتصاد اقليم فزان بازدهار أو تردي هذه التجارة. كلما ازدهرت التجارة وجاء التجار من بلاد السودان وأوروبا وشمال افريقيا الى فزان، ازدهر الاقتصاد، فقد جنى التجار أرباحاً كبيرة والقبائل التجارية وجدت فرصة للعمل كمرشدين ومؤجري جمال وحراس وأعطيات. أما في حالات انقطاع التجارة لأسباب الحرب أو التقيد في السلع الاستهلاكية، فالنتيجة كساد إقتصادي. هذا لا يعني عدم أهمية الزراعة، والموات في فزان زوّد ليبيا بمعظم حاجاتها من التمور لوجود مليوني نخلة في وادي الآجال والشاطىء والجفرة(٣٤). ولكن أرباح التجارة في حالة سلامتها كانت بلا شك أكبر بكثير من الزراعة.

زوّدت واحات فزان ونخيلها العديد من قبائل جنوب طرابلس والقبلة بحاجاتها من التمور مثل قبائل الزنتان وأولاد بوسيف وأولاد سليمان والمغاربة في وادي الشاطىء والجفرة.

---

(٣٢) Di Agostini, Ibid., p. xix, and Caunelle, Ibid.

(٣٣) انظر: Adu A. Boahen, *Britain, the Sahara and the Western Sudan* (Oxford: Clarendon Press, 1964), p. 137.

كذلك انظر: E. Subtil, «Histoire de Abdel-Gelil, Sultan du Fezzan, assassiné, 1542,» *Revue de l'orient*, no. 5 (1844).

(٣٤) عبد القادر حامي، من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى، ترجمه من التركية محمد الاسطى (طرابلس: دار المصراتي، ١٩٧٣)، ص ٨٧.

أغـريت هذه القبـائل للمجيء الى الـواحات للمقـايضة أو في أوقـات المجاعـة لغزو فـلاحي الواحات وفي أحيان أخرى ملكت بعض القبائل سواني النخيل التي يرويها عبيد لهذه القبـائل كما نجد عند قبائل أولاد سليمان(٣٥). سيطر على جنـوب غربي فـزان قبائـل الطوارق والتبـو. والطوارق لهم نظام اجتماعي معقد في قمتـه الطبقـة الارستقراطيـة المحاربـة، ثم يأتي بعـدها الحراثون الحرفيون واخيراً العبيد. التبو موطنهم الأصلي منطقـة تيبستي ويعتمدون عـلى الرعي أساساً. خـلاصة القـول إن القبائـل المسلمة الكبـيرة كأولاد سليـمان والطوارق ارغمـوا تجار القوافل على اعطاء أعطيات لهم مقابل الحماية وسلامة المرور، بينما وجـدت القبائـل الصغيرة كالحساونة والجماعات وإرباح فرصة للعمل كمرشـدين ومؤجري جمـال للقوافـل(٣٦). ولكن في عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر حاول شيخ قبـائل أولاد سليـمان عبد الجليـل سيف النصر من خلال الصف الفوقي بناء دولة في اقليم فـزان. هذه المحـاولة تتـطلب تحليلاً لأهم ملامحها.

دعمت أزمة الخلافة داخل الأسرة القره مانليـة سلطة الشيخ عبـد الجليل سيف النصر والي فزان. بدأ هذا الشيخ الـطموح في تـوطيد تحـالفاتـه مع سـلاطين وأمـراء بلاد السـودان فتزوج من أخت سلطان بورنو وزوج اثنتين من اخـواته لأمـراء في بورنـو وأختاً ثـالثة لسلطان المغرب. هذه الزيجات السياسية دعمت عبد الجليل بحلفاء مهمين. كـذلك بـدأ الشيخ عبـد الجليل بالاتصال بالحكومة الفرنسية التي أبدت الاهتمام بعرض الشيخ تمويل تجارة قوافل فزان إلى الجزائر الفرنسية مقابل دعم الحكومة. أرسلت الحكـومة الفـرنسية منـدوباً فـرنسياً يـدعى سوتيل. زار فزان وترك لنا وصفاً مهماً لشخصية الشيخ. حاول الشيخ كذلك الاتصال بمحمد علي باشا حاكم مصر ذلك الوقت ولكن هذه الاتصالات لم تؤد الى تحالف بين الاثنين.

ليست محاولة الشيـخ عبدالجليـل سيف النصر لبناء دولـة بالجـديدة، فلقـد قامت دول عديدة في الصحراء والشمال الافريقي وخصوصاً في فزان. لقد حكمت أسرة أولاد محمد فزان مدة قرنين ونصف حتى هزمت من قبل الحملة العسكريـة القره مـانلية في عـام ١٨١٢. نحن نحلل محاولة الشيخ عبدالجليل بناء دولة في فزان كاستمرارية لحكم أولاد محمد. لذلك نجـده يحيي تحـالفات شبيهـة بتحالفـات أولاد محمد مـع سلاطـين بلاد السـودان. كذلـك وجـد في الحكومة الفرنسية بعض الاهتمام لمواجهة المنافسة الانكليزية في الصحراء الكبرى، بل نرى أن محاولة الشيـخ عبد الجليـل توفـرت لها شروط النجـاح في اقليم صحراوي بعيـد عن السلطة المركزيـة: تحالف قبـلي قوي داخـلي وتحالف خـارجي في بلاد السـودان. ولكن من سوء حظ الشيخ عبدالجليل نجاح مؤامرة اغتياله بعد تعاونه مع بعض حلفائه مع طرابلس. ولكن حتى لو افترضنا نجاتـه من مؤامرة الاغتيـال فلا مجـال من مواجهـة الجيش العثماني بغـزو الولايـة.

---

(٣٥) J. Lethielleux, *Le Fezzan: Ses jardins, ses palmiers; notes d'ethnographie et d'histoire*, publications de l'institut des belles lettres arabes; 12 (Tunis: Imprimerie Bascone, 1948), pp. 45-46.

(٣٦) MDJL, Soc. Doc. 99, «A Report from the Governor of Fezzan,» pp. 2-5.

فالحكومة العثمانية اتخذت قراراً بتدعيم الحكم العثماني المباشر في ولاية طرابلس الغرب، وإنهاء حكم الأسرة القره مانلية والقبائل القوية في الدواخل.

القاعدة الاجتماعية لحركة الشيخ عبد الجليل هي التحالف القبلي الفلاحي الذي عرف بالصف الفوقي. هذا الصف ضمّ بالاضافة الى عشائر أولاد سليمان قبائل ورفلة والقذاذفة والمغاربة وسكان واحتي ودان وهون. بدأ عبد الجليل، كحاكم لاقليم فزان من قبل الأسرة القره مانلية، في المطالبة بالاستقلال الذاتي عن طرابلس خلال أزمة الخلافة في عام ١٨٣٢. ولكنه طالب بتخفيض ضرائب فزان لطرابلس وحقه في تصدير تجارة القوافل عبر منطقة سرت، الموطن الأصلي لقبائل أولاد سليمان[٣٧]. لذلك بدأت تحالفاته السياسية مع سلاطين بورنو والمغرب، واتصالاته مع محمد علي وفرنسا تؤكد عزمه على الاستقلال بالإقتصاد كبداية لاستقلاله بحكم الاقليم وإنشاء أسرة حاكمة شبيهة بأولاد محمد.

نجح الشيخ عبد الجليل في أن يصبح الحاكم الفعلي لفزان في مرحلة الاضطراب السياسي داخل الأسرة القره مانلية والحرب ضد الجيش العثماني التي بدأت في عام ١٨٣٥ واستمرت حتى عام ١٨٤٢، بل إن الشيخ زحف مع حلفائه وغومة المحمودي باتجاه مصراتة وطرابلس. كما طبع عملة باسمه «عبد الجليل سلطان فزان». هذه المرحلة مثلت قمة نجاح الشيخ في تدعيم استقلاله في إقليم فزان.

اتبعت السلطات العثمانية في طرابلس سياسة الوعود المادية والسياسية للشيوخ والرؤساء كغومة وعبد الجليل وعثمان الأدغم وعبد الهادي المريض لإلقاء السلاح وإعلان الطاعة للدولة العثمانية. أفلحت هذه السياسة في استقطاب الشيخ عبد الهادي المريض من ترهونة حليف عبد الجليل. واستطاع الجيش العثماني من خلال تعاون الشيخ عبد الهادي المريض من مفاجأة عبد الجليل واغتياله في منطقة البغلة وهزيمة الصف الفوقي في عام ١٨٤٢. انفرط عقد الصف الفوقي وأفلح ابن عبد الجليل في الانسحاب مع ١,٠٠٠ محارب إلى فزان، ومنها إلى تشاد في حمى حلفائهم في منطقة كانم. اختار أولاد سليمان كانم لأنها أيضاً شبيهة بمنطقة سرت[٣٨]. أدت هزيمة أولاد سليمان إلى بروز خصومهم من القبائل الأخرى في فزان وخصوصاً المقارحة وأرياح لارتباط هؤلاء بالحكومة العثمانية[٣٩].

ليست قبائل الصف الفوقي، ووادي الشاطىء هي القوة الاجتماعية الوحيدة في فزان،

---

(٣٧) Subtil, «Histoire de Abdel-Gelil, Sultan du Fezzan, assassiné, 1542,» pp. 9-10; USNA, «McCaulley to Secretary of State,» 5 May 1942, and Boahen, *Britain, the Sahara and the Western Sudan*, pp. 134 and 136.

(٣٨) أغار أولاد سليمان على القبائل الأخرى في كانم في أغلب الأحيان اكثر من إغارتهم في ليبيا، وكان هذا بسبب عدم وجود سلطة قوية في منطقة الحدود. انظر:

Gustav Nachtigal, *Sahara and Sudan*, Translated from the Original German, with New Introduction and Notes by Allan G. B. Fisher and Humphrey J. Fisher with Rex S. O'Fahey (NewYork: Barnes and Noble, 1974), vol. 1: *Tripoli and Fezzan*, p. 338.

(٣٩) Caunelle, «Le Nomadisme de Megarha (Fezzan)», p. 63.

فلقد لعبت التجارة والتجار دوراً هاماً أيضاً وخصوصاً التجار الغدامسية من واحة غدامس أحد المراكز الأساسية لتجارة القوافل. ألقت الوثائق التجارية لأسرة يوشع الغدامسية أضواء جديدة على دور هذه الفئه الاجتماعية. لقد وجدنا شبكة متطورة لأبناء هذه العائلات في ولاية طرابلس وتونس وبلاد السودان. على سبيل المثال في عام ١٨٨٠ وجد حوالى ٧٣ تاجراً غدامسياً مورعين كما يلي: ١٩ في كانو، ٤ في سكوتو، ٣ في زاريا، ٣ في نوب، ٤ في أدوما، ٣ في زندر و٣٧ في طرابلس وتونس[٤٠]. لذلك نجد سيطرة تجار الغدامسية على جزء كبير من تجارة الصحراء في فزان، طرابلس وبلاد السودان[٤١]. كما نجد المجابرة والزوية لعبوا دوراً مشابهاً في جنوب شرق ليبيا وبلاد السودان.

التجار والقبائل والفلاحون كما أسلفنا كانت لهم أدوار اقتصادية متداخلة في فزان. تجار القوافل من غدامس وسوكنة وجالو وطرابلس دفعوا أعطيات ونقوداً للقبائل الكبيرة مثل أولاد سليمان والطوارق، وكذلك للدولة في طرابلس أو فزان مقابل الحماية وسلامة المرور. التجار، كدلك كحالة الغدامسية، أجّروا مرشدين وجمال من القبائل مثل الحساونة والمقارحة في وادي الشاطىء بفزان.

أدى الفشل في الحصول على تعاون القبائل إلى غارات على قوافل التجارة ومن ثم إلى كوارث مالية للتجار كما حصل لقافلة التجار الغدامسية في منطقة غات، حيث أغار الطوارق واستولوا على حمولة ٢,٠٠٠ جمل[٤٢].

جعل الصراع بين القبائل حول المراعي والواحات وآبار المياه الحفاظ على أمن القوافل التجارية صعباً. أثناء انتفاضة الشيخ عبد الجليل سيف النصر هاجمت قبيلة المقارحة قافلة لقبيلة القذاذفة حلفاء عبد الجليل. وفي حالة أخرى أغار التهامة، أحد عشائر أولاد سليمان، على قطعان خصومهم الفرجان[٤٣]. قاد عبد الجليل نفسه غارة على واحتي سوكنة وغدوة الموالية للسلطات العثمانية[٤٤]. هذه الصراعات جعلت سلامة القوافل في خطر ولكن لا بد من الحذر في فهم هذه الصراعات. لقد تعاون القبائل والتجار والفلاحون في معظم الأحيان

---

(٤٠) Marion Johnson, «Calico Caravans: The Tripoli Kano Trade After 1880,» *Journal of African History,* no 17 (1976), p. 109.

(٤١) ارسلت عائلة يوشع التجارية ابناءها في نطاق تجارتهم عبر الصحراء الى غات، تمبكتو، السودان، طرابلس الغرب وتونس. انظر: وثيقة رقم ٣٠ في: يوشع، غدامس: وثائق تجارية، تاريخية، اجتماعية، ص ٨٢.

(٤٢) انظر وثيقة رقم ٤٧ في: المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(٤٣) انظر وثيقة رقم ٦٦ في: عبد السلام ادهم واحمد صدقي الدجاني، وثائق تاريخ ليبيا الحديث: الوثائق العثمانية، ١٨٨١ - ١٩١١ (بنغازي: مطبعة الجامعة، ١٩٧٤)، ص ١٨٢.

(٤٤) اخبر اهالي سوكنة الرحالة جيمس ريتشاردسون أن عبد الجليل قطع ٢٠,٠٠٠ نخلة. انظر: James Richardson, *Travels in the Great Desert of Sahara, in the Years of 1845 and 1846,* vol. II (London: Frank Cass and Co., 1970), p. 411,

انظر أيضاً وثيقة رقم ١٣٧ في: ادهم والدجاني، المصدر نفسه، ص ٢٣٢.

ولهم مصالح في التبادل الاقتصادي والتجاري. الغارات القبلية على الواحات والقبائل الأخرى عادة ما يكون دافعها المجاعة أو الصراع السياسي مع الدولة حول جمع الضرائب[٤٥]. لم تكن الدولة العثمانية تهتم أو لديها المصادر المالية والعسكرية لاحتلال إقليم فزان بأكمله. لذلك اقتصر وجودها في الواحات الأساسية مثل سوكنة وبراك ومرزق حيث حاولت استمالة سكان هذه المناطق وبالذات أرباح والمقارحة بإعفائهم من بعض الضرائب. وخارج هذه الواحات استمرت القبائل الأساسية مثل الطوارق والتبو في الحفاظ على استقلالهم الذاتي. بعد هزيمة أولاد سليمان برز دور قبائل الشاطىء وبالذات المقارحة والحساونة. أما في منطقة غات فلقد رفض الطوارق السلطة العثمانية حتى عام ١٨٧٩. في تلك السنة طلب الطوارق، لردع خطر التوسع الفرنسي في الصحراء من الدولة العثمانية إرسال قائمقام عثماني إلى غات[٤٦].

لعب الطوارق في جنوب غرب فزان دوراً قوياً يضارع دور أولاد سليمان، حيث لهم بناء احتماعي معقد يتكون من طبقة أرستقراطية للقياده بينما المحاربون والفقهاء والحرفيون والعبيد في أسفل السلم الاجتماعي[٤٧]. ولكن الطوارق يتميزون عن بقية القبائل الليبية لوجود النظام الأموي في الرئاسة والوراثة قبيل اعتناقهم الإسلام. وبعد أن اعتنقوا الإسلام احتفظوا ببعض هذه العلاقات. لذلك نجد النساء لا يتحجبن بعكس الرجال. كذلك نجد حبساً أو وقفاً خاصاً بالنساء يسمى حبس النساوين في منطقة غات[٤٨].

سابعاً: بناء الدولة العثمانية في طرابلس الغرب (١٨٣٥ ـ ١٩١١)

أسلفنا بأن الحكومة العثمانية قررت التدخل العسكري وإنهاء حكم الأسرة

---

(٤٥) MDJL, Doc 99 «Report of the Governor of Fezzan Muhammad Sami, 1911,» p. 4.

(٤٦) G A Krause, «Aufzeichnungen Uber Die Stadt Ghat in der Sahara,» *Zeitschrift der Gesellschaft fur Erdkunde*, no 17 (1882),

وقد ترجمه عماد عاسم إلى العربية لمجلة تراث الشعب (طرابلس) (نيسان/ ابريل ـ حزيران/ يونيو ١٩٨٢)، ص ١٣٧.

(٤٧) للاطلاع على التنظيم الطبقي للطوارق، انظر: Johannes Nicolaisen, *Ecology and Culture of the Pastoral Tuareg*, with Particular Reference to the Tuareg of Ahaggar and Ayr, National Museets Skrifter Etnografisk Roekke; IX (Copenhagen: National Museum, 1963), pp 10-12.

(٤٨) أورد عبد القادر جامي (جامي بك) الحاكم العثماني لغات في عام ١٩٠٠ بأن «الرجال خوفوا من قبل زوجاتهم، وهؤلاء المساكين ليس لديهم أية حرية. وكان ذلك سبب قوانين الارث التي تحصر حق الامتلاك بالنساء.» انظر: Abd Al-Qadir Jami (Jamey Bey), «Ghat and its Surroundings,» *Geographical Journal*, vol. 34, no 2 (1909), p. 173.

انظر ايضاً: Nicolaisen, Ibid., pp. 115-122 and 457; John Gulick, *The Middle East: An Anthropological Perspective*, Goodyear Regional Anthropology Series (Pacific Palisades, Calif.: Goodyear, 1976), p. 83; H.T. Norris, *The Tuaregs: Their Islamic Legacy and its Diffusion in the Sahel* (Warminster, England. Aris and Phillips, 1975), p. 607, and Lars Eldblom (interview), 22 June 1991, Potsdam, New York.

القره مانلية. ولكن فرض سلطة مركزية على الولاية يتعارض مع الاستقلال الذاتي للتحالفات القبلية الكبيرة وامتيازاتها خلال فترة الحكم القره مانلي وبالذات قبائل المحاميد وأولاد سليمان. لاحظنا كذلك تغييراً في طبيعة التكوين الاقتصادي والاجتماعي للطبقة الحاكمة في الحكومة العثمانية من المرحلة الريعية إلى بدايات التحولات الرأسمالية. وقد هدفت السلطة العثمانية الجديدة إلى تسجيل الأراضي بشكل فردي لدعم الملكية الخاصة وبغرض جمع الضرائب بشكل مباشر ونقدي وإلغاء النظام القديم المبني على المسؤولية الجماعية للقرية أو العيلة لدفع الضرائب بشكل عيني. كذلك ألغيت معظم الاستثناءات لبعض القبائل والأشراف والأعيان.

أدت السياسة الجديدة إلى صدام عنيف ودموي مع القبائل شبيه، في نظرنا، بالغزو الاستعماري الأوروبي في ما بعد. هدفت الحكومة العثمانية بعد هزيمة القبائل المستقلة إلى تأكيد سلطتها في الولايات من خلال وجود الشرطة والجيش وبناء الإدارة من محاكم ومدارس وأجهزة اتصال كما تبين ميزانية مصروفات الولاية في عام ١٨٨١[٤٩].

جدول رقم (٣ - ٢)

ميزانية إنفاق ولاية طرابلس الغرب (١٨٨١)

المصاريف	القيمة بالقروش
الأمن الداخلي	٩٩٨,٦٠٠
إدارة المالية	٤٦٨,٢٠٢
المحاكم الدينية	٩٩,٨٤٠
القضاء	٩٤٦,١٨٨
التعليم	٣١,٣٩٦
رواتب	٤٠٩,٢٣٦
التعقيم الطبي	١,٢٠٠
البريد	١٥٣,١٩٠
الجيش	٦,٦٨٥,١٤٠

المصدر: Abdallah A. Ibrahim, «Evolution of Government and Society in Tripolitania and Cyrenaica (Libya), 1835 - 1911,» (Ph. D. Dissertation, University of Utah, 1982).

(٤٩) Rifaat Ali Abou El-Haj, *The Nature of the State*, a manuscript.

أنشيء لأول مرة نظام بريدي وبرقي حديث في عام ١٨٦٧ . وبعد أن نجحت الدولة في السيطرة العسكرية على المنطقة الغربية ألغت كل الاستثناءات من الضرائب بما فيها استثناءات الكولوغلية مقابل خدماتهم العسكرية في عام ١٨٩٢[٥٠].

أدت هذه السياسة الجديدة إلى حنق وغضب بعض الأعيان ورؤساء القبائل، فكتبوا رسائل احتجاج إلى الحكومة العثمانية في اسطنبول، وعندما لم يجدوا آذاناً صاغية اتصلوا بالسلطات الإيطالية، كما حدث في حالة عائلة المنتصر ورئيس بلدية طرابلس حسونة القره مانلي حفيد علي باشا القره مانلي آخر باشوات الأسرة القره مانلية. بدأت الدولة العثمانية في الولاية في تنظيم شرطة وجيش معظم جنوده من السكان المحليين، لذلك نجد حوالى ١٢,٠٠٠ جندي عثماني في مدينة طرابلس في ١٨٨٠[٥١].

حاولت حكومة الولاية تطبيق النظام العثماني للأراضي الصادر في عام ١٨٥٨، عن طريق تشجيع شيوخ القبائل والأعيان بتسجيل الأراضي بشكل فردي في الطابو أو إدارة تسجيل الأراضي. ولكن الخوف التقليدي من ضرائب الدولة أدى إلى تردد العديد من الأهالي في تسجيل أراضيهم. ولكن تدهور تجارة القوافل وظهور فرص بيع أراضي للشركات الأوروبية واستغلالها أقنع العديد من الأعيان وشيوخ القبائل بفائدة تسجيل الأراضي بشكل فردي. هذه السياسة العثمانية الجديدة حققت بعض النجاح لو فحصنا جدول إيرادات الضرائب التي دفعت للدولة في عام ١٩٠٠[٥٢].

جدول رقم (٣ - ٣)

إيرادات الضرائب سنة ١٩٠٠

نوع الضريبة	القيمة بالليرة العثمانية
ضرائب على الحيوانات	١٠,٨٢٨
الأعشار على المنتجات الزراعية	٦٩,٠٠٠
ضرائب الميري	١٣,٢٠٠
المحاكم	٥,٠٠٠
أخريات	٧,٠٠٠
المجموع	١٠٥,٠٢٨

(٥٠) Le Gall, «Pashas, Bedouins and Notables: Ottoman Administration in Tripolitania and Benghazi, 1881-1902,» pp. 102-103, and Great Britain, Public Record Office (PRO), FO, pp. 101-191, «Jago to O'Conor, 21 December 1901.

(٥١) Le Gall, Ibid., p. 117.

(٥٢) الوثيقة رقم ٩٨ في: أدهم والدجاني، وثائق تاريخ ليبيا: الوثائق العثمانية، ١٨٨١ - ١٩١١، ص ١٦٣.

يشير جدول الضرائب إلى أن الدولة أنشأت محاكم وعينت أراضي ملكاً للدولة أو ميري. وهذا تطور جديد بالنسبة إلى تطبيق السياسة العثمانية في الولاية. جمع معظم هذه الضرائب من منطقة طرابلس وفزان. بل إن النظام البريدي والبرقي امتد ليربط مرزق بطرابلس في عام ١٩٠٠(٥٣).

تزامنت السياسة العثمانية الجديدة التي هدفت الى تدعيم السلطة المركزية مع تدهور تجارة القوافل عبر فزان عصب الاقتصاد في الولاية خصوصاً بعد عام ١٨٩٠. وكما أسلفنا، كان سبب تدهور التجارة عبر الصحراء الحروب في منطقة تشاد وبالذات نتيجة التوسع الفرنسي والإنكليزي في منطقة غرب افريقيا وتحويلها التجارة من الصحراء إلى موانىء غرب افريقيا.

كان مفتاح السيطرة على التجارة واستعمار غرب افريقيا اكتشاف نهر النيجر. لذلك تركزت الرحلات الاستكشافية في الصحراء وأدت الى وجود قناصل إنكليز في مرزق عام ١٨٤٣ وغدامس عام ١٨٤٩. وعندما اكتشف نهر النيجر انسحب القناصل الإنكليز من فزان(٥٤). كان الستار السياسي والأخلاقي لاكتشاف النيجر مراقبة تجارة الرقيق. ولكن هذه التجارة بولغ فيها خصوصاً في القرن التاسع عشر.

كتب القنصل الإنكليزي في مرزق ماليوفي في عام ١٨٤٣ «جاءت قافلة عبيد من بورنو إلى مرزق وبها ٨٠٠ من الرقيق»(٥٥). ولكن القنصل الأمريكي (جيمس) في طرابلس كتب في عام ١٨٥٦ بأن تجارة الرقيق أصبحت ممنوعة في الولاية(٥٦). أخيراً ذكر القنصل الإنكليزي في طرابلس في عام ١٨٩١ «ليس هناك وجود الآن لتجارة الرقيق»(٥٧). نحن لا ننكر أهمية هذه التجارة في الماضي إلى ما قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر خصوصاً لو نظرنا الى وجود عدد كبير من السود في فزان اليوم. لكن بعضهم أبناء عبيد وآخرون نتيجة التزواج بين العرب، البربر والسود.

يعكس عدد سكان فزان بين عامي ١٧٨٩ و١٩٠٠ هذه التفاعلات الاجتماعية. ولا نملك إحصاءات دقيقة عن عدد السكان ولكن تقديرات عامة. وقد قدر الرحالة هورنمان تعداد سكان فزان بحوالى ٧٥,٠٠٠ في عام ١٧٨٩، ولكن نشتجال قدره بحوالى ٥٠,٠٠٠ في عام ١٨٦٩(٥٨). الديموغرافي الإيطالي دي أوغسطيني أعطى رقماً أقل ٣١,٦٠٠، منهم

---

(٥٣) الوثيقة رقم ١٠٢ في: المصدر نفسه، ص ١٦٩.

(٥٤) E.W. Bovill, *The Golden Trade of the Moors*, 2nd ed. Revised and with Additional Material by Robin Hallet (London: Oxford University Press, 1968), pp. 110-122.

(٥٥) Great Britain, PRO, FO, 160/12, 23, 29 October 1852.

(٥٦) USNA, 781, 10 June 1856.

(٥٧) Great Britain, PRO, FO, 160/ 24, 17 May 1891

(٥٨) F. Hornemann, «The Journal of F. Hornemann's Travels from Cairo to Marzuk in the Years 1797-1798,» in: E. W. Bovill, ed , *Missions to the Niger*, The Hakluyt Society, 2nd ser.; no. 123 and 128-130 (Cambridge: Hakluyt Society at the University Press, 1964-1966), p. 103, and Nachtigal, *Sahara and Sudan*, vol. I: *Tripoli and Fezzan*, p. 169.

٢٧,٤٠٠ مستعربين و٤,٢٠٠ رحل[٥٩]. ولكنه تجاهل القبائل الرحل غير المسجلة والمحاربة.

لو نظرنا إلى إحصاءات واحات فزان فسنلاحظ كذلك تناقصاً في التقديرات. كذلك تعداد غدامس الذي قدر بحوالى ١٢,٠٠٠ في عام ١٨٠٤ تناقص إلى ٦,٨٣١ في عام ١٩١١، وإلى ٣,٠٠٠ في عام ١٩٦٥؛ أما مرزق عاصمة الإقليم فتناقص عدد سكانها من ٥,٠٠٠ في عام ١٨٦٧ إلى ١,٠٠٠ في عام ١٩١١[٦٠]. هنا نرجح تدهور تجارة الصحراء عصب اقتصاد فزان كعامل أساسي أدى إلى انهيار الاقتصاد الفزاني بعد عام ١٨٨٠.

أكثر الفئات تضرراً من انهيار تجارة القوافل عبر الصحراء هم التجار الذين فقدوا تجارتهم. بعضهم عاد إلى واحاته ومدنه كجالو وسوكنة وطرابلس وغدامس، آخرون حولوا تجارتهم إلى فرع الكفرة وبنغازي في حمى الحركة السنوسية[٦١]. بعض الفلاحين والقبائل التجارية هاجروا إلى مدينة طرابلس وجنوب تونس التي شهدت انتعاشاً زراعياً تحت الحكم الاستعماري الفرنسي الذي شجع زراعة الزيتون في الجنوب التونسي أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين[٦٢]. لقد استفاد المهاجرون إلى منطقه طرابلس من فرص العمل في جمع الحلفا وكبسها[٦٣]. ولكن العمل في الجنوب التونسي استقطب العديد من الفزانيين والطرابلسيين، فقدر عددهم بحوالى ٢٠,٠٠٠ في عام ١٩٢٠[٦٤]. ليس هذا بالغريب، فلقد ارتبطت تونس وطرابلس الغرب ببعضهما اقتصادياً وسياسياً وديمغرافياً. وكوّن المهاجرون من فزان في تونس تجمعاً مميزاً، بل إن الغناء والرقص الفزاني أصبح مشهوراً في تونس. ويوضح تحليل العلاقات الاقتصادية الإقليمية لإقليمي تونس وطرابلس الغرب أهمية التحولات

---

(٥٩) Di Agostini, *Le Populazioni Della Tripolitania Notizle, Ethniche e Storiche,* pp. 350 and 364.

(٦٠) في ما يتعلق بتعداد غدامس، انظر: عماد غانم في. الفصول الأربعة (نيسان/ ابريل ١٩٧٩)، ص ٩٧. في ما يتعلق بمرزق وغات، انظر: Francesco Coro, *Stettantessei Anni Di Dominazione Turca in Libia, 1835-1911,* trans. by K. Al-Tillisi (Tripoli: Dar Al-Firjani, 1971), pp. 134 and 149, and Di Agostini, Ibid., p. 202.

الدراسة الأجدر عن التاريخ الاجتماعي لهذه الواحات هي. Lars Eldblom, *Structure foncière organisation et structure sociale* (Unickol-Lund, 1968)

(٦١) Nachtigal, *Sahara and Sudan,* vol. I: *Tripoli and Fezzan,* p. 122; Coro, Ibid., p. 134, and Ettori Rossi, *Storica Di Tripoli e Della Tripolitania Dallo Conquesta Araba al 1911,* trans. into Arabic by Khalifa Al - Tillisi (Beirut: Dar al-Thaqafa, 1974), p. 416.

(٦٢) Despois, «Géographie humaine,» pp. 182-183.

(٦٣) Robert Harrison, «Migrants in the City of Tripoli,» *Geographical Journal,* no. 57 (July 1967), p. 415, and

احمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال الايطالي أو طرابلس الغرب في آخر العهد العثماني الثاني، ١٨٨٢ - ١٩١١ (بنغازي: المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧١)، ص ٢٢٢، ٢٢٤ و٢٣٨.

(٦٤) Hilal, «Agriculture and Socio-Economic Change in the Region of Msillata, Tripolitania,» p. 124; Despois: Ibid., p. 182, and *Le Dejbel Nefousa (Tripolitaine): Etude géographique,* pp. 166-167

الاجتماعية خصوصاً التحول من اقتصادات الاكتفاء الذاتي والريعي إلى العمل الحر الأجير المبني على الزراعة الرأسمالية. ومن تم فإن دراسة الاقتصاد داخل إطار الدولة الوطنية التي برزت خلال المرحلة الاستعمارية أو دول الاستقلال لا تسعف في فهم هذه التحولات قبيل رسم الحدود المعاصرة. تتطلب هذه التحولات في علاقات الإنتاج الاهتمام ببدايات التكوينات الطبقية في البنية القبلية والفلاحية.

ثامناً: بدايات التكوين الطبقي في طرابلس الغرب

بدأ الاقتصاد الاكتفائي الريعي في بداية القرن العشرين في التغير إلى العلاقات الرأسمالية في بعض مناطق الولاية. كان هذا التحول نتيجة عوامل متعددة أهمها السياسة العثمانية الجديدة والرأسمال الأوروبي بالإضافة إلى انهيار تجارة القوافل عبر غرب طرابلس وفزان. وقد لاحظنا ظهور طبقات اجتماعية جديدة خصوصاً طبقة الأعيان في مدن المنطقة الغربية الذين برزوا كقضاة وإداريين ومدرسين وضباط في الجيش والإدارة العثمانية مقابل رواتب شهرية(٦٥). برزت طبقة الأعيان في أعلى السلم الاجتماعي، وأما في اسفله فلاحظنا ظهور طبقة فلاحية جديدة لاستقرار العديد من رجال القبائل العاديين في الأرض، كذلك بروز أول طبقة عاملة في الولاية حرة من الاقتصاد الجماعي الأبوي الاكتفائي(٦٦). نحن لا ندعي بأن هذه التكوينات الطبقية ظهرت بشكل شامل وفي كل أنحاء الولاية ولكنها محدودة في مناطق الساحل وبالذات حول طرابلس وفي الجنوب التونسي.

شجعت السياسة العثمانية الجديدة بعض قبائل الساحل ومنطقة ترهونة وسلاتة على نبذ الاقتصاد الرعوي والاستقرار على الأرض كفلاحين كما هي حالة قبائل رشفانة في منطقة جنزورو العزيزية(٦٧). ولكن قبائل القبلة وسرت مثل أولاد بوسيف والمقارحة والمشاشية والحرابة وأرياح والقذاذفة، وأولاد سليمان استمرت في ممارسة الاقتصاد الرعوي/الزراعي كشبه رحل. هذه القبائل شبه الرحل قدرت على تفادي الحكومة العثمانية لأنها مسلحة وسريعة التنقل، وبالتالي انسحبت في دواخل الصحراء كلما زاد ضغط الدولة العثمانية.

دليل آخر على التحولات الاجتماعية في المنطقة الغربية هو زيادة المدن والمراكز الحضرية

---

(٦٥) Le Gall, «Pashas, Bedouins and Notables: Ottoman Administration in Tripolitania and Benghazi, 1881-1902,» p. 93.

(٦٦) انظر: Kent Post, «Peasantization and Rural Political Movements in West Africa,» *Archives européennes de sociologie,* vol. 8, no. 2 (1972), p. 229.

(٦٧) Keith S. McLachlan, «The Role of Indigenous Farming in the Agrarian Structure of Tripolitania in the 19th and 20th Centuries,» in. M. M. Buru, S. M. Ghanem and Keith. S. McLachlan, *Planning and Development in Modern Libya* (Wishbech, Cambridgeshire, England: Middle East and North Africa Studies Press Ltd., 1985), pp. 34-35; Jean Despois, «Types of Native Life in Tripolitania,» *Geographical Review,* no. 35 (1945), pp. 356-357, and Le Gall, Ibid., p. 92.

في الولاية نتيجة الهجرة من الدواخل والأرياف الى المدينة. لو نظرنا إلى تعداد مدن الساحل الطرابلسي بين عامي ١٨٨٣ - ١٩١١ لوجدنا[٦٨]:

جدول رقم (٣ - ٤)

تعداد مدن الساحل الطرابلسي بين ١٨٨٣ - ١٩١١

اسم المدينة	١٨٨٣	١٩١١
طرابلس	٢٠,٠٠٠	٣٩,٠٢٩
الزوّاية	٨,٠٠٠	٣٨,٠٤٢
العزيزية	٩,٠٠٠	٢٦,٨٩٩
زليطن	٢٠,٠٠٠	٢٨,٨٤٢
مصراته	٢٠,٠٠٠	٢٩,٦٦٤

بدأت طرابلس، أهم مركز حضري وعاصمة الولاية، في فرض هيمنة اقتصادية وسياسية على أطراف الولاية كما في مدن المشرق العربي: القاهرة، بيروت، دمشق، ونابلس. أصبحت طرابلس أكبر مركز تجاري في الولاية واستحوذت على أغلب الفائض الزراعي والرعوي في الأطراف. القبائل والحرفيون والفلاحون وجدوا في الاستقرار النسبي بعد فرض السلطة العثمانية ضماناً للجوء الى أسواق طرابلس. وقد لعب التجار الرحل اليهود دوراً بارزاً في التنقل بين طرابلس وقرى الأطراف في الدواخل[٦٩]. ونمت بعض المدن الساحلية كزليطن والخمس والزوّاية كموانيء تصدير لتجارة الحلفا إلى إنكلترا في نهاية القرن التاسع عشر[٧٠].

لكن طرابلس أصبحت، كما في الماضي، أهم مدن الولاية، ليس فقط بسبب سياسة بناء الدولة المركزية في الولاية، ولكن أيضاً بسبب الاستثمارات الرأسمالية الأوروبية. بدأت مدينة طرابلس في النمو كمدينة تجارية حديثة في عام ١٨٨٥، حيث نجد ٢٠ مخبزاً، ٢٢ طاحونة حبوب، ١,٠١٩ محلاً تجارياً، ٤٠ مخزناً للبيع بالجملة، و٢٠ شركة تجارية منها ١٩ إنكليزية و١١ مالطية.

---

(٦٨) Le Gall, Ibid , p. 93.

(٦٩) Goldberg and Rosen, «The Itinerant Jewish Peddlers in Tripolitania at the End of the Ottoman Period and Under Italian Rule,»: in Michel Abitbol, ed., *Communautes juives des marges sahariennes du Maghreb* (Jerusalem: [s.n.] 1982), pp. 305-310.

(٧٠) الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال الايطالي أو طرابلس الغرب في آخر العهد العثماني الثاني، ١٨٨٢ - ١٩١١، ص ٢٦٢.

وجد تجار الساحل في الأمن المفروض من قبل الدولة العثمانية مناخاً مشجعاً على ممارسة التجارة: كمستثمرين ومرابين (اليهود) أو شركاء مع شركات إنكليزية ومالطية وإيطالية[٧١]. بل إن بعض التجار المحليين وخصوصاً اليهود كانوا يحملون جنسيات أوروبية بالإضافة إلى الجنسية العثمانية لتسهيل وحماية مصالحهم[٧٢]. لقد حصلت الدول الأوروبية على هذه الامتيازات لرعاياها في فترة ضعف الامبراطورية. فوجود التجار المحليين وقبول الجنسيات الإنكليزية والفرنسية أو الإيطالية مثلاً يعني معاملة خاصة فرضتها هذه الدول من خلال معاهدات مع الدولة العثمانية[٧٣]. من أهم التجار اليهود الذين حملوا جنسيات أوروبية وعثمانية عائلة أربيب التجارية الطرابلسية والذين كانوا يحملون الجنسيتين الإنكليزية والإيطالية. تاجرت عائلة أربيب بالمواد الغذائية والملابس والعطور. وقد حملت عائلات يهودية أخرى مثل ناحوم ولافي وحنانا الجنسية الإيطالية وتاجروا بالقطن والحلفا والسمن أما عائلات دباش ولابس وبرانس وسرور فقد حملوا الجنسية الفرنسية وتاجروا بالصابون والملابس والقطن والعطور[٧٤]. بعض العائلات التجارية المسلمة أيضاً استفادت من فرص التجارة وخصوصاً استثمارات بنك روما الإيطالي مثل عائلة المنتصر بن مصراته والأزمرلي من طرابلس ومصطفى بن قدارة من زليطن. هؤلاء الأعيان التجار بحكم علاقتهم التجارية مع بنك روما تعاطفوا مع السياسة الإيطالية في الولاية[٧٥]. سنطلق على هذه الفئة الاجتماعية التجار الكمبرادور لأنهم لعبوا دوراً وسيطاً بين الشركات والبنوك الأوروبية والاقتصاد المحلي.

استفاد من السيطرة العسكرية العثمانية وتشجيع تسجيل الأراضي بشكل فردي شيوخ القبائل والأعيان التجار لأنهم سجلوا الأراضي القبلية بأسمائهم أو اشتروا الأراضي الميري من الدولة. واستفادت الإدارة العسكرية العثمانية من هذه التغييرات وبالذات في ما يتعلق بموارد دخل الدولة من الضرائب والغرامات كما يوضح جدول رقم (٣ ـ ٥).

---

(٧١) في ما يتعلق بدور التجار اليهود، انظر: Rachel Simon «*The* Socio-Economic Role of the Tripolitanian Jews in the Late Ottoman Period,» in: Abitbol, ed., Ibid., pp. 321-328.

في ما يتعلق بدور التجار المالطيين، انظر: E.G.H. Joffe, «British Malta and the Qaramanli Dynasty, 1800-1835,» *Revue d'histoire maghrebine,* vol 12, nos. 37-38 (juin 1985).

(٧٢) للاطلاع على نشوء هذه الحماية الاوروبية، انظر: Edward Rae, *The Country of the Moors; a Journey from Tripoli in Barbary to the City of Kairwân* (London: John Murray, 1877), pp. 54 and 78.

(٧٣) Anthony Cachia, *Libya Under the Second Ottoman Occupation, 1835-1911* (Tripoli: Government Press, 1945), p. 1021, and

ادهم والدجاني، وثائق تاريخ ليبيا الحديث: الوثائق العثمانية، ١٨٨١ ـ ١٩١١، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٨.

(٧٤) Simon, «The Socio-Economic Role of the Tripolitanian Jews in the Late Ottoman Period,» pp. 323-327.

(٧٥) الطاهر أحمد الزاوي، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ط ٢ (بيروت: دار الفتح للطباعة والنشر، ١٩٧٠)، ص ٣٤.

جدول رقم (٣ ـ ٥)
ميزانية مصادر ولاية طرابلس الغرب
(١٨٨١ ـ ١٩٠٦) (قروش عثمانية)

نوع الضريبة	١٨٨١	١٩٠٦
حيوانات	١٥٠,٠٢٥	٤٧٨,٤٢٨
الإنتاج	٥٠٠,٠٠٠	١١,٢٩١,٨٥٨
الجيش	٤٣,٣٥٠	٢٤١,٧٤٨
الأراضي		٥,١٠٤,٠٨٨
الأرباح		٧٩,٧٧٠
أرباح أملاك الدولة		١٤,٠٠٠
المحاكم		١٤٧,٨٧٤

يتضح من جدول رقم (٣ ـ ٥) تأثير السياسة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر، ففي عام ١٨٨١ كانت إيرادات الدولة محدودة وقليلة، بينما نجد أن الدول بدأت في جمع إيرادات الضرائب على الحيوانات والإنتاج الزراعي والجيش وعلى اليهود والمالطيين. كذلك نلاحظ نجاح سياسة تسجيل الأراضي، والدليل الضرائب المدفوعة بشكل فردي في عام ١٩٠٦ من الملاك. فقد بدأت المحاكم المنشأة حديثاً في جمع الغرامات وتكاليف تسجيل الأراضي والأراضي الميري المملوكة من الدولة. وجمعت ضرائب الإنتاج الجديدة بشكل فعال بعد إنشاء نظام البلديات وخصوصاً في مدينة طرابلس، مثلاً وصلت قيمة ضريبة الإنتاج في بلدية طرابلس إلى ٥٠٠,٠٠٠ قرش عثماني، بينما كانت ٨٠,٠٠٠ في مدينة بنغازي في عام ١٩٠٦[٧٦]. هذا التباين في إيرادات الضرائب يوضح نمو طرابلس الاقتصادي ـ السياسي وهامشية مدينة بنغازي مركز الإدارة العثمانية في برقة.

تاسعاً: طبقة الأعيان

بعد الهزيمة العسكرية لقبائل الجبل توطدت جوانب التعاون بين الأعيان وشيوخ القبائل والدولة العثمانية في معظم الأوقات. ليس غريباً إذن أن نجد العلماء والكولوغلية وبعض شيوخ القبائل قد تعاونوا وانضموا إلى البيروقراطية الإدارية لولاية طرابلس الغرب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. سنسمي هذه الطبقة طبقة الأعيان

(٧٦) Le Gall, «Pashas, Bedouins and Notables: Ottoman Administration in Tripolitania and Benghazi, 1881-1902,» p. 207, and

بلدية طرابلس خلال ١٨٧٠ ـ ١٩٧٠ (طرابلس: ادارة الآثار، ١٩٧٢).

لأنها برزت كقوة اجتماعية وسياسية ذات مصالح مشتركة في الإدارة العثمانية الجديدة إذ إن العديد من الأعيان في البداية لم يرضوا بإلغاء اعفاءاتهم من دفع الضرائب كالشيوخ والكولوغلية في عام ١٨٩٢ . وكان الأعيان هم أكثر الأهالي تعليماً وثروة وجاهاً. والدولة العثمانية من أجل حماية آخر ولاياتها في الشمال الافريقي وبوابتها الى افريقيا المسلمة نظرت إلى الأعيان كحلفاء أساسيين في عملية بناء الإدارة المركزية في الولاية. ولقد وجد الأعيان بدورهم في الإدارة الجديدة فرصة للمحافظة على المصالح الاجتماعية والاقتصادية في بيروقراطية الإدارة الجديدة.

تعدّدت أصول طبقة الأعيان فهي، إما دينية كفئة العلماء، أو عسكرية وأرستقراطية كفئة الكولوغلية، وأرستقراطية قبلية كشيوخ القبائل. وكان علماء الأعيان أكثر الأهالي تعليماً. هذه الأسر اعتادت على إرسال أبنائها إلى جامعات الأزهر في مصر والزيتونة في تونس(٧٧). لذلك كانوا مؤهلين للعمل في الإدارة العثمانية كعلماء إفتاء وقضاة وإداريين في المحاكم الشرعية ومعلمين في المدارس والكتاتيب وأئمة وشيوخ مساجد. ومن أهم العائلات العلمية في القرن التاسع عشر: عائلة البشتي في الزاوية، والباروني في الجبل الغربي، وباكير والعالم والنائب في مدينة طرابلس(٧٨).

النوع الثاني لطبقة الأعيان هو الكولوغلية الذين برزوا في القرن الثامن عشر نتيجة التزاوج بين العشائر الأتراك والنساء المحليات المسلمات. هذه الأصول الأرستقراطية التركية جعلتهم معفيين من الضرائب وأصبحوا الطبقة الحاكمة في ظل الأسرة القره مانلية التي أسسها أحد أفراد الكولوغلية أحمد باشاه القره مانلي. بعد سقوط الدولة القره مانلية استمر الكولوغلية في الحفاظ على نفوذهم كرديف عسكري للقوة التركية وملاك أراضٍ معفيين من الضرائب نظير خدماتهم العسكرية للدولة العثمانية حتى عام ١٨٩٢ .

وبحكم مركز الكولوغلية السياسي والاجتماعي البارز، ولأنهم في النهاية ذوو أصول تركية، فليس من الغريب أن يتحصلوا على حظوة كبيرة في الإدارة العثمانية الجديدة. فقد عين محمد الصغير أحد كولوغلية طرابلس مديراً لمنطقة العزيزية الغنية الزراعة بين عامي ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥ وملك أراضي زراعية كثيرة، لأن الأعيان سجلوا العديد من الأراضي بأسمائهم في الطابو.

سيطرت عائلة الأدغم المصراتية على إدارة قضاء الخمس حتى عام ١٨٦٠، وعائلة

---

(٧٧) علي مصطفى المصراتي، صحافة ليبيا في نصف قرن: عرض ودراسة تحليلية لتطور الفن الصحفي في ليبيا (بيروت: مطابع دار الكشاف، ١٩٦٠)، ص ١٨؛ انظر المقالة المشهورة لألبرت حوراني حول دور الأعيان في الامبراطورية العثمانية:

Albert Hourani, «Ottoman Reforms and the Politics of the Notables,» in: William R. Polk and Richard L. Chambers, eds., *Beginnings of Modernization in the Middle East: The Nineteenth Century*, Publications of the Center for Middle Eastern Studies; 1 (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1968), pp. 41-68.

(٧٨) الطاهر أحمد الزاوي، اعلام ليبيا (بيروت: دار احياء الكتب العربية، ١٩٦١)، ص ١٤ و١٥٥ .

كعبار إدارة قضاء الجبل وبالذات غريان مما ساعدها على تسجيل ٦٤ مزرعة من أصل ١٧٥ من مزارع القضاء باسم الأسرة[٧٩].

يبدأ التنظيم الإداري للولاية بالولاية ثم المتصرفية أو القضاء فالقائمقامية، وأخيراً المديرية أو الناحية. كانت الولاية مقسمة إلى متصرفيات مدينة طرابلس والجبل الغربي والخمس وفزان وبنغازي. لقد أصبح الأعيان متصرفين وقائمقامين ومديرين في النظام الإداري للولاية. وبحكم وضعهم المميز في الإدارة، استطاعوا تدعيم مركزهم الاقتصادي والاجتماعي بتسجيل الأراضي بأسمائهم وإقامة العزائم والولائم في المناسبات، بل إن بعض الأعيان أصبحوا ضباطاً في الجيش العثماني وأعضاء في مجلس المبعوثان أو البرلمان العثماني.

رؤساء وشيوخ القبائل كذلك بحكم وضعهم الأرستقراطي هم مؤهلون للانضمام الى الإدارة العثمانية. الشيخ عبد النبي بلخير يعطي مثالاً لهذه الفئة من الأعيان، فهو ينتمي إلى إحدى عشائر قبيلة ورفلة. فقد تعرف على بعض الضباط الأتراك في طرابلس، وبهذه المعرفة عين متصرفاً لمنطقة ورفلة في عام ١٩٠٨. أدى هذا التعيين إلى تدعيم مركزه داخل قبيلته من الناحية السياسية والاجتماعية وبذلك أصبح شيخ قبيلة ورفلة بلا منازع[٨٠].

هذه هي أصول طبقة الأعيان في المنطقة الغربية من الولاية، وهي متعددة أدت إلى صراعات بينهم حول المناصب والأراضي كما حدث بين عائلتي السويحلي والمنتصر في مصراتة، والباروني وكعبار في الجبل الغربي[٨١]. أيضاً نجد القبائل تتنافس على الأراضي كما حدث في الحرب بين قبائل أولاد بوسيف والزنتان في عامي ١٨٧٠ و١٩١٠. هذه التحولات داخل الولاية بدأت تعكس مصالح فئات مختلفة. الأعيان العاملون في الإدارة العثمانية بدأوا في تأييد الجامعة الإسلامية التي أعلنتها جمعية تركيا الفتاة (١٩٠٨ ـ ١٩١١) وخصوصاً بعد إطلاق الحريات الصحفية وصدور جرائد بالعربية والتركية في مدينة طرابلس[٨٢]. ولكن الإيديولوجيا القبلية في الداخل استمرت في الوجود كتعبير عن الاستقلال السياسي والاقتصادي للقبائل. الأعيان برغم صراعاتهم كانوا واعين وضعهم المتميز، وبذلك نجد تزاوجاً ومصاهرة بين العائلات الكبيرة[٨٣].

---

(٧٩) مركز دراسات جهاد الليبيين (MDJL)، «ملف الأملاك المصادرة: قضاء سهل الجفارة،» ص ٢٢.

(٨٠) محمد المرزوقي، عبد النبي بلخير (تونس؛ طرابلس: الدار العربية للكتاب، ١٩٧٨)، ص ٦٢٣.

(٨١) حول الصراع بين عائلتي المنتصر والسويحلي، انظر. محمد مسعود فشيكه، رمضان السويحلي (طرابلس: دار الفرجاني، ١٩٧٤)، ص ١١، ٢٥ و٤٦.

(٨٢) بعض الصحف عكس التوجه الإيطالى، مثل: *Il Giornel Di Tripoli, Eco Di Tripoli,* و*Il Messagero Di Tripoli* والبعض الآخر عكس التوجه الإسلامي مثل: طرابلس الغرب، ١٨٦٦، المرصاد وأبو قشة، وغيرها كثير. انظر: المصراتي، صحافة ليبيا في نصف قرن: عرض ودراسة تحليلية لتطور الفن الصحفي في ليبيا، ص ١٣ ـ ١١٨.

(٨٣) حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية (I)، ١٥٥١ ـ ١٨٣٢ (طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٤)، ص ٢٠ ـ ٢١، والزاوي، اعلام ليبيا، ص ١٤، ١٣٥، ٢٠٠، ٢٨٠ و٢٩١.

أهم الأعيان الذين برزوا في الإدارة العثمانية الكولوغلية: حسونة القره مانلي الذي أصبح عميداً لبلدية مدينة طرابلس في عام ١٩١١، محمد الصغير في العزيزية، عائلة الادغم في الخمس، عائلة كعبار في غريان، الهادي كعبار، فرحات الزاوي، عمر الكيخيا انتخبوا أعضاء في البرلمان العثماني في عام ١٩٠٨[٨٤].

برز الأعيان أيضاً في مجال التجارة. عائلة المنتصر المصراتية بدأت بالتجارة واستطاعت السيطرة على قضاء الخمس وإزاحة عائلة الأدغم بعد عام ١٨٦٠[٨٥]. عمر المنتصر وأبناؤه سالم وأحمد ضياء الدين وعبد القادر عملوا كمديرين ومتصرفين في ترهونة وسرت وغريان. كما أن أحمد ضياء الدين المنتصر عين عضواً في مركز إدارة الولاية في طرابلس[٨٦]. خلاصة القول، كان الأعيان والتجار والوسطاء اليهود من أكثر الفئات التي استفادت من بناء الإدارة العثمانية الجديدة، ولكن في قاع المجتمع، تأثر أعضاء القبائل العاديون والفلاحون بشكل مغاير بالتحوت السياسية والاقتصادية.

عاشراً: الفلاحون

شجعت هزيمة التحالفات القبلية في الجبل الغربي وتدهور تجارة القوافل وإغراء فرص العمل في مدن الساحل الطرابلسي وجنوب تونس بعض القبائل على الاستقرار خصوصاً وأن رؤساء القبائل سجلوا معظم الأراضي القبلية بأسمائهم، مما ترك رجال القبائل العاديين بلا أرض. نجحت هذه السياسة العثمانية في تطبيق قانون الأراضي الصادر في عام ١٨٥٨ في مناطق ورشفانة والجبل وترهونة ومسلاتة، مما أدى الى استقرار قبائل هذه المناطق في نهاية القرن التاسع عشر كفلاحين في خدمة ملاك أراض كخماسة ومغارسة أو كملاك صغار، وعمل آخرون كرعاة لرؤساء القبائل الأغنياء[٨٧]. لقد حاولت الإدارة العثمانية تنمية الزراعة بتقديم محاصيل زراعية جديدة كالبطاطا والقطن والقهوة والأرز[٨٨]، كما فرضت على هؤلاء الفلاحين الجدد ضرائب الإنتاج والأرض أو المواشي.

ظهرت لأول مرة طبقة عمالية صغيرة في المدن. معظم هؤلاء العمال هاجروا إلى

---

(٨٤) الزاوي، المصدر نفسه، ص ٣٤٢.

(٨٥) في ما يتعلق بعائلة المنتصر، انظر: دار المحفوظات التاريخية، «ملف العائلات الليبية، عائلة المنتصر».

(٨٦) الفقيه حسن، وثائق رقم ٥٣ ـ ٥٥ و١٧ ـ ١٣١.

(٨٧) J. A. N. Brehony, «Semi-Nomadism in the Jabal Tarhune,» in: Willmont and Clarke, eds., *Field Studies in Libya*, p. 63.

(٨٨) عمر علي بن اسماعيل، انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا (١٧٩٥ ـ ١٨٣٥) (طرابلس الغرب: مكتبة الفرجاني، ١٩٦٦)، ص ٢٣١، ومحمد احمد الطوير، «الزراعة في ولاية طرابلس الغرب اثناء الحكم العثماني المباشر لها، ١٨٣٥ ـ ١٩١١،» *Revue d'histoire maghrebine*, vol. 12, nos. 39-40 (décembre 1985), pp. 515-556.

لقد استقرت قبائل عديدة، وحسب ما اورد دي أغسطيني Di Agostini في عام ١٩١٣، هناك ... ,٣٥٧ =

طرابلس ومدن الساحل من الدواخل لأنهم بلا أرض أو خسروا بسبب تسجيل الأراضي القبلية بأسماء العشائرية الأرستقراطية. بالمقابل أصبحت طرابلس والخمس ومصراته وزليطن والزوّاية مراكز لتجارة الحلفا من قطع وحمل وكبس وشحن في السفن إلى إنكلترا. أعطت الشركتان الإنكليزيتان العديد من رجال القبائل والفلاحين الذين بلا أرض فرصة للعمل مقابل أجر يومي أو شهري. آخرون وجدوا فرصة للعمل في مزارع الزيتون في الجنوب التونسي تحت الإدارة الاستعمارية الفرنسية التي ركزت على أشجار الزيتون كمحصول زراعي تجاري. كان ظهور هذه الطبقة العاملة الزراعية مهماً لأنه بداية التحول من الإنتاج الاكتفائي العائلي إلى العمل الفردي الحر مقابل أجر نقدي، أي التحول من علاقات العمل الريعية القبلية إلى العلاقات العمالية الرأسمالية. كما أسلفنا، لم تشمل هذه التحولات كل أنحاء الولاية، ولكن الساحل وشرق طرابلس فقط. وقد استمرت قبائل الجبل والقبلة في ممارسة الإنتاج الاكتفائي الذاتي. خلاصة القول، بدأ اقتصاد المنطقة الغربية في مرحلة انتقالية من الاقتصاد الريعي إلى الاقتصاد الرأسمالي. هذا المزيج من علاقات الإنتاج عكس مزيجاً من الإيديولوجيات السياسية: عثمانية، الجامعة الإسلامية، جهوية، وقبلية.

أيّد الأعيان الذين شغلوا مناصب ومباني الإدارة العثمانية إيديولوجية الجامعة الإسلامية كما نجد عند الشيخ سليمان الباروني عضو البرلمان العثماني في عام ١٩٠٨ وعائلة ظافر المدني الذي أسس الطريقة المدنية الصوفية وأصبح مستشاراً للسلطان عبد الحميد الثاني. المشاعر الإقليمية أو الجهوية عبر عنها الأعيان المستقلون الذين لم يعملوا في الإدارة العثمانية مثل رمضان السويحلي في مصراته وأحمد المريض في ترهونة. أخيراً نجد إيديولوجيات قبلية تعكس مصالح قبيلة أو قبائل فقط في المناطق الداخلية التي بقيت خارج تأثيرات السياسة العثمانية والاستثمارات الرأسمالية. عبد النبي بلخير شيخ قبيلة ورفلة والشيخ محمد بن الحاج حسن شيخ قبيلة المشاشية هما مثالان جيدان على الايديولوجية القبلية.

لم تتأثر برقة وفزان بالسياسة العثمانية بالقدر نفسه كما حصل في منطقة طرابلس؛ برقة ظلت خارج إطار الحكم العثماني المباشر نظراً الى قيام الحركة السنوسية. أما في فزان فتأثيرات السياسة الجديدة ظلت هامشية. سنتناول الاقتصاد السياسي لبرقة في الفصل القادم، ولذلك سنركز الآن على اقتصاد فزان.

تأكدت السلطة العثمانية في واحات فزان، في سوكنة وبراك ومرزق في عام ١٨٤٢. ولكن قبائل وادي الشاطىء والطوارق حافظوا على استقلالهم الذاتي من السلطة المركزية. وبانهيار تجارة القوافل في عام ١٨٩٠ تركز الإنتاج الاقتصادي على الزراعة في الواحات من

= شخص استقروا في طرابلس وفزان، بينما ظل ١٢٨,٠٠٠ شبه رحّل، و٨٥,٠٠٠ رحّلاً. انظر: Di Agostini, *Le Popolazioni Della Tripolitania: Notizle, Ethniche e Storiche*, p. XVIII.

ويمكن القبول بهذه الأرقام على أنها صحيحة في ما يخص السكان المستقرين والريفيين باعتبار أن هذه المناطق خاضعة للدولة المستعمرة، لكن تطرح علامة سؤال في ما يخص سكان المناطق النائية الرحل وشبه الرحل. فهذه الأرقام قد تكون وهمية، جمعت أثناء الحروب، ولا يدخل ضمنها القبائل المتنقلة العديدة، ولكن عما أنه لا توجد أية احصاءات ادق، اجد نفسي مضطراً للاعتماد عليها بحذر.

خلال نموذج التخميس والملكية الإقطاعية في بعض الحالات. وقد اشتهرت واحات فزان بسواني وغابات النخيل نظراً الى توفر المياه الجوفية. لهذا زودت واحات فزان، لوجود مليوني نخلة فيها، ولاية طرابلس الغرب بمعظم احتياجاتها من التمور التي كونت جزءاً أساسياً من غذاء السكان.

وجد في واحات فزان حوالى ٢,٠٧٩ بئراً جوفياً و٢١٣١ عين مياه في عام ١٩٠٠. هذه الآبار والعيون روت ٣,٠٦٦ سانية (مزرعة) حجم كل سانية ٢,٣٠٠ هكتار[٨٩]. كما أسلفنا، تركزت الزراعة المستقرة في واحات فزان على أشجار النخيل. هناك مليونا شجرة نخيل في فزان أنتجت حوالى مليون ونصف كيلة من التمور (الكيلة تساوي ٨ كيلوغرامات)، بعائد مليونين ونصف من القروش العثمانية في السنة[٩٠]. وخلال موسم قطع التمور في أواخر الخريف يقدم التجار والقبائل الرحل الى الواحات في وادي الشاطىء والآجال والجفرة لمقايضة اللبن والأغنام وبقية المنتجات الرعوية بالتمور، شراء التمور أو جني وقطع التمور من سدانيها.

شجع تدهور تجارة القوافل عبر الصحراء الملاك والفلاحين على التركيز على الزراعة في الواحات. وقد تركزت ملكية نخيل فزان في أيدي بعض كبار الملاك والفلاحين الأغنياء، وبعض القبائل ملكت سواني نخيل أيضاً. كذلك وجد نظام التخميس الذي قام به الفلاحون الصغار والمعدمون.

غزت قبائل أولاد سليمان والمقارحة وأولاد بوسيف وحساونة وحطمان والقوايدة بعض هذه الواحات وملكت العديد من السواني في القرن الثامن عشر والتاسع عشر. بعض الأشراف والمرابطون ملكوا سواني بعض الواحات خصوصاً في ودان وزويلة. أولاد بوسيف والحساونة والمقارحة وزوايد وقوايد وحطمان سيطروا على واحات وادي الشاطىء[٩١]. قبائل أولاد سليمان والقذاذفة ملكوا سواني في سمنو والزيغن وسبها. القذاذفة كانت لهم سواني في زلة وهون[٩٢]. قبائل الحمادة والقبلة مثل الزنتان والمشاشية وورفلة عادة ما قايضوا منتجاتهم الرعوية مع سكان الواحات. أما في الجنوب الغربي في منطقة غات فلقد ملك الطوارق سواني يكدحها عبيد وتابعون[٩٣].

---

(٨٩) Lethielleux, *Le Fezzan: Ses jardins, ses palmiers; notes d'ethnographie et d'histoire,* pp. 26-27.

(٩٠) Abdallah A. Ibrahim, «Evolution of Government and Society in Tripolitania and Cyrenaica (Libya), 1835-1911,» (Ph.D.Dissertation, University of Utah, 1982), p. 230.

(٩١) Lethielleux, Ibid., pp 45-46; Despois, «Géographie humaine,» pp. 236-237, and Lars Eldblom, *Land Tenure-Social Organization and Structure: A Comparative Sample Study of the Socio-Economic Life in Three Libyan Oases of Ghat, Mourzouk and Ghadamis* (Uppsala: The Scandinavian Institute of African Studies, 1969), pp. 12 and 15.

(٩٢) André Caunelle, «Le Nomadisme des Guedudfa,» *Travaux de l'institut de recherches sahariennes*. (1955), p. 350.

(٩٣) Louis Dupree, «The Non-Arab Ethnic Groups of Libya,» *Middle East Journal,* vol. 12 (Winter 1958), pp. 37-39.

وجدت في نهاية القرن التاسع عشر ثلاث فئات اجتماعية في فزان: فئة ملاك السواني والمراعي، الفلاحون الصغار، والخماسة. وملاك الأراضي والسواني هم أرستقراطية قبائل وادي الشاطىء وأولاد سليمان والطوارق والأشراف. هؤلاء الملاك استخدموا عبيداً أو عبيداً معتقين وخماسة في ري وزراعة السواني[٩٤]. في عام ١٩١٣ وصل تعداد سكان فزان إلى ٣١,٦٠٠ نسمة معظمهم مستقرين في الواحات ٢٧,٤٠٠، والأقلية ٤,٢٠٠ شبه رحل[٩٥].

ملكت بعض القبائل سواني عديدة. قبيلة القوايد في وادي الشاطىء ملكت ١١ سانية في الديسة في وادي الاجال و٧٣ سانية في الحطية. جيرانهم الحطمان في برقن ملكوا ٤ سواني في الحطية و٢١ سانية في الغريفة[٩٦]. نجد النموذج نفسه في منطقة مرزق وغات وغدامس وسوكنة. نجد في غدامس طبقتين اجتماعيتين: العشائر الأرستقراطية التجارية التي ملكت معظم الأراضي الزراعية، والعبيد المعتقين الذين عملوا في الزراعة والري[٩٧]. في واحة سوكنة في منطقة الجفرة ملاك السواني من النجومات وأرياح، والفلاحة لطبقة خماسة كانوا عبيداً في القرن التاسع عشر[٩٨].

لاحظنا في بعض الحالات وجود ملاك، صغاراً وكباراً، مثلاً أحد الشيوخ في قرية الغريفة في وادي الأجال ملك ٣٠٠ شجرة نخيل وسانيتين، ولكن الشيخ المبروك من قبيلة القوايد في وادي الشاطىء يمكن اعتباره من كبار الملاك لو نظرنا الى املاكه: ٣٠ جملاً، ٦٠ شاة من الماعز، ٢٠ حماراً و٨ سواني فيها ٣٠٠٠ شجرة نخيل[٩٩].

الطبقة الكادحة في فزان هم الفلاحون الخماسة. الخماسة هم فلاحون بلا أرض يبيعون جهدهم العضلي ويقومون بري وزراعة وجني محاصيل السواني مقابل نسبة من الإنتاج مع مالك الأرض. عادة ما يزود مالك الأرض الفلاح بالملابس والحيوانات والبذور. ومعظم الخماسة في فزان ينتمون إلى فئة الشواشنة، وهم أحفاد العبيد السود أو مهاجرون من قبائل متواضعة. العلاقة بين الملاك والشواشنة علاقة أبوية لأن معظم الشواسنة يعتبرون أعضاء في قبيلة وبالتالي لهم حمى قبائلهم. كما نجد في بعض الحالات الشواشنة هم أيضاً أبناء وبنات أمهات سود وآباء مسلمين. ولكن في أسفل السلم الاجتماعي نجد فئة الجبادة، وهم إما

---

(٩٤) Nachtigal, *Sahara and Sudan*, vol. I: *Tripoli and Fezzan*, pp. 63-65 and 86; Despois, «Géographie humaine,» pp. 134-135, and Lethielleux, *Le Fezzan: Ses jardins, ses palmiers; notes d'ethnographie et d'histoire*, p. 33.

(٩٥) Di Agostini, *Le Popolazioni Della Tripolitania: Notizle, Ethniche e Storiche*, p. 364.

(٩٦) Lethielleux, Ibid., p. 46.

(٩٧) المصدر نفسه، و- Eldblom, *Land Tenure-Social Organization and Structure: A Comparative Sample Study of the Socio-Economic Life in Three Libyan Oases of Ghat, Mourzouk and Ghadamis*, p. 15.

(٩٨) William Dalton, «Patronage in Libyan Rural Development,» *Nomadic Peoples*, no. 18 (June 1985), pp. 53-54.

(٩٩) Despois, «Géographie humaine,» p. 237, et André Caunelle, «Les Goueyda d'ouenzerik,» *Bulletin de liaison Saharienne (1959), p. 171.*

شواشنة أو من أصل قبلي متواضع كانوا يعملون لمدة ١٢ ساعة يومياً في سحب الماء من الآبار بوسيلة حيوان، عادة حمار[١٠٠]. هذه الفئة البائسة عملت في ري السواني في ظروف في غاية القسوة.

نحن لا نملك معلومات وافية عن عدد الشواسنة، ولكن أوغسطين الباحث الإيطالي قدّر عددهم بـ ٢٠,٤٧٠ في عام ١٩١٧. هذا الرقم مبالغ فيه لأن معظم سكان فزان يغلب عليهم سمرة البشرة نظراً الى قرب فزان من بلاد السودان وللتزاوج مع السود. ولكن معظم الشواسنة داكني السواد. كذلك هناك بعض الخماسة والجبادة ببشرة سمراء[١٠١]. وبجانب الملكية الكبيرة نجد العديد من الفلاحين الصغار الذين ملكوا سواني صغيرة وعملوا على ريها وزراعتها بشكل جماعي.

الجباد هو الفلاح الذي يقوم بسحب الماء وري السواني، والسقاء هو الفلاح الذي يروي السواني، أما الوبّار فهو الفلاح الذي يؤبر النخيل ويقطع الفروع غير اللازمة في النخلة. أخيراً لا بد من الأخذ في الاعتبار بتعدد عقود التخميس، فأحيانا يعطي العقد بين الفلاح ومالك الأرض حسب الاتفاق خُمس، ربع أو نصف الإنتاج[١٠٢].

---

(١٠٠) Despois, Ibid., p. 233, et Lethielleux, *Le Fezzan Ses jardins, ses palmiers; notes d'ethnographie et d'histoire*, p 33.

(١٠١) Di Agostini, *Le Populazioni Della Tripolitania: Notizle, Ethniche e Storiche*, p. 364

(١٠٢) Despois, Ibid., p 237; Lethielleux, Ibid., pp. 33 et 46, et Caunelle, «Le Semi-nomadisme dans l'ouest libyen: Fezzan, Tripolitaine,» p. 108

الفصل الرابع

الاقتصاد السياسي للحركة السنوسية : الاسلام ، التجارة ، وتكوين الدولة

«الطرق إلى الله كثيرة»
السلسبيل المعين في الطرق الأربعين
محمد بن علي السنوسي
مؤسّس الحركة السنوسية

في الفصل الثالث تناولنا بالتحليل الاقتصاد السياسي لطرابلس وفزّان وخصوصاً تكوين الإدارة العثمانية المركزية، الاستثمارات الرأسمالية الأوروبية وتأثير تدهور تجارة القوافل عبر الصحراء في الاقتصاد المحلي في أواخر القرن التاسع عشر. في هذا الفصل سنركز على تحليل الاقتصاد السياسي لبرقة الإقليم الشرقي للولاية.

لبرقة ملامح جغرافية تفصله عن طرابلس لوجود صحراء سرت، ولكن من ناحية أخرى دواخل برقة سيطرت عليها تحالفات قبلية مثل طرابلس وفزان. برقة على عكس طرابلس ليس فيها مدن حضرية كبيرة ذات أسواق وعدد سكان كبير كما في المنطقة الغربية. بقيت برقة أيضاً بعيدة عن الإدارة المركزية العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لظهور الحركة السنوسية وبقائها إدارة منافسة في برقة نافست الدولة العثمانية وحصرتها في المدن الصغيرة كبنغازي، المرج ودرنة. للأسباب السابقة سنركز على التركيب الاقتصادي والاجتماعي لبرقة قبيل ظهور الحركة السنوسية، مجيء السنوسية وعوامل نجاحها كحركة إصلاحية اجتماعية ربما أهم الحركات الإصلاحية الإسلامية في شمال افريقيا والصحراء الكبرى في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

الأدبيات عن الحركة السنوسية كثيرة في اللغة العربية، الفرنسية والإنكليزية معظمها يركز على النواحي الدينية والإيديولوجية. وقد عكست الكتابات الاستعمارية المصالح الفرنسية والإنكليزية. فالكاتب الفرنسي هنري دوفرييه (١٨٨٤) أعطى صورة سيئة عن الحركة السنوسية كمثال للتعصب الديني وممارسة العبودية. هذا الكاتب عكس المشاعر الرسمية الفرنسية التي بررت التوسع الاستعماري الفرنسي في الصحراء بمعاداة السنوسية خصوصاً ان السنوسية حاربت التوسع الفرنسي في عام ١٨٩٩. والأنتروبولوجي الإنكليزي ادوارد إيفانز بريتشارد جاء إلى برقة كضابط في الإدارة الإنكليزية بعد عام ١٩٤٣، وكتابه سنوسيو برقة (١٩٤٨) غني بمعلومات مهمة عن الحركة ولكن تحليله أيضاً عكس التحالف

السنوسي ـ الإنكليزي وبالتالي فإن كتابه هو دفاع عن المصالح الاستعمارية الإنكليزية في شمال افريقيا. مؤرخو السنوسية أيضاً لهم مثالب تاريخية. المؤرخ السنوسي محمد الطيب الأشهب مثلاً يضخم من إنجازات السنوسية ويصور تاريخ برقة قبل ظهور السنوسية وكأنه جاهلية ما قبل الإسلام. ويبرز في الدراسات الأكاديمية العربية، كتابان عن السنوسية: كتاب المؤرخ اللبناني نقولا زيادة السنوسية (١٩٥٨) حيث يحتوي على معلومات مهمة ولو انه أيضاً قديم وفيه بعض الأخطاء، وهناك المؤرخ الفلسطيني أحمد صدقي الدجاني وكتابه: **الحركة السنوسية** (الطبعة الأولى ١٩٦٧ والثانية ١٩٨٨) حيث نجد أهم دراسة موثقة بالوثائق والمقابلات عن الحركة السنوسية وتاريخها السياسي[١]. ولكن لا توجد دراسة مفصلة عن الاقتصاد السياسي لبرقة والحركة السنوسية، وهذا ما سنحاول القيام به في هذا الفصل.

اتسم الوضع الإداري لبرقة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بعدم الاستقرار. كانت برقة بين عامي ١٨٣٦ و١٨٦٣ قائمقامية تابعة لمركز الولاية في طرابلس ومركز القائمقامية بنغازي، ولكن في عام ١٨٦٣ أصبحت متصرفية مستقلة تابعة لمركز الامبراطورية مباشرة في اسطنبول، بل أصبحت ولاية مستقلة بين عامي ١٨٧٢ و١٨٨٨. ولكن في عام ١٨٨٨ وحتى عام ١٩١١ عادت إلى الوضع القديم كمتصرفية تابعة لمركز الولاية في طرابلس[٢]. ولم تكن الدولة العثمانية نظراً إلى بعد الإقليم وهامشية الحاميات العثمانية في بنغازي، المرج ودرنة قادرة على فرض الضرائب على القبائل البرقاوية. كذلك اعتبرت الدولة العثمانية برقة أقل أهمية من مركز الولاية الغني بالزراعة في طرابلس، أما فزان فهي سيبيريا الامبراطورية حيث نفي معظم المعارضين السياسيين لمرزق. ولكن ظهور الحركة السنوسية في برقة وخصوصاً بعد عام ١٨٥٦ ونموها كقوة منظمة وموحدة للقبائل بفروعها مما أقنع السلطات العثمانية في اسطنبول بإعفاء الزوايا السنوسية من الضرائب ومعاملتها كوقف إسلامي[٣].

---

(١) للاطلاع على أهم الدراسات عن الحركة السنوسية من وجهة النظر الاستعمارية الفرنسية، انظر:
Henri Duveyrier, *Le Confrérie musulmane de Sidi Mohammed Ben' Ali Es-Senoûsı et son domaine géographique en l'année 1300 de l'hégire = 1883 de notre ère*, Publication dc la société de géographie (Paris: Société de géographie, 1886),
وقد أعيد إصداره في طبعة جديدة مع مقدمة كتبها كارلو فالينو (روما، ١٩١٨).

وتعتبر دراسة إيفنز ـ بريتشارد، *The Sanusi of Cyrenaica*، بشكل أساسي دفاعاً عن الاستعمار البريطاني بالرغم من كونها ذات طابع علمي أما دراسة نقولا زيادة، *Sanusiyyah...*، فقد عفا عنها الزمن وتحوي أخطاء عديدة. لذلك فإن أجدر دراسة في هذا الصدد هي دراسة: أحمد صدقي الدجاني، **الحركة السنوسية: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر**، ط ٢ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٧؛ ١٩٨٨)، خصوصاً ما تتضمنه من تاريخ سياسي وفكري. ولا يمكن أن نعتبر حتى الآن أن هناك دراسة تناولت الاقتصاد السياسي بشكل وافٍ. حرابي

(٢) صلاح الدين حسن سالم، «الأوضاع القبلية في شرق ليبيا في العهد العثماني الثاني،» **مجلة البحوث التاريخية**، السنة ٦، العدد ١ (١٩٨٤)، ص ٢٠ ـ ٢١، و
Michel F. Le Gall, «Pashas, Bedouins and Notables: Ottoman Administration in Tripolitania and Benghazi, 1881-1902,» (Ph. D. Dissertation, History, Princeton University, 1986), p. 197.

(٣) أرسلت السلطات السنوسية بعثتين متواليتين إلى اسطنبول لمباحثة السلطات هناك بشأن إصدار قرار =

بعبارة أخرى، كان لظهور حركة اجتماعية منافسة في برقة بإدارة دينية اجتماعية أن فرضت هذه نفسها على حكومة الولاية في طرابلس ودعمت استقلال قبائل برقة من الحكم العثماني الذي تركز في مدن برقة الصغيرة.

وصل عدد القوة العسكرية في بنغازي إلى ١,١٠٠ جندي في عام ١٨٨١، و٣,٥٠٠ في عام ١٨٩٠[٤]. وهذه القوة الصغيرة ليس بمقدورها مواجهة القبائل البرقاوية المسلحة. على العكس، من المنطقي أن يحاول الولاة العثمانيون كسب رضا القبائل والزعامات السنوسية. وقد ذكر تقرير الأسطول البحري الإنكليزي في البحر المتوسط أن معظم قبائل برقة مسلحة: البراعصة ملكوا ١٤,٠٠٠ بندقية، الدرسة ٨,٠٠٠، العبيدات ٦,٠٠٠، العواقير ١٤,٠٠٠[٥]. لذلك عندما حاول أحد الولاة العثمانيين في طرابلس الغرب جمع الضرائب من قبائل برقة، قاومت قبيلة البراعصة هذه المحاولة وردعتها في عام ١٨٨٨[٦].

أولاً: العلاقات القبلية الحضرية

ذكرنا بأن السلطة العثمانية تركزت في بنغازي، المرج، القبقب ودرنة في الفترة بين عامي ١٨٣٥ - ١٩١١. بنغازي، القبقب والمرج أحيتها الإدارة العثمانية، أما درنة فلقد انتعشت اقتصادياً بمجيء عائلات مسلمة من الأندلس في القرن السادس عشر واستوطانها درنة. ولكن لاحظنا بشكل عام صغر تعداد سكان هذه المدن وضعف علاقتها الاقتصادية والتجارية مع قبائل الدواخل. نعني بهذا ضعف دور بنغازي ودرنة والمرج كأسواق تجارية، مركز الإقراض وسكن لملاك الأراضي كما حدث في طرابلس ومدن المشرق العربي، وسيطرة المدينة على الأرياف والدواخل.

تتفق معظم المصادر العثمانية وتقديرات الرحالة على قلة سكان وهامشية أسواق ومدن

= بإعفاء الأوقاف من الضريبة على الأراضي التي تديرها، فأصدر كل من السلطان عبد المجيد، ومن ثم من بعده السلطان عبد العزيز قرارين امبراطوريين (فرمانين) ينصان على استثناء الأراضي الأميرية التي تديرها الأوقاف أو الحبوس من الضريبة. انظر الوثائق المطبوعة حديثاً حول هذا الموضوع، وقد ترجمها عبد السلام أدهم (سميت بعد ذلك بمجموعة أدهم) في: الدجاني، المصدر نفسه، ص ٣٠٧ - ٣٠٨، ٣١١ و٣٤٣، و- E.E. Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica* (Oxford: Clarendon Press, 1949), pp. 91-92.

(٤) Great Britain, Public Record Office (PRO), FO 160/89, بخصوص وضع القوات العثمانية في كل من طرابلس الغرب وبنغازي بتاريخ ٩ حزيران/ يونيو ١٨٨٩، وقد قدرها القنصل دروموند هاي Drumond Hay في بنغازي بألفين (١٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٨٩)، بينما أفاد القنصل ألفرد ديكسون Alfred Dickson بأن هذه القوات انخفض عددها في مختلف أنحاء البلاد إلى ٣٠٠٠ بسبب الاضطرابات في اليمن (١٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١١).

(٥) Great Britain Naval Intelligence, *A Handbook of Libya* (London: H.M. Stationary Office, 1928), pp. 46-51.

(٦) الوثيقة رقم ٤٩ في مجموعة أدهم في: الدجاني، الحركة السنوسية: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، ط ٢ (١٩٨٨)، ص ٣٥٣، ومحمد بن عثمان الحشائشي، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، تحرير علي مصطفى المصراتي (بيروت: دار لبنان، ١٩٦٥)، ص ٩٠.

برقة أو بشكل أدق، المراكز الساحلية. وقد قدر الرحالة الإيطالي ديلا تشيللا سكان بنغازي بحوالى ٥,٠٠٠ في عام ١٨١٧[٧]. وكرر الرحالة الإنكليزي جيمس هاملتون في عام ١٨٥٦ الملاحظة نفسها: «بنغاري فيها بعض أساسيات الحياة الحضرية»[٨]، وقدر عدد سكانها بـ ٥,٠٠٠[٩] في عام ١٨٩٦، وأكد الرحالة التونسي محمد بن عثمان الحشائشي التقديرات السابقة[١٠]. ولاحظ الحشائشي أن هناك مركزين، مرج ودرنة أصغر من بنغازي[١١]. كل هذه الملاحظات تؤكد صغر عدد السكان والأسواق التجارية قبيل الغزو الإيطالي في عام ١٩١١.

نمت بنغازي كمدينة في المرحلة الاستعمارية (١٩١١ - ١٩٤٣) كمركز حضري مهم في برقة. ارتفع عدد سكان بنغازي إلى ١٠,٠٠٠، درنة إلى ٩,٧٠٠، ولكن ظل تعداد المرج صغيراً ١,٥٤٠ نسمة في عام ١٩٢٢[١٢]. بالإضافة إلى صغر مدن برقة، لم توجد طبقة فلاحية مستقرة كما في طرابلس وفزان[١٣]. ليس هذا فحسب، بل بالإضافة إلى ضعف العلاقات الاقتصادية والسياسية بين المراكز الحضرية وغالبية القبائل في الداخل، لاحظنا مثلاً تكوّن معظم سكان بنغازي من مهاجرين من طرابلس، وسطرانة، تونس، كريت وأوروبا، لذلك ارتبطت بنغازي بعلاقات تجارية بالاسكندرية ومالطا أو طرابلس أقوى من دواخل برقة.

ذكر الديموغرافي العسكري الإيطالي دي أغسطيني أن تعداد برقة وصل إلى ١٨٥,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٢٢ و٢٤,٩٤٠ فقط سكنوا في المراكز الحضرية معظمهم في طرابلس. وأما مدينة برقة فتعدادها ٨,٠٠٠ نسمة والباقي من السكان قسمهم دي أغسطيني إلى قبائل مستقرة ١٣٠,٦٤٠، شبه رحل ٣٤,٩٤٠ ورحل ١٦,١٧٠[١٤]. من أهم القبائل المستقرة الدرسة والحاسة وأغلب العبيدات والبراعصة. شبه الرحل هي القبائل التي مارست الترحل بين مواطنها والواحات في فصول مختلفة من السنة. ولكنه لاحظ أن القبائل الرحل صغيرة ودائمة الترحل بحثاً عن المراعي والماء كما في حالة قبائل المرابطين الصغيرة كالحوطة والمنفة والفواخر[١٥]. النظام القبلي في برقة بالغ التركيب والتعقيد ولهذا لا بد من إعطاء فكرة عامة عن جذوره وتطوراته لفهم ملامحه في القرن التاسع عشر.

---

(٧) Paolo Della Cella, *Narrative of an Expedition from Tripoli in Barbary to the Western Frontier of Egypt in 1817 by the Bay of Tripoli*, trans. by Anthony Aufrere (London: J.A. Arch, 1823), p. 194.

(٨) Hamilton James, *Wanderings in North Africa* (London: John Murray; Albemarie St., 1856), p. 9.

(٩) المصدر نفسه، ص ٧.

(١٠) الحشائشي، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، ص ٥٢.

(١١) Della Cella, *Narrative of an Expedition from Tripoli in Barbary to the Western Frontier of Egypt in 1817 by the Bay of Tripoli*, pp. 22 and 221.

(١٢) Enrico Di Agostini, *Le Populazioni Della Cirenica* (Benghazi: Governo Della Cirenica, 1922-1923), pp. 415 and 427.

(١٣) Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica*, p. 45.

(١٤) Di Agostini, Ibid., p. 444.

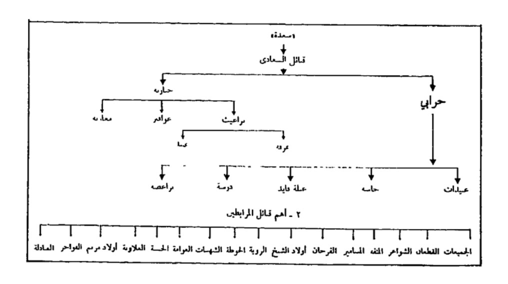
(١٥) Evans-Pritchard, Ibid., p. 34.

غيرت هجرة بني هلال وسليم كما أسلفنا، بعدد حوالى ٣٠٠,٠٠٠ نسمة بقطعانهم، البيئة الثقافية الاجتماعية والاقتصادية لشمال افريقيا فمعظم قبائل بني سليم استقرت في برقة وسرت بينما استمرت قبائل بني هلال في الهجرة غرباً واستقرت في طرابلس، تونس وبقية الشمال الافريقي. واستولت القبائل الغازية على معظم المراعي وآبار المياه كما حدث في برقة[١٦]. وقد سيطر تحالف السعادي المنحدر من بني سليم على الأراضي الرعوية والآبار خارج مدن برقة من سرت إلى الصحراء الغربية. وأطلقت قبائل السعادي على نفسها لقب الحر كتمييز للقبائل الفاتحة من القبائل البربرية والعربية التي هاجرت في القرن السابع الميلادي إلى شمال افريقيا. هذه القبائل تسميها السعادي المرابطين. وقد ملكت قبائل السعادي العشرة الأراضي والآبار، وعاشت القبائل التابعة أو المرابطون الست عشرة في برقة عاشت في حمى السعادي واحتاجت إلى إذن السعادي لاستخدام المراعي والآبار وحافظت السعادي على وضعها الأرستقراطي من خلال إيديولوجية النسب القبلي من سعدة من بني سليم كما تدعي الروايات الشفوية، وكما يوضح جدول رقم (٤ ـ ١).

جدول رقم (٤ ـ ١)

النظام القبلي في برقة في القرن التاسع عشر

١ ـ تقسيم تحالف قبائل السعادي



(١٦) Youssef Toni, «Tribal Distribution and Racial Relationships of the Ancient and Modern People of Cyrenaica,» in:
حوليات كلية الآداب (جامعة عين شمس، كلية الآداب)، العدد ٨ (١٩٦٣)، ص ١٧٢.

السعادي هي القبائل الغازية التي استولت بحكم قوتها العسكرية على الأراضي الخصبة وآبار المياه خارج المدن في برقة من سرت غرباً إلى الصحراء الغربية شرقاً. سيطرت هذه القبائل العشر التي تضم تحالف السعادي نسبة إلى سعدة من بني سليم، على القبائل الأخرى المرابطين. فالمرابطون تطلب إذن قبائل السعادي لاستخدام المراعي وآبار المياه، بالمقابل تدفع قبائل المرابطين هدايا أو ريع للسعادي كالحبوب، والحيوانات في مناسبات الأعراس ودفع تكاليف الديّة في حالة القتل[١٧].

جوهر العلاقة بين قبائل السعادي المالكة الأراضي ومصادر المياه والمرابطين التابعة هي التبعية الاقتصادية. وقد حافظت قبائل السعادي على وضعها «الأرستقراطي» من خلال إيديولوجية النسب «الحر»، فحصر الزواج بينهم وخصوصاً النساء. ولكن كل قبيلة سعادي لديها مرابطوها أو اتباع من المرابطين. هؤلاء المرابطون يعتبرون جزءاً من قبيلة السعادي التي ينتمون إليها في ظل الاقتصاد القبلي الجماعي وبالذات في مواجهة القبائل الأخرى. هنا نلاحظ الإيديولوجية القبلية تخلف علاقات السيطرة الاقتصادية. فقبائل السعادي والمرابطون ارتبطوا بضرورة التعاون مع بعضهم، وقبائل السعادي احتاجت إلى المرابطين لتدعيم حماية مراعيهم وآبارهم وقطعانهم خصوصاً في زمن الحرب. لهذا نجد وضع المرابطين أفضل من وضع الحرفيين والعبيد داخل قبائل السعادي. ولكن الملكية الجماعية القبلية للأرض والآبار خفضا من حدة التناقض الاقتصادي بين السعادي والمرابطين. كذلك قدرة القبائل بما فيها المرابطون على حمل السلاح كحاجة أساسية للحياة البدوية جعلت بعض قبائل المرابطين تتمتع ببعض الاستقلال عن السعادي في أواخر القرن التاسع عشر.

قبائل المرابطين التابعة أو الرديفة لقبائل السعادي عددها ست عشرة قبيلة. هذه القبائل لها علاقات مختلفة مع السعادي في ما يخص العدد، والاستقلال الاقتصادي من السعادي. وتعكس أسماء قبائل المرابطين طبيعة وضعهم الاقتصادي والاجتماعي، فنجد مرابطين العصا، الزبل، والصدقة أو الفاتحة. العصا والزبل تعكس تدني الوضع الاجتماعي للمرابطين لإمكانية ضربهم بالعصا أو لأنهم يعملون بنقل الزبل، ومرابطين الصدقة تشير إلى قبائل المرابطين الذين يدفعون ريعاً للسعادي مثل المنفة، أولاد مريم، عوامة، طراقي، شواعر، علاونة، حسنة[١٨]. أما قبائل مرابطين الفاتحة أو البركة فسمعتهم أفضل من المرابطين الآخرين لأنهم معلمو قرآن وبعضهم ادعى نسباً شريفاً لأسرة الرسول، ولذلك عندهم البركة مثل قبائل أولاد الشيخ والمسامير والفرجان.

---

(١٧) المصدر نفسه، ص ١٦٩.

(١٨) E.E. Evans-Pritchard, «Tribes and their Divisions,» in: *Handbook of Cyrenaica* (Cairo: Military Administration, 1947), part 7, p. 67;

نقولا زيادة، **ليبيا في العصور الحديثة**، محاضرات (القاهرة: جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، قسم الدراسات التاريخية والجغرافية، ١٩٦٦)، ص ١٦، و

Emorys L. Peters, «The Tied and the Free: An Account of Patron-Client Relationship Among the Bedouin Pastoralists of Cyrenaica,» in: J.G. Peristiany, ed., *Contributions to Mediterranean Sociology: Mediterranean Rural Communities and Social Change* (Paris; The Hague: Mouton, 1968), pp. 168-175.

اتسم النظام القبلي في برقة بالتغير لأن الاقتصاد الرعوي أيضاً غير مستقر. وتعاني قبائل السعادي نفسها في سنين الجفاف قلة الأمطار وخطر المجاعة. كذلك لأن النظام الرعوي يتطلب حمل السلاح بما في ذلك قبائل المرابطين للدفاع عن القطعان والمراعي، ولأن القبائل مهيأة وقادرة على الهرب داخل الصحراء، جعل سيطرة قبائل السعادي على المرابطين ضعيفة. بل إن السيطرة الاقتصادية للسعادي على المرابطين بدأت في الاختفاء وبقيت فقط السمعة الاجتماعية التي حاولت قبائل السعادي الحفاظ عليها بالادعاء بأنهم القبائل الحرة في برقة. وازداد عدد قبائل المرابطين قوة بعد استقلالهم عن السعادي، ولكن ظهور الحركة السنوسية في منتصف القرن التاسع عشر بتركيزها على الاخوّة الإسلامية والتعليم السنوسي، بغض النظر عن الخلفية القبلية، كان العامل الحاسم في خلق نظام اجتماعي جديد خفف من علاقات القبلية اللامتكافئة بين السعادي والمرابطين. أهم قبائل المرابطين: الفواخر، الشواعر، الزوية، الحوطة، القطعان، الفرجان، أولاد الشيخ، المسامير، المنفة، الجميعات، الشهيبات، العوامة، العلاونة، أولاد مريم وحسنة. قدر دي أوغسطيني عدد قبائل السعادي العشرة بحوالى ١٣٤,٥٥٠ نسمة والمرابطين الست عشرة بحوالى ٤٠,٦٠٠ نسمة في عام ١٩٢٠. هذا التقدير برأينا غير دقيق لأننا لو نظرنا إلى تعداد كل قبيلة من السعادي لوجدنا عدداً من المرابطين ضمنها. هذا ليس بالغريب فكل قبيلة سعادي لها مرابطوها، لأن عدد السعادي ليس كبيراً وضم مرابطين يدعم مركز القبيلة. دعنا نتفحص المعلومات التي جمعها دي أوغسطيني. لنأخذ كمثال عائلة حدوث من قبيلة البراعصة السعادية. عائلة حدوث عددها ٢,٥٢٠ منهم فقط ٦٣٠ سعادي والبقية مرابطون[١٩].

لننظر في حالة أخرى، عائلة سليمان من قبيلة العواقير السعادية. عائلة حدوث عددها ١,٩٤٠ منهم فقط ٧٤٠ سعادي والبقية مرابطون. عائلة صغيرين من قبيلة الحاسة السعادي عددها ٧,٧٠٠ منهم فقط ١,٦٥٢ سعادي والبقية مرابطون[٢٠]. حجم القبيلة في تحالف السعادي غير متكافىء ولذلك تأتي أهمية المرابطين التابعين للسعادي. نجد قبائل سعادية كبيرة العدد مثل البراعصة (٢١,٠٠٠) والعواقير (٢٧,٠٠٠) ولكن عائلة فايد السعادية عددها (٤٠٠) فقط[٢١]. بالمقابل، أصبحت بعض قبائل المرابطين مستقلة عن السعادي لازدياد عددها وقوتها العسكرية كما في حالة الزوية والفواخر. وقد رفضت الزوية دفع الريع للسعادي وأصبحت منافسة للمغاربة السعاديين في إجدابيا وسيطروا على تازربو والكفرة.

النظام الاجتماعي القبلي في برقة مبني على أساس وحدات أساسية هي البيت أو العائلة. فمجموعة من البيوت تكون عائلة أو عشيرة ومجموعة عائلات تكون قبيلة. قبائل برقة كبقية القبائل في دواخل طرابلس وفزان لها دورة اقتصادية موسمية. والقبائل البرقاوية تتراوح بين الهضبة في الشمال والسهل في الوسط وأخيراً الواحات في الجنوب مثل جالو، أوجلة، مرادة، زلة، الجغبوب، الكفرة، سيوة، الواحات الخارجية في الصحراء الغربية.

(١٩) Di Agostini, *Le Popolazioni Della Cirenica*, pp. 184-186.
(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٤٦ - ٢٩٩.
(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٥٥ و٢٢٧.

الاقتصاد الرعوي القبلي الاكتفائي تركز على زراعة الحبوب ورعي الحيوانات وجني التمور من الـواحات. الإدارة العثـمانية في بـرقة وصلت المـراكز الحضريـة فقط في عام ١٦٣٥ ولكنهـا لم تسيطر على قبائل الداخل نظراً إلى قوة القبائل العسكرية ولأن الإقليم شبه صحراوي غير ذي أهمية اقتصادية للحكومة المركزية في اسطنبول. لذلك تركز الاهتـمام بطرابلس وطـرق التجارة عبر فزان أكـثر من برقـة. وكما أسلفنـا بعد عـام ١٨٧٠ استطاعت الحـركة السنـوسية تنـظيم القبائل وتوحيدها اقتصادياً، إدارياً وعسكرياً مما جعل الغزو العسكري العثماني لدواخـل برقـة عملية صعبة ومكلفة جداً للحكومة العثمانية.

لم تتأثر برقة بالإصلاحات الإدارية العثمانية كـما حدث في المنـطقة الغـربية، عـلى سبيل المثـال، قـانـون الأراضي العثـماني الـذي طبق في بعض أجـزاء طـرابلس لم يتجـاوز تسجيـل الأراضي في بنغازي ودرنة بل لم تهتم القبائـل بالإعـلان العثماني بـأن الأراضي القبلية في بـرقة ميري معطاة للقبائل لاستخدامها في عام ١٨٦٣[٢٢].

خلاصة القول إن الحركـة السنوسيـة لم تظهـر في فراغ اجتـماعي واقتصادي كـما يدعي بعض مؤرخي الحركة، ولكن النظام القبلي في برقة تميز بالتعقيد ووجود مؤسسـات متطورة في علاقات السعـادي المرابـطين وشبكة التحـالفات من صحـراء سرت حتى الصحراء الغـربية. السعادي احتفظوا بالأراضي الخصبة والآبار وفي قاع النظام الاجتماعي نجـد العبيد خصـوصاً في واحات الكفرة[٢٣]. لذلك سنحاول إثبات أن نجـاح الحركـة السنوسيـة في برقـة يرجـع في بعض جوانبه إلى التكيف مع هذا التركيب القبلي المعقد. كذلك ارتبطت قبائل برقة تجارياً مع الاقتصاد الإقليمي لوادي وغرب مصر. لقد وجدت القبائـل البرقـاوية في غـرب مصر سوقـاً تجارياً لبيع فائضها الحيواني وشراء احتياجاتها.

هذه العلاقة التجارية مع غرب مصر حلت لنا لغز صغر عدد سكان وهـامشية أسـواق المراكز الحضرية في برقـة كبنغازي ودرنـة. القبائـل البرقـاوية وجـدت في أسواق غـرب مصر كسيدي مطروح، والاسكندرية فـرصة لتجـاوز الضرائب العثمانيـة وطلباً أكـبر على فـائضهم الرعوي من حيوانات وحبوب. والحركة السنوسية وسعت هذا الاقتصاد الإقليمي[٢٤].

تدعم المصادر التاريخية كلها العلاقات الاقتصادية بين قبائل برقة وأسـواق غرب مصر. فقد ذكر الـرحالـة الإنكليزي جيمس هـاملتون الـذي زار برقـة في عام ١٨٥٠، أن القبـائل باعت فائض حيواناتها في غرب مصر[٢٥]. في عام ١٩٠٢ أعطى القنصـل الإنكليزي جـاستن

---

(٢٢) Saad Abu-Oaf, «Legal Aspects of Tribal Lands and Settlement in Libya,» in: Food and Agriculture Organization of the United Nations (FAO), *Report to the Government of Libya on Development of Tribal Lands and Settlements Project, Rome, 1969*, p. 3.

(٢٣) أحمد محمد حسنين، في صحراء ليبيا (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٢٣)، ص ١٨٨.

(٢٤) Emorys L. Peters, «Cultural and Social Diversity in Libya,» in: A.J. Allan, ed., *Libya Since Independence: Economic and Political Development* (New York: St. Martin's Press, 1982), p. 111.

(٢٥) Hamilton, *Wanderings in North Africa*, p. 56, and Ahmad Abu-Zeid, «The Seden- =

الفريز إحصاءً اقتصادياً عن الصادرات إلى مصر ما بين عامي ١٨٩٠ ـ ١٩٠٢: على سبيل المثال في عام ١٨٩١ صدّرت القبائل ٩٢٠ جملاً، ٢٤٨ حصاناً، و٥٣,١٣١ رأساً من الغنم بقيمة إجمالية ٥١,٦٠٠ جنيه استرليني، بالإضافة إلى ٣,٦٠٠ كيلوغرام من الزبدة بقيمة ٢٠,٢٠٠ جنيه استرليني[٢٦]. وارتفعت الصادرات إلى مصر في عامي ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩ إلى ٢,٠٠٠ جمل بيعت بقيمة ١٢,٠٠٠ جنيه استرليني، و٤٣,٣٠٠ رأس من الغنم بقيمة ٢١,٦٠٠ جنيه استرليني[٢٧]. الصادرات من الإبل إلى مصر ازدادت بمتوسط ٥,٠٠٠ في ما بين عامي ١٩٠٠ ـ ١٩٠٢.

صارت مالطا أيضاً سوقاً تجارياً للمنتوجات الرعوية البرقاوية. ففي عام ١٩٠٠ صدرت قبائل برقة ١٦٠,٠٠٠ رأساً من الغنم إلى مصر ومالطا. ارتفعت هذه الصادرات إلى ٢٠٠,٠٠٠ و٣٠٠,٠٠٠ في عام ١٩٠١، ١٩٠٢ على التوالي. أيضاً صدر ١٩٥,٠٠٠ كيلوغرام من الزبدة إلى مصر والدولة العثمانية. وفي عام ١٩٠٨ صدرت قبائل برقة ٣٤,٠٠٠ رأس من الغنم إلى مصر[٢٨]. في عام ١٩٢٢ صدرت قبائل برقة ٨٠,٠٠٠ رأس من الأغنام والماعز و٤٦٢, ٧٥ كيلوغراماً من الزبدة إلى مصر[٢٩].

خلال الحروب النابليونية التي حدثت بعد غزو نابليون بونابرت مصر وبالتحديد في ما بين عامي ١٨٠٠ ـ ١٨١٥ ازداد الطلب على الحبوب واللحوم من برقة بسبب وجود الأسطول الإنكليزي في مالطا. الأسطول الإنكليزي لم يستطع الحصول على غذائه من جنوب أوروبا نظراً إلى سيطرة الدولة الفرنسية على تلك المنطقة. لذلك وجدت قبائل برقة زيادة في الطلب على اللحوم والحبوب. ولكن هذا الطلب على الصادرات البرقاوية لم يتوقف بعد انتهاء الحروب النابليونية وهزيمة فرنسا في عام ١٨١٥. على سبيل المثال، صدرت قبائل برقة الأعداد التالية من الأغنام والمواشي إلى مالطا: ٦,٨٠٠ في عام ١٨٩٩، ٦,٠٠٠ في عام ١٩٠٠؛ ٧,٠٠٠ في عام ١٩٠١؛ و٥,٠٠٠ في عام ١٩٠٢[٣٠].

ولكن لا بد من الأخذ في الاعتبار أن الصادرات السابقة حصلت في سنين الصّابة أو المطيرة ببرقة، ومقابل سنين الصابة هناك سنون الجفاف، وقلة المطر إذا استمرت أكثر من سنة يحدث العكس، المجاعات والهجرة كما حدث في عام ١٨٨١. في تلك السنة أدى الجفاف إلى

= tarization of Nomads in the Western Desert of Egypt,» *International Social Science Journal*, vol 10, no. 4 (1959) p 550.

(٢٦) Great Britian, PRO, FO Report of Consul Justin Alvarez from Benghazi, 16 April 1891.

(٢٧) FO, Alvarez, 21 May 1900.

(٢٨) FO, Alvarez, 5 November 1904, and Francesco Coro, *Stettantessei Anni Di Dominazione Turca in Libia, 1835-1911*, trans. by K. Al-Tillisi (Tripoli: Dar Al Firjani, 1971), p. 114.

(٢٩) Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica*, p. 37.

(٣٠) Alvarez, Years 1890, 1898 and 1902.

انظر أيضاً تفاصيل أوفى حول التجارة إلى مالطة في: E.G.H. Joffe: «British Malta and the Qaramanli Dynasty, 1800-1835,» *Revue d'histoire maghrebine*, vol. 12, nos. 37-38 (Juin 1985), p. 32, et «Trade and Migration between Malta and the Barbary States, 1835-1911,» p 3.

هجرة عدد من القبائل إلى الغرب إلى منطقة شرق طرابلس والشرق إلى الصحراء العربية[٣١]. سنون الجفاف أو كما يشار إليها محلياً سنون الشرّ أدت في بعض الأحيان إلى صراع حول الآبار والمراعي وحروب أهلية كما حدث في الحرب بين القبائل السعادية الجوازي وأولاد علي ضد أولاد عمومهم العبيدات. العبيدات طلبوا معونة يوسف باشا ضد ابنه محمد الذي انفصل بحكم منطقة درنة. في البداية نجح محمد القره مانلي وحلفاؤه الجوازي وأولاد علي في السيطرة على المنطقة، هزيمة ولكن يوسف باشا بعث حملة عسكرية من طرابلس هزمت تحالف أولاد علي والجوازي وأدت إلى هجرة الآخرين إلى صحراء مصر الغربية في عام ١٨١٧. الطبيب الإيطالي دبلا تشيلا الذي رافق الحملة ترك لنا وصفاً دقيقاً لهذه الحرب[٣٢]. صحراء مصر العربية ووادي النيل منذ القديم مثلت فضاء أو مجالاً جغرافياً للهروب من الجفاف والهزائم العسكرية والحروب الأهلية، لذلك نجد العديد من القبائل البرقاوية استوطنت في الصحراء الغربية ووادي النيل مثل البهجة، أولاد عونا، الهنادي، الفوايد، الجوازي وأولاد علي[٣٣].

أعطت واحات الصحراء وأطراف الدواخل القبائل مجالاً للغزو وللهروب من جنوب برقة. وقد غزت القبائل الجائعة في أوقات الجفاف الواحات الصحراوية كما حدث في فزان والقبلة. وكان غزو الواحات أحد الوسائل للتغلب على الجفاف والمجاعة بضمان محصول سنوي دائم للتمور. وهذه وسيلة أخرى كما لاحظنا في قبائل فزان للجوء إلى التجارة كمستثمرين، مرشدين ومؤجري جمال أو كفارضي أعطيات وريع على تجار القوافل مقابل سلامة المرور في الصحراء.

عائلة ابراهيم هي إحدى عائلات قبيلة المغاربة السعادية التي عاشت في شرق سرت ومنطقة إجدابيا. هذه المنطقة فقيرة المطر، لذلك تكيفت هذه العشيرة مع الظروف القارية بمصاهرة عائلات في واحات مرادة وزلة. هذه المصاهرة سمحت لعائلة ابراهيم بالحصول على تمور سنوية من اصهارهم في هذه الواحات[٣٤]. هذا مثال على التكيّف من خلال خلق تحالفات مع سكان الواحات.

لجأت قبيلة الزوية أيضاً، موطنها في منطقة اجدابيا الصحراوية، إلى سياسة توسعية، فغزت قبيلة الزوية المرابطية في واحة الكفرة الغنية بالمياه والنخيل وفرضت علاقات التبعية على سكانها من قبيلة التبو في عام ١٨٤٠[٣٥]. وقد ملكت عشائر الزوية معظم نخيل الكفرة

---

(٣١) الحشائشي، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، ص ٩٨، و Anthony Cachia, *Libya Under the Second Ottoman Occupation, 1835-1911* (Tripoli: Government Press, 1945), pp. 40 and 104.

(٣٢) Della Cella, *Narrative of an Expedition from Tripoli in Barbary to the Western Frontier of Egypt in 1817 by the Bay of Tripoli*, pp. 7, 51, 220 and 224.

(٣٣) Toni, «Tribal Distribution and Racial Relationships of the Ancient and Modern People of Cyrenaica,» p. 177.

(٣٤) Peters, «Cultural and Social Diversity in Lybia,» p. 112.

(٣٥) حسنين، في صحراء ليبيا، ص ٢٠١، ودار المحفوظات التاريخية (DMT)، تقرير المسؤول في السلطات العثمانية صادق المؤيد بخصوص زيارته السيد المهدي السنوسي في كفرا، ١٨٩٠، ص ٢.

الواقع بين مملكة وادي في شمال شرق تشاد وشمال افريقيا. وضمنت عشائر الزوية محصولاً سنوياً من التمور. ولكن الزوية وقبيلة المجابرة تركز نشاطهما الاقتصادي على التجارة التي تمت بين بلاد السودان وخصوصاً وادي وشمال افريقيا. الزوية لم يفلحوا النخيل بل اضطر التبو الذين غزاهم الزوية إلى دفع إنتاج سنوي لهم. هنا لا بد من الأخذ في الاعتبار ان قبيلة الزوية والمجابرة هما أساساً من القبائل التجارية التي سيطرت على واحات الصحراء وطرقها، الزوية على الكفرة، تازربو، وصخرة؛ والمجابرة على جالو وارجلة خصوصاً بعد عام ١٨٧٠. وقد بدأت الحركة السنوسية في تأمين تعاون القبائل لضمان طريق القوافل بين وادي، الكفرة وبنغازي. هذا الطريق ظهر إلى الوجود كرد فعل لتدهور الطريقين المشهورين عبر فزان وكنتيجة لجهود الحركة السنوسية التي لقيت صدى عند القبائل التجارية الصحراوية من الغداسية، أولاد سليمان، الطوارق، التبو، المجابرة والزوية.

ثانياً: تجارة القوافل عبر الصحراء (طريق واداي - الكفرة - بنغازي)

بدأت تجارة القوافل في الازدهار عبر برقة بعد أن بدأت في التدهور عبر فزان وتحديداً عام ١٨٨٠. هذا التحول في طرق التجارة من غرب جنوب الولاية إلى الشرق يعود إلى سببين رئيسيين، أولاً، أدى التوسع الفرنسي والإنكليزي في غرب افريقيا إلى توجه التجارة إلى مرافىء غرب افريقيا بالذات بعد بناء سكة حديد كانو - لاغوس. أضف إلى هذا التطور إيقاف التبادل التجاري عبر السودان بعد الثورة المهدية ضد الحكم المصري الإنكليزي. ظلت برقة المنطقة الوحيدة بين الشرق والغرب الافريقي الذي سمح باستمرار التبادل التجاري. لهذا نجد تجار القوافل يركزون على الطريق الجديد كنوع من التكيف مع الظروف السياسية الجديدة.

كانت أهم سلع طريق وادي الكفرة - بنغازي التجاري ريش النعام، العاج، جلود الماعز والرقيق. أما واردات برقة وبلاد السودان فأهمها الملابس القطنية الإنكليزية، الشاي، والأدوات اليدوية. بشكل أكثر تفصيلاً، صدرت دارفور ووادي سلعها عبر برقة إلى مصر، الامبراطورية العثمانية، مالطا، إنكلترا وفرنسا. وكانت أهم صادرات بلاد السودان عبر برقة في عام ١٨٩٠، ٣٢٥ بالة (رزمة ضخمة) من العاج، بقيمة ٢٩,٥٠٠ جنيه استرليني ذهبت إلى فرنسا وإنكلترا[٣٦].

شملت الصادرات السودانية في عام ١٨٩٨ ٥٠٠ بالة من جلود الماعز بقيمة ١٤,٠٠٠ جنيه استرليني، ١٥٠ بالة من جلود الغنم بقيمة ٥,٦٠٠ جنيه استرليني و٨,٢٦٠ بالة من الصوف بقيمة ٢٦,٨٤٠ جنيه استرليني، كلها صدرت إلى ميناء مارسيليا الفرنسي[٣٧]. في

(٣٦) Great Britain, PRO, FO, A Report of the British Consul Alvarez in Benghazi, 16 April 1891.

(٣٧) Fo, Consul Alvarez in Benghazi, 21 May 1900.

عـام ١٩٠١ شملت الصادرات السـودانية عـبر برقـة مـا قيمتـه ٩,٠٠٠ جنيـه اسـترليني من الصـوف صدر إلى فـرنسا ومـالطا. في عـام ١٩٠٢ حوّلت صـادرات بقيمة ٢٤,٠٠٠ جنيـه استرليني من العاج إلى مالطا وإنكلترا بينما ١٠,٠٠٠ جنيه استرليني من ريش النعام ذهب إلى فرنسا[٣٨]. هذه الإحصاءات تبرهن على نمو تجارة القوافل عبر برقة في عام ١٨٧٠.

وجدت الواردات الإنكليزية في برقة ووادي سوقاً جيداً للملابس الرخيصة القـطنية في النصف الثـاني من القرن التـاسع عشر. تقـريباً نصف حـمولة الصـادرات الأوروبية إلى بـلاد السودان وبرقة كان منسوجات إنكليزية قطنية[٣٩]. لقد نظم التجـار السنوسيـون هذه التجـارة وجنوا أرباحاً عالية. والتجار المجابرة في واحة جالو أصبحوا موسرين في عام ١٨٧٥[٤٠]. وقـد ذكر مياج المؤرخ الفرنسي ان بعض التجار السنوسيين وصلت أرباحهم من تجارة القـوافل إلى ٦٠٠ بالمئة[٤١].

هذه النشاطات الاقتصادية تدحض الصـورة المبالـغ فيها من بعض الـرحالـة ومؤرخي السنوسية الذين صوروا الوضع الاقتصـادي والاجتماعي في بـرقة بـأنه بـدائي فوضـوي، كما نجدها في كتابات الرحالة الأرستقراطي المصري أحـمـد حسنين، المؤرخ فؤاد شكـري والمؤرخ السنوسي محمد الطيب الأشهب[٤٢]. كما أسلفنا، على العكس وجد في برقة قبيل ظهور الحركة السنوسية نظام قبلي متطور ومعقد ساعد على انتشار السنوسية لأنها عبرت عن مصالـح القوى القبلية والتجارة في برقة.

عرف النظام القبلي في برقة كبقية قبائل الولاية تحـالفات كحـركة الصفـوف في الأماكن الأخرى في حالة الحروب الأهلية والغزو الخارجي أو الصراع مع الدولة العثمانية. وبين عامي ١٨١١ - ١٨١٢ نشبت حرب أهلية حـول الأرض بين قبـائل السعـادي: المغاربـة، العواقـير والبراعصة التي تحالفت ضد الجوازي وعائلة فـايد الـذين اضطروا إلى الانسحـاب شرقاً بعـد هزيمتهم إلى الصحراء الغربية، كذلك في عـام ١٨١٧، كما أسلفـنـا، تحالف الجـوازي وأولاد علي ضد العبيدات. ولكن بعد أن أيدت الدولة القره مـانلية العبيـدات هزم الجـوازي وأولاد علي فهاجروا إلى الصحراء الغربية ووادي النيل[٤٣].

---

(٣٨) FO, Consul Alvarez in Benghazi, 5 November 1904.

(٣٩) Marion Johnson, «Calico Caravans: The Tripoli Kano Trade After 1880,» *Journal of African History*, no. 17 (1976), p. 50, and Dennis D. Cordell, «Eastern Libya, Wadai and the Sanusiyya: A Tariqa and a Trade Route,» *Journal of African History*, vol. 18, no. 2 (1972), p. 34.

(٤٠) Adu A. Boahen, *Britain, the Sahara and the Western Sudan* (Oxford: Clarendon Press, 1964), p. 114.

(٤١) Jean Louis Miège, «La Libye et la commerce trans saharien au XIX siècle,» *Revue de l'occident musulman et de la Méditerranée*, no. 19 (1975), p. 143.

(٤٢) انظر: حسنين، في صحـراء ليبيا، ص ٤٨ - ٤٩؛ مؤرخ البـلاط السنوسي، محـمـد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٨)، ص ٢٧، والدجـاني، الحركـة السنوسيـة: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، ط ١ (١٩٦٧)، ص ٢٦٦.

(٤٣) Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica*, p. 49.

اتبعت الدولة العثمانية سياسة سلمية لإغراء قبائل برقة القوية، وتحديداً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. هذه السياسة ليست بالجديدة بل قديمة أساساً وهي تعين زعماء القبائل القوية كمديرين وجامعي ضرائب. وقد اتبعت هذه السياسة كحل وسط بين سكان الساحل في الغرب والقوة العسكرية التي استخدمت ضد قبائل المحاميد وأولاد سليمان. ولكن برغم محاولة استقطاب شيوخ قبائل من برقة إلا أن الدولة العثمانية فشلت في جمع الضرائب من القبائل. لو نظرنا إلى جداول جمع الضرائب للدولة العثمانية بين عامي ١٨٤٣ ـ ١٨٧١ نجد ديناً كبيراً على القبائل، هذا الدين سببه ليس الجفاف بل رفض القبائل دفع الضرائب[٤٤].

من أهم الشخصيات البرقاوية التي عينت كمديرين، قائمقامين أو متصرفين، نجد أعيان بنغازي ودرنة مثل منصور الكيخيا الكولوغلي من بنغازي الذي عين مديراً لقبيلة الحاسة في عام ١٨٦٧ وبعدها انتخب عضواً في البرلمان العثماني في عام ١٩٠٨. رمضان امنينة من بنغازي عين مديراً للعواقير في عام ١٨٧٠[٤٥]. كذلك بعض شيوخ القبائل عينوا في مناصب إدارية. الشيخ أبو بكر حدوث أحد شيوخ قبيلة البراعصة عين مديراً لقبيلته في عام ١٨٧١؛ عائلة الأطيوس من قبيلة المغاربة تولت إدارة الكفرة وسرت في الفترة نفسها، وعلي باشا العبيدي من قبيلة العبيدات أصبح قائمقاماً للمرج. وأعضاء من عائلة الكزة والعبار من قبيلة العواقير عينوا في مناصب إدارية[٤٦]. ولكن غالبية القبائل أعلنت ولاءها للحركة السنوسية، ولذلك لم تنجح السياسة العثمانية في استقطاب أعيان بنغازي وبعض شيوخ القبائل في تقوية الإدارة العثمانية في برقة. وهذا ما سنوضحه بدراستنا الحركة السنوسية.

ثالثاً: السنوسية

ظهرت الحركة السنوسية كأهم الحركات الدينية الإصلاحية في شمال افريقيا والصحراء الكبرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. لقد بدأت في برقة ومنها امتدت إلى الأقاليم الأخرى. وكان انتشارها في المنطقة الغربية طرابلس وحدودها محدوداً، فقط في ١٨ زاوية وخصوصاً بين قبائل القبلة وسرت، ولكن لم يكن لها وجود ذو أهمية في مدن طرابلس[٤٧]. نرى أن عدم انتشار النفوذ السنوسي في طرابلس يرجع إلى نجاح الدولة العثمانية في إبقاء إدارة مركزية بمحاكمها وعلمائها. العلماء الطرابلسيون انتموا إلى الحركة السلفية الحضرية التي

---

(٤٤) صلاح الدين حسن سالم، «الضرائب العثمانية في طرابلس الغرب متصرفية بنغازي،» مجلة البحوث التاريخية، السنة ٦، العدد ١ (١٩٨٤)، ص ٢٠ ـ ٢١.

(٤٥) سالم، «الأوضاع القبلية في شرق ليبيا في العهد العثماني الثاني،» ص ٢٣.

(٤٦) Lisa S. Anderson, «Nineteenth Century Reform in Ottoman Libya,» *International Journal of Middle East Studies*, no. 16 (1984), p. 336.

(٤٧) انتشرت حركة المزدة التي كانت قلب الحركة السنوسية بين القبائل السنية في الجبل مثل الزنتان، وأولاد بوسيف، والرجبان والمشاشية. انظر: مجموعة أدهم، في: الدجاني، **الحركة السنوسية: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر**، الوثيقة رقم ٢٥، ص ٣٢٤.

بدأها الشيخ محمد عبده والأفغاني، وقد نظروا بعداء إلى الحركة السنوسية كحركة قبلية كما نجد في كتابات الشيخ طاهر الزاوي(٤٨). هذا الاختلاف بين العلماء الحضريين في طرابلس والحركة السنوسية يجب فهمه بالرجوع إلى القاعدة الاجتماعية لهما. وقد عكس الإسلام السنوسي مصالح القبائل وتجار الواحات، بينما العلماء الطرابلسيون عكسوا مصالح الحركة الإصلاحية السلفية لعلماء حضريين برواتب في بيروقراطية الدولة العثمانية.

تغلب على دراسات الحركة السنوسية، رغم تعددها، التحيز مع أو ضد الحركة، وقد اتسمت الكتابات الأوروبية وخصوصاً الفرنسية بالتحيز الصارخ لمقاومة السنوسية. كما أن التوسع الفرنسي في الصحراء الكبرى، الكتابات الإنكليزية وخصوصاً دراسة الأنتروبولوجي إيفانز بريتشارد رغم المعلومات الهامة عن الحركة عكست التحليل الانقسامي الأنتروبولوجي بالإضافة إلى أنها دفاع عن الانتصار الإنكليزي وتحديداً بعد التحالف مع القيادة السنوسية. نجد أيضاً كتابات مؤرخي السنوسية مثل شكري وحسنين والأشهب تضخم دور الحركة وتنظر بشكل متعالٍ إلى تاريخ برقة قبل ظهور السنوسية(٤٩). وأهم دراسة عن السنوسية وخصوصاً التاريخ السياسي، هي دراسة الدجاني. ولكن لا توجد دراسة للاقتصاد السياسي للسنوسية. سنحاول معالجة التاريخ السنوسي بعيداً عن هذه التحيزات من خلال مصالح القبائل والفلاحين(٥٠).

أصول إيديولوجية الإسلام السنوسي

أسس الحركة السنوسية عالم حضري شريف من الجزائر يدعى محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧ ـ ١٨٥٩) يعرف باسم السنوسي الكبير. درس هذا العالم في الجامعات الدينية في الجزائر والقرويين والأزهر والحجاز. ظهرت السنوسية نسبة إليه كحركة مقاومة جهادية دفاعية في فترة التوسع الامبريالي الأوروبي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. هذه الحركات الإصلاحية بدأت بالوهابية في نجد في القرن الثامن عشر، بعدها السنوسية في برقة والمهدية في السودان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. برزت الحركة الوهابية كرد فعل قبائل وتجار نجد لتدهور طرق التجارة عبر العراق وشمال الجزيرة. المهدية والسنوسية ظهرتا كرد فعل لفشل الدول الإسلامية المصرية والعثمانية في مواجهة الاستعمار الإنكليزي في وادي النيل والفرنسي في شمال افريقيا. هذا ليس غريباً، فكما قادت الحركات الاجتماعية الصوفية النضال الشعبي ضد الغزو الإسباني والبرتغالي في القرن السادس عشر، قامت الحركات الصوفية الإصلاحية الجديدة كالسنوسية والمهدية بأخذ المبادرة وتنظيم المقاومة ضد الامبريالية الأوروبية في أواخر القرن التاسع عشر.

---

(٤٨) الطاهر أحمد الزاوي، **جهاد الأبطال في طرابلس الغرب**، ط ٢ (بيروت: دار الفتح للطباعة والنشر، ١٩٧٠)، ص ٢٥٣.

(٤٩) حسنين، **في صحراء ليبيا**، ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٥٠) انظر: John Wright, «Outside Perceptions of the Sanusi,» *Maghreb Review*, vol. 13, nos. 1-2 (1988), pp. 63-69.

الامبريالية الأوروبية بدأت توسعها في المغرب الإسلامي بغزو الجزائر في عام ١٨٣٠ موطن السنوسي الكبير، تبعها ضم فرنسي لتونس في عام ١٨٨١ والمغرب في عام ١٩١٢. الاستعمار الإنكليزي احتل مصر في عام ١٨٨٢ والإيطالي بدأ هجومه على طرابلس الغرب آخر ولايات الدولة العثمانية في المغرب الإسلامي في عام ١٩١١. المقاومة ضد الاستعمار استلهمت النموذج الإسلامي لتنظيم الجهاد وبناء الدول كما حدث في دولة الأمير عبد القادر الجزائري (١٨٣٠ - ١٨٤٧)، السنوسيون في برقة وعبد الكريم الخطابي في شمال المغرب (١٩٢٠ - ١٩٢٥)[٥١].

تعطي الخبرة التاريخية الإسلامية نماذج لبناء الدولة خصوصاً فترة دولة المدينة والخلفاء الراشدين (٦٣٢ - ٦٦١) بالإضافة إلى النماذج الأخرى كالنظام الامبراطوري الأموي، العباسي، النظام الإمامي الشيعي والخارجي القرمطي. ولكن في ظروف المقاومة إعلان الجهاد وتعبئة المسلمين بداية طبيعية للدفاع عن العقيدة ودار الإسلام[٥٢]. وكان السنوسي الكبير عالماً ومفكراً فذاً ذا تعليم رفيع في جامعات شمال افريقيا والحجاز، كما أنه ذو خبرة سياسية واسعة بالعالم الإسلامي والمخاطر المحدقة به في منتصف القرن التاسع عشر، ناهيك عن الجانب الشخصي في تجربة السنوسي الكبير. فلقد احتلت بلاده ولم يعد بمقدوره العودة إلى الجزائر بعد عام ١٨٣٠. ولكنه كمؤسس حركة اجتماعية ناجحة، تميز السنوسي الكبير بمقدرة فائقة على تبسيط أفكاره للعامة. بعبارة أخرى، كان السنوسي مفكراً ذا ثقافة عالية وخبرة عملية اكتسبها من الدراسة والترحال، ولكنه أيضاً كان معلماً ممتازاً كما يتضح من نجاحه في استقطاب قبائل برقة واتباع من جميع أنحاء العالم الإسلامي. لقد قدم مئات الأشراف والعلماء إلى برقة في طريقهم إلى الحج في الحجاز، ولكن فقط السنوسي نجح في بناء حركة اجتماعية واسعة الانتشار. لو تأملنا في مثال من حياة السنوسي قبيل بناء مركز الحركة في واحة الجغبوب لوجدنا دليلاً على مقدرة السنوسي على التفكير الاستراتيجي البعيد الأمد وعلى قدرته على تبسيط أفكاره لأتباعه.

أثناء بناء الجغبوب التي أصبحت عاصمة السنوسية في عام ١٨٥٦، سأل السنوسي أتباعه: هل للطير عقل أم لا؟

أجابوا: لا.

السنوسي: ولكنه يضع بيضة في أعالي الجبال حتى لا تصله الذئاب (الثعالب). هل للجربوع عقل أم لا؟

أجابوا: لا.

---

(٥١) Edmund Burke III, «Understanding Arab Protest Movements,» *Arab Studies Quarterly*, vol. 8, no. 4 (1988), pp 336-338.

(٥٢) John Ralph Wills, «Jihad Fi Sabil Allah: Its Doctrinal Basis in Islam and Some Aspects of Its Evolution in Nineteenth Century West Africa,» *Journal of African History*, vol. 8, no. 3 (1967), pp. 395-415.

السنوسي: ولكنه يحفر في جحره منافذ عديدة للهروب من الحية. لهذا أحذركم من الحية السوداء التي ستأتيكم من اتجاه الشرق/الغرب.[٥٣].

هذا الحديث بين السنوسي وأتباعه يوضح قدرته التعليمية بالإضافة إلى وعيه بالمخاطر المحدقة بالعالم الإسلامي في تلك الفترة. كذلك عرف السنوسي أهمية الابتعاد عن عيون الإدارة العثمانية في البيضاء. لذلك قرر بناء مركز الحركة في مكان مضمور بعيد يواجه الجغبوب. لذلك «الحية السوداء» هي رمز الدولة العثمانية والاستعمار الأوروبي. ذكر حفيد السنوسي الكبير أحمد الشريف السنوسي والقائد الثالث للحركة السنوسية حديثاً عن جده: في عام ١٨٥٤ بمدينة درنة تنبأ السنوسي الكبير بتوسع الاستعمار الأوروبي على حساب العالم الإسلامي كما حدث في الجزائر. السنوسي ذكر أن إنكلترا ستغزو الاسكندرية (مصر) والنابلطان (مملكة نابلي) ستغزو طرابلس. حاصرت مملكة نابلي طرابلس في نهاية القرن الثامن عشر. عندما كان السنوسي مسافراً مر بطرابلس خلال هذا الحصار، وقال لأتباعه بأن الناس في الجبل الأخضر (برقة) سيجاهدون ضد الغزو الأوروبي بقيادة ابنه المهدي. أحمد الشريف ذكر بأن جده نبّه أتباعه بأن يبدأوا في الإعداد الاقتصادي والعسكري حتى يكونوا مستعدين عند مجيء النابلطان[٥٤].

ذكر المؤرخ الليبي عبد المولى الحرير الذي كتب أهم دراسة عن النظام التعليمي في الحركة السنوسية، بأن قادة الحركة السنوسية كانوا على وعي تام بالخطر الاستعماري الأوروبي على المنطقة[٥٥]. أهم إنجاز للسنوسي الكبير وعيه أهمية البناء التعليمي، الديني والسياسي لأتباعه لإعدادهم شيئاً فشيئاً للمواجهة القادمة. بعبارة أخرى، بدأ السنوسي بوضع الأساس وكان واعياً أهمية الإعداد الاقتصادي، النفسي والتعليمي أولاً، وبعدها العسكري. هذه الرؤية تدل على عقل ناضج وقيادة واعية قادرة على بناء حركة اجتماعية. هذه الرؤية ثبتت صحتها في نهاية القرن. نجحت السنوسية في النضوج بعد أربعين سنة من الإعداد، والاستعمار الأوروبي جاء إلى الصحراء في عام ١٨٩٩ (فرنسا) والنابلطان جاؤوا إلى طرابلس في عام ١٩١١.

بدأ السنوسي الكبير بدراسة القرآن ثم الصوفية في الجزائر، درس بعدها في جامعة القرويين المشهورة ف، فاس في عام ١٨٠٥ . درس السنوسي في جامعة القرويين الشريعة وبدأ بالتعرف على الطرق الصوفية. بعد أن أتم دراسته استلم درجة الإيجاز كعالم دين معترف به. وفي عام ١٨٠٤ زار السنوسي جامعة الأزهر خلال رحلته إلى الحج في الحجاز. هناك في الحجاز قابل السنوسي أستاذه عالم الدين أحمد بن إدريس الفاسي (١٧٤٩ - ١٨٣٧) الذي

---

(٥٣) أحمد صدقي الدجاني، أحاديث عن تاريخ ليبيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (طرابلس: دار المصراتي، ١٩٦٨)، ص ٨٣.

(٥٤) Abdul Mola S. El-Horeir, «Social and Economic Transformations in the Libyan Hinterland During the Second Half of the Nineteenth Century: The Role of Sayyid Ahmad Al-Sharif,» (Ph.D. Dissertation, History, UCLA, Los Angeles, 1981), p. 218.

(٥٥) المصدر نفسه.

كان عالماً دعا إلى فتح باب الاجتهاد في تفسير الشريعة الإسلامية والعودة إلى أصـول الإسلام الأساسية القرآن والحديث. وقد انتقد الفاسي دعاة التقليد أتباع المذاهب السنية الأربعة(٥٦).

انتقـد علماء الحجاز دعـوة الفاسي وتلميـذه السنوسي. ولـذلك اضـطر إلى الانتقال إلى اليمن في صحبة تلاميذه ومن ضمنهم السنوسي. عاش الفاسي وتـلاميذه في اليمن حتى ممـاته في عام ١٨٣٧. بعد وفاة أستاذه قرر السنوسي العودة إلى شمال افريقيا. ولكن الجزائر مـوطنه احتلت من قبل فرنسا في عام ١٨٣٠، كذلك علماء الحجاز والأزهر قابلوا أفكاره الإصـلاحية بعـداء سافـر. بل إن أحـد علماء الأزهر الشيـخ عليش كتب كتابـاً يشجب ويفند فيـه أفكار السنوسي خصوصاً انتقاد الأخير المذاهب الأربعـة ودعوتـه إلى فتح بـاب الاجتهاد(٥٧). لم تكن تونس في حسابه لأن فرنسا بدأت في الإعداد لاحتلالها أيضاً. وطـرابلس بنى العثمانيـون فيها إدارة مركزية جديـدة بعلمائها ومفتيهـا وقضاتهـا. كان السنـوسي حذراً من العلماء الحضريـين بالإضافة إلى أنه رأى أن الدولة العثمانية ضعيفة ولم تقم بحماية الجزائر، أو ربما لأنـه من أصل شريف، رأى أن الخـلافة يجب أن تكـون في قـريش. لم يبق في الشـمال الافـريقي إلا بـرقـة الإقليم الشرقي لولاية طرابلس الغرب وبالتحديـد دواخل بـرقة التي حكمتهـا قبائـل مستقلة عن الإدارة العثمانية. لذلك اختار السنوسي برقة، هـذا الإقليم النائي والصحـراوي، مكانـاً لبدء دعوته وحركته الإصلاحيـة الجهاديـة. فقدم إلى بـرقة بـرفقة بعض أتبـاعه من الحجـاز، اليمن، تونس، والسودان، وبنى أول مسجد أو زاوية في قلب الجبـل الأخضر بمدينـة البيضاء في عـام ١٨٤٢. رجع السنـوسي إلى الحجاز في عـام ١٨٤٦ حيث مكث مدة أربـع سنـوات رجع بعدها إلى برقة حيث عاش حتى وفاته ودفنه في واحة الجغبوب في عام ١٨٥٩.

كـما أسلفنا تقـع البيضاء في شـمال برقـة. ولما اكتشف السنـوسي كان قـريباً من عيـون الإدارة العثمانية، لذلك قرر بناء مركز دعـوته في الـدواخل بـواحة الجغبـوب في عام ١٨٥٦. وواحة الجغبوب ذات موقع اسـتراتيجي، أولاً، بسبب بعدهـا عن بنغازي ودرنـة مقر الإدارة العثمانية، كما أنه ثـانياً، مـركز مهم لقـوافل الحجـاج والتجارة بعـد أن أعاد السنـوسي بنائهـا كمركز لحركته.

رابعاً: العلاقات العثمانية ـ السنوسية

اتسمت العلاقات بين الدولة العثمانية والحركة السنوسية بالشك المتبادل نـظراً إلى خبرة السنوسي الكبير ورغبته في بناء حـركة إسـلامية إصـلاحية وسيـاسة الـدولة العثـمانية صـاحبة السيادة على ولايـة طرابلس الغـرب بما فيهـا برقـة وأهم دولة إسـلامية في النصف الثـاني من

---

(٥٦) لـلاطلاع عـلى حياة الفـاسي، انظر: Rex S. O'Fahey, *Enigmatic Saint: Ahmad Ibn Edris and the Idrisı Tradition* (Evanston, Ill.: North-Western University Press, 1990), and محمد بن علي السنوسي: «إيقاظ الوسنان،» ص ٥، و«المسائل العشر،» ص ١١ ـ ١٣، في: **المجموعة المختـارة** (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٨).

(٥٧) الدجاني، **الحركة السنوسية: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر**، ص ٦٢ ـ ٦٣.

القرن التاسع عشر. انتقد السنوسي التهاون والضعف العثماني في مواجهة التوسع الاستعماري الأوروبي. ولكن السنوسي كان طموحاً للقيادة، فلقد رأى في نفسه كعالم دين وسليل البيت النبوي الشريف أهلية لخلافة العالم الإسلامي. ذكر السنوسي في كتابه **الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية**: «العلماء وارثو الأنبياء»(٥٨) واعتقد السنوسي في النسب القريشي كأحد شروط الخلافة. وبحكم ادعائه النسب الإدريسي للبيت النبوي جعله مؤهلاً لدور الخلافة وادعاء البركة(٥٩).

تضمّن اكتفاء السنوسي في شرط النسب القريشي وادعائه الانتساب الشريف لعائلة الرسول عدم الاعتراف بالخلافة العثمانية الإسلامية لأن السلاطين العثمانيين ليسوا عرباً أو من قريش، كذلك لا ينتسبون إلى البيت النبوي الشريف. وقد نظرت الدولة العثمانية بعين الريبة إلى الحركة السنوسية التي بدأت في الظهور ببرقة بين القبائل المتمردة على السلطة العثمانية. بلا شك نظر إلى ظهور الدعوة السنوسية كتحدٍ للسيادة العثمانية وخصوصاً أن الحكومة العثمانية مرت بتجربة طويلة وصعبة مع الحركة السلفية الوهابية في نجد خلال القرن التاسع عشر. لهذه الأسباب انسحب السنوسي من شمال برقة القريبة من الإدارة العثمانية وعيونها إلى واحة الجغبوب في دواخل الصحراء في عام ١٨٥٦.

قرر محمد المهدي ابن السنوسي وخليفته الكبير ترك الجغبوب والانسحاب إلى واحات الكفرة في عمق الصحراء في عام ١٨٩٥. هذا الانتقال إلى الكفرة أو كما يسميها المؤرخ السنوسي الأشهب «هجرة» اتخذ بعد زيارة محمد المهدي في الجغبوب صادق مؤيد العظم رجل البلاط والمبعوث السلطاني العثماني. بعد هذه الزيارة، قال محمد المهدي السنوسي لمساعديه «زيارة هذا الشخص مريبة». فتذكّر محمد المهدي رغبة الدولة العثمانية في مراقبة السنوسيين ومعرفة نواياهم(٦٠). لهذا قرر نقل مركز الحركة من الجغبوب إلى الكفرة جنوباً في عمق الصحراء.

عكست السياسة العثمانية تجاه الحركة السنوسية شكوكاً في نوايا الحركة من خلال الخبرة مع الحركات الإصلاحية في الامبراطورية وخصوصاً مع الوهابيين. ولكن معظم التقارير من برقة وطرابلس مدحت الدور الديني التعليمي للزوايا السنوسية بين القبائل «الجاهلة» في

---

(٥٨) السنوسي، «إيقاظ الوسنان،» ص ٨.

(٥٩) محمد بن علي السنوسي، «الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية،» في: **المجموعة المختارة**، ص ٦ و١٨٣.

(٦٠) محمد الطيب الأشهب، **المهدي السنوسي** (طرابلس: مطبعة بلينوماجي، ١٩٥٢)، ص ٦٩. يرى ميشال ليغال بأن الباب العالي العثماني لم يمنح إعفاءات ضريبية إلى السنوسي، وبالرغم من أنه لم يعثر على وثائق بهذا الخصوص في اسطنبول، إلا أن الحقيقة تبقى أن السنوسي زوايا لم يدفع أية ضرائب. ولذلك يبقى أن يسعى ليغال إلى دعم وجهة نظره هذه بالاعتماد على المصادر والوثائق المحلية. انظر: Michel F. Le Gall, «The Ottoman Government and the Sanusiyya: A Reappraisal,» *International Journal of Middle East Studies*, no. 21 (1989), pp. 96-97.

برقة[٦١]. وقد قرر الباب العالي محاولة استقطاب الحركة السنوسية كما هي العادة مع معظم الأعيان وعلماء الشريعة والطرق الصوفية، أي دعوتهم إلى الإقامة في اسطنبول كما حدث مع الشريف حسين بن علي الذي درس في مدرسة أبناء الأعيان الشيخ الطرابلسي محمد ظافر المدني مؤسس الطريقة المدنية الذي أصبح مستشاراً للسلطان العثماني. أهم ملامح سياسة التقرب العثماني مع السنوسية هو إعفاء الزوايا السنوسية من الضرائب ومعاملتها كوقف إسلامي في عام ١٨٥٥.

كان قادة الحركة السنوسية، رغم انتقاداتهم الدولة العثمانية، حذرين في عدم الاصطدام معها بل حتى المحافظة على علاقة ودية، فهي برغم ضعفها أكبر دولة إسلامية في ذلك الوقت، والقيادة السنوسية بعثت وفدين إلى اسطنبول، مرة برئاسة شيخ زاوية بنغازي الأخضر العيساوي، وأخرى برئاسة الشيخ المجذوب. هذه الوفود بعثها السنوسيون لتدعيم علاقاتهم مع الدولة العثمانية وإبقاء شعرة معاوية معها. أدى الغزو الفرنسي لواداي في عام ١٨٩٨ والإيطالي لولاية طرابلس الغرب في عام ١٩١١ إلى قيام تحالف عثماني سنوسي لمواجهة عدوهم المشترك الاستعمار الأوروبي. بل إن القائد الثالث للحركة أحمد الشريف طلب من الدولة العثمانية بعث قائمقام إلى الكفرة لإيقاف الزحف الفرنسي بإعلان الحماية الدولية العثمانية، وبعد هزيمة الدولة العثمانية وانسحابها من الولاية أعلن السيد أحمد الشريف قيام الدولة السنوسية في عام ١٩١٣.

كان السنوسي الكبير عالماً مجدداً جمع بين دراسة عميقة للشريعة وأصول الدين وتحديداً المذهب المالكي مع تقدير كبير للإسلام الصوفي في الارتباط بالأهالي العاديين. كان المذهب المالكي والإسلام الصوفي الشعبي أهم ملامح الإسلام في المغرب الإسلامي بعد القرن السادس عشر. والمذهب المالكي هو الغالب في معظم أنحاء المغرب والاستثناء هو الأقلية الإباضية الخارجية، كذلك الحركات الصوفية عكست تكيف القبائل مع الإسلام الشعبي. وأدت الحركات الصوفية إلى تأسيس دول مركزية، كما انها قادت حركة المقاومة ضد الغزو الإسباني بعد فشل الدول المدينة في المقاومة. عكست أفكار السنوسي الكبير هذه التأثيرات المتعددة بالإضافة إلى تجديده وإبداعه في الربط بينها.

اعتقد السنوسي في أهمية الإعداد الديني والأخلاقي للمسلم وأهمية العمل الاجتماعي، بعكس بعض الحركات الصوفية التي تدعو إلى التعبد والانصراف عن الأعمال الدنيوية. ولكن السنوسي، من ناحية أخرى، كان معادياً للتقليد والتزمت الديني ودعا إلى تبسيط الإسلام للفئات الشعبية، ورأى في المؤسسات الصوفية كالزوايا حجر الأساس في بناء حركته الإصلاحية. خلاصة القول إن أفكار السنوسي مزيج بين المذهب المالكي والفكر الصوفي. انتقد السنوسي التقليد الأعمى للمذاهب الأربعة وانصراف بعض الصوفيين عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

---

(٦١) مجموعة أدهم في: الدجاني، الحركة السنوسية: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، الوثيقة رقم ٢١، ص ٣١٨.

هدف السنوسي الكبير هو توحيد الأمة الإسلامية في مواجهة التوسع الأوروبي. لذلك ركز على العوامل التي تخدم هذه الوحدة في التراث الإسلامي. ويتفق المسلمون على القرآن والسنة كمصادر للشريعة الإسلامية ولكن السنوسي انتقد التقليد الأعمى للمذاهب الأربعة للسنة. بجانب القرآن والسنة دعا السنوسي إلى فتح باب الاجتهاد في الشريعة في كتابه **إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن**[٦٢].

برر السنوسي دعوته إلى فتح باب الاجتهاد بتحليل يدل على ذكائه وعلمه الواسع بالفكر الإسلامي. أولاً الأحاديث النبوية كتبت بعد مئتي سنة من وفاة الرسول، وبالتالي هناك شك في معرفة شخص واحد لكل الأحاديث. ثانياً بعض الأحاديث المجمعة تتناقض في معانيها وبالتالي بعضها غير صحيح وبعضها لم يصلنا. ثالثاً ذكر السنوسي بأن علماء الإسلام في القرن التاسع عشر أكثر إلماماً بالأحاديث من علماء القرن التاسع أو العاشر لجمع معظم الأحاديث، والوسيلة الوحيدة لاكتشاف الصحيح من الأحاديث هي فتح باب الاجتهاد في الشريعة ومحاربة التقليد الأعمى المتزمت[٦٣].

كان السنوسي منطقياً مع هدفه في بناء حركة إصلاحية إسلامية جديدة. هذا الهدف تطلب التركيز على الأصول التوحيدية (القرآن والسنة) من ناحية ومحاربة التقليد المتصلب للمذاهب الأربعة التي ساهمت في التفرقة بين المسلمين. أما فتح باب الاجتهاد فهي أيضاً دعوة متسقة مع هدف السنوسي في خلق حركة جديدة مزجت بين الإسلام السني المالكي في أساسياته والمؤسسات الصوفية الشعبية. احتاج السنوسي لكي يبرر هذه الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد لكي يرد على خصومه المدافعين عن التقليد السلفي. لكي تتوحد الأمة الإسلامية لا بد من التركيز على القرآن والأحاديث المتفق عليها من كل المذاهب، أما الباقي فعرضة للنظر والدراسة[٦٤].

انتقد السنوسي الكبير بعض الحركات الصوفية. في كتابه **المسائل العشر** مثلاً انتقد دعاوى بعض الصوفيين في وصول مرحلة العرفان أو الاتحاد الكلي مع الله. كذلك انتقد انصراف بعض الصوفيين عن الحياة الدنيوية والانصراف الكلي إلى العبادة والتصوف. انتقد السنوسي أيضاً دعاوى الطرق الصوفية المختلفة بالتفرد وكأنها وحدها الفرقة الناجية الصحيحة. نجد في كتابه **السلسبيل المعين في الطرق الأربعين** نقداً ذكياً لأربعين طريقة صوفية. اعتقد السنوسي في تعدد الطرق إلى الله، أي طالما أوفى المسلم بالشروط الأساسية للإسلام فلا داعي إلى الاهتمام بالتفاصيل الفرعية، كذلك رفض دعاوى الفرقة الناجية والادعاء بالإسلام الصحيح بين الفرق الإسلامية[٦٥]. السنوسي هنا أيضاً يبدو متسقاً مع

---

(٦٢) السنوسي، «إيقاظ الوسنان،» ص ١٥ ـ ١٩.

(٦٣) المصدر نفسه.

(٦٤) محمد بن علي السنوسي، «السلسبيل المعين في الطرق الأربعين،» في: **المجموعة المختارة**، ص ٦.

(٦٥) الدجاني، **الحركة السنوسية: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر**، ص ١٦١، والسنوسي، «المسائل العشر،» ص ٩. للمقارنة بين السنوسية والطرق الصوفية الأخرى في القرن التاسع عشر، انظر: =

دعوته في التركيز على عوامل الوحدة الإسلامية التي تتطلب تسامحاً في التفاصيل وتركيزاً على العوامل الدينية المشتركة. وفي برقة طبق السنوسي دعوته الإصلاحية عملياً بتبسيطها لتتكيف مع الإسلام الشعبي بين القبائل. الإسلام السنوسي اتسم بحساسية للثقافة القبلية مع تركيز على أساسيات الإسلام وتنظيم للحياة الاجتماعية والاقتصادية.

ركزت إيديولوجية الإسلام السنوسي على التقشف، والالتزام الأخلاقي للأتباع، وتعبئة المسلمين في المقاومة الجهادية ضد الغزو الاستعماري. حاول السنوسي في برقة بناء مجتمع مسلم موحد ومعبأ للجهاد. أهم الوسائل لبناء هذا المجتمع هي: العمل، الاعتماد الذاتي والاعتماد على المصادر المحلية. بنيت الحركة السنوسية على أساس النموذج الإسلامي للدولة في ما يخص الضرائب، القانون، التعليم وتبرير الجهاد والمقاومة. كما اعتمدت السنوسية على المؤسسات الصوفية الشائعة في النظام القبلي الإسلامي في الشمال الافريقي وخصوصاً مؤسسة الزاوية. وقد بدأت الطرق الصوفية في الانتشار كرد فعل لأزمة فشل الدول المدينة الإسلامية في مواجهة الغزو الإسباني والبرتغالي في القرن الرابع عشر والزاوية هي مكان للعبادة، مسكن للإخوان أو أعضاء طريقة صوفية، حرم للاجئين، وأحياناً ضريح أو مقام مبارك نظراً إلى دفن ولي صوفي في زاوية محددة التي عادة ما تصير مكاناً للزيارة طلباً في البركة من قبل أتباع الطريقة. وقد ركز السنوسي الكبير على الزوايا الصوفية كحجر الأساس لحركته.

اختار السنوسي الكبير مواقع استراتيجية لبناء الزوايا السنوسية، إما بين الأوطان القبلية أو في مراكز طرق التجارة، أي أعطى الانطباع للقبائل بأنه يريد توحيد جهودهم. كذلك ركز على التجارة التي أصبحت مورداً هاماً للحركة في المستقبل. بدأ السنوسي حركته ببناء زاوية البيضاء، وأعلن عن رغبته في تعليم أبناء القبائل القرآن واللغة. وعندما نجح في تعليم بعض الأطفال في البيضاء بدأت شهرته كعالم وولي من أصل نبوي شريف في الانتشار مما شجع قبائل أخرى على طلب بناء زوايا في أوطانهم وإرسال أحد الإخوان السنوسيين للإشراف عليها. هذا الإقبال من قبل القبائل ليس غريباً، فوجود الدولة العثمانية، كما أسلفنا، كان محصوراً في المراكز الساحلية، وغياب المؤسسات الإدارية والتعليمية العثمانية فسر إقبال القبائل على المؤسسات التعليمية السنوسية.

كمثال على انتشار الزوايا السنوسية وجدنا رسالة من السنوسي الكبير إلى شيخ المغاربة صالح الاطيوش «قمنا ببناء زاوية وأرسلنا أحد الإخوان للصلاة بالناس ولتعليم القرآن حتى يعرف الناس دينهم ولكي تزدهر الزراعة والاستقرار»[٦٦].

اتبع السنوسي سياسة البدء بالتعليم الديني للأطفال والتدخل في فض المنازعات القبلية وتوسيع أراضي الزوايا. هذه الخدمات التعليمية والدينية وجدت رد فعل إيجابي عند القبائل.

يحمل السنوسي كعالم دين معروف بالتدين وذي نسب نبوي شريف البركة. وقد لقيت

B.G. Martin, *Muslim Brotherhoods in Nineteenth Century Africa*, African Studies; 18 (Cam-= bridge: Cambridge University Press, 1976), pp. 99-124.

(٦٦) محمد الطيب الأشهب، السنوسي الكبير (القاهرة: مكتبة القاهرة، ١٩٥٦)، ص ٢٤.

دعوته الدينية التوحيدية المبسطة صدى طيب في قبائل برقة. ووجدنا رسالة من السنوسي إلى قبائل العواقير الذين طلبوا منه بناء زاوية في وطنهم. رد السنوسي «بعث لكم الإخوان لبناء زاوية حتى تستطيعوا وأبناؤكم تعلم القرآن والشريعة»(٦٧).

لم تكن الزوايا السنوسية مكان للعبادة وتعليم القرآن فقط بل حرم للاجئين ومكان لفض المنازعات أو بديل للمحاكم. تدخل السنوسي الكبير في الصراع القبلي بين الزوية والتبو في منطقة الكفرة وصالح بينهما. وتتضح قدرة السنوسي ومهارته في حل المنازعات في رسالته إلى قبيلة التبو:

«جاءنا بعض شيوخ قبيلة الزوية وسألونا السماح والعفو وبناء زاوية في تازربو. نحن نرغب في أن نكون جيرانكم لنعلمكم كتاب الله. نرغب في مصالحتكم مع العرب (قبيلة الزوية) الذين يهاجمونكم ويسلبون أموالكم وأطفالكم بالرجوع للقرآن الذي يتطلب التصالح بين المسلمين»(٦٨).

كانت دعوة السنوسي إلى القبائل أساسية وبسيطة. لكي تصبح مسلماً سنوسياً لا تحتاج إلى درجة عالية من التعليم بل فقط القدرة على الصلاة والذكر(٦٩). وقد بدأ الأطفال تعليمهم في الزوايا وأكملوه في المعهد السنوسي العالي في الجغبوب. وأعطى المعهد السنوسي العالي في الجغبوب دروساً في اللغة العربية والشريعة وأصول الدين والرياضيات والتدريب العسكري وتحديداً استخدام البنادق. وقد ضمت مكتبة المعهد ٨,٠٠٠ كتاب في مختلف المجالات(٧٠). قام المعهد بتدريب وتعليم الدعاة السنوسيين وبعد نمو الحركة عمل القادة السنوسيون على تعليم أبناء قبائل من تشاد وأرسلوا إلى قبائلهم لنشر الدعوة السنوسية مما أدى إلى انتشار الإسلام السنوسي في معظم شمال تشاد.

لقيت الدعوة السنوسية صدى عند القبائل والتجار. وقد رغّب تركيز السنوسي على ضرورة الاهتمام بالحياة العملية كالزراعة والتجارة والتجديد التجار في دعوته كالغداسية والمحايرة والزوية. بالإضافة إلى القبائل شبه الرحل، مثل الزنتان، أولاد بوسيف في منطقة القبلة، أولاد سليمان في سرت وفزان، الطوارق والتبو في فزان وتشاد(٧١) (انظر توزيع الزوايا السنوسية في خريطة رقم (٤ ـ ١)).

قامت الزاوية السنوسية في عام ١٨٧٠ بوظائف عديدة: مسجد للصلاة، مدرسة لتعليم الأطفال، مكان لإقامة شيخ الزاوية وعائلته، بيت ضيافة للمسافرين وقوافل التجارة، وحرم للاجئين(٧٢). وأعطيت إدارة الزاوية لأحد الإخوان السنوسيين يعرف كشيخ أو مقدم

---

(٦٧) الدجاني، المصدر نفسه، ص ٢٧٠.

(٦٨) الأشهب، المصدر نفسه، ص ١٥٠.

(٦٩) El-Horeir, «Social and Economic Transformations in the Libyan Hinterland During the Second Half of the Nineteenth Century: The Role of Sayyid Ahmad Al-Sharif,» pp. 108-109.

(٧٠) Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica*, p. 14.

(٧١) الدجاني، الحركة السنوسية: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، ص ١٦٠.

(٧٢) شكري، السنوسية دين ودولة، ص ٤٩؛ Evans-Pritchard, Ibid., p. 79, and الدجاني، المصدر نفسه، ط ١ (١٩٦٧)، ص ٢٣٩.

الزاوية يساعده وكيل الزاوية المكلف بالأعمال الإدارية والاقتصادية وآغا لجمع الزكاة. وهيئة إدارة الزاوية تقوم بقيادة الصلاة، تعليم الأطفال، جمع الزكاة والاستثمار في تجارة القوافل، بالإضافة إلى العمل كقضاة محكمين لفض النزاعات القبلية التجارية(٧٣). برأينا السنوسية في عام ١٨٧٠ أصبحت لها كل عناصر الدولة من أرض، أتباع، اقتصاد، إدارة وإيديولوجيا. بعبارة أخرى، بنت السنوسية إدارة بديلة للإدارة العثمانية في طرابلس.

كان السنوسي الكبير بلا شك شخصية فذّة نجحت في بناء حركة اجتماعية جديدة ولكننا لا نرغب في تضخيم دوره لأن نجاح السنوسية بني على قدرة المجتمع الأهلي في برقة الذي وفرت له السنوسية القيادة والمثال. واستفادت السنوسية من المؤسسات القبلية والتجارية التي وجدت في برقة، ووحدت ونسقت التعاون بين هذه القبائل والتجار فلم تخلق مؤسساتها من لا شيء.

نجحت زوايا السنوسية لأنها بنيت في أماكن بعيدة عن الإدارة العثمانية في دواخل الصحراء والواحات مثل جالو، أوجلة، الكفرة، سيوة وقرو. وقد شيدت عواصم الحركة الثلاث الجغبوب (١٨٥٦ ـ ١٨٩٥)، الكفرة (١٨٩٥ ـ ١٨٩٩) وقرو (١٨٩٩ ـ ١٩٠٢) في شمال شرقي تشاد كلها كمراكز ومحطات مهمة لتجارة القوافل عبر الصحراء. وأصبحت تجارة القوافل مصدراً أساسياً لدخل الحركة السنوسية بعد عام ١٨٧٠ بالإضافة إلى أنها ساعدت الدعاة على نشر الإسلام السنوسي. وأهم القبائل التجارية في برقة الزوية والمجابرة صارت من أتباع السنوسية. المجابرة سيطروا على التجارة في جالو وبنغازي ومصر، والزوية سيطروا على تجارة القوافل عبر الكفرة منذ عام ١٨٤٠(٧٤). وعندما أصبح محمد الشريف، الذي قابل السنوسي في الحجاز وأعجب بدعوته، سلطاناً على سلطنة واداي في عام ١٨٣٨ استمر التحالف والولاء للسنوسية حتى سقوط السلطنة في عام ١٩٠٩(٧٥). وقد ربط ولاء قبائل الصحراء التجارية وسلاطين واداي بين شمال تشاد وشرق برقة ومصر. لذلك ليس من الغرابة أن تزدهر تجارة القوافل في نهاية القرن التاسع عشر بين واداي الكفرة، بنغازي ومصر.

خلاصة القول إن الحركة السنوسية تلاقت مع المؤسسات القبلية التجارية، ولكن في الوقت نفسه ركزت على العوامل التوحيدية غير القبلية والأرستقراطية. وكان الإسلام هو

---

(٧٣) الدجاني، المصدر نفسه، ص ٢٣٨، وحسنين، في صحراء ليبيا، ص ٤٦.

(٧٤) Rosita Forbes, «Across the Libyan Desert to Kufra,» *Geographical Journal*, vol. 58, no. 2 (August 1921), pp. 88 and 100; حسنين، المصدر نفسه، ص ٥٤ و١٩٣، و Cordell, «Eastern Libya, Wadai and the Sanusiyya: A Tariqa and a Trade Route,» p. 31.

(٧٥) Humphrey J. Fisher and Virginia R. Fisher, «Fire Arms in Central Sudan,» *Journal of African History*, vol. 12, no. 2 (1971), p. 223; Joseph P. Smaldone, «The Fire Arms Trade in the Central Sudan in the Nineteenth Century,» in: Daniel F. McCall and Norman R. Bennett, eds., *Aspects of West African Islam* (Boston: University African Studies Center, 1971), pp. 154-159, and

شكري، السنوسية دين ودولة، ص ٦٤.

العامل التوحيدي الذي ربط بين القبائل السوداء من التبو والعرب، بين القبائل الأرستقراطية السعادية والمرابطين، بين الإخوان من الحجاز إلى فلسطين، مصر، السودان وتونس الذين جاؤوا مع السنوسي الكبير إلى برقة. وقد أعطى تشجيع تجارة القوافل الحركة مصادر مالية وسهل دعاتها على الانتشار في الصحراء الكبرى(٧٦). كذلك لا بد من الأخذ في الاعتبار بأن نجاح السنوسية اعتمد على الدعوة السلمية واقتناع الأتباع وليس على الفتح والغزو العسكري، مما جعل السنوسيين قوة موحدة وصلبة حاربت القوات الاستعمارية الفرنسية في عام ١٨٩٩، والإنكليزية في عام ١٩١٦، والطليان من عام ١٩١١ إلى عام ١٩٣٢. ومعظم قادة الحركة السنوسية وتعد من الزوايا خريجي المعهد العالي السنوسي في الجغبوب. كما أعطى التعليم السنوسي الطلاب من قبائل مختلفة مرابطين وسعادي عرب وسود الفرصة في المنافسة والترقي إلى المناصب القيادية. هذا البناء الصلب للسنوسية يفسر استمرار مقاومة الطليان عشرين سنة بالمقارنة بصراعات الأعيان والقبائل في منطقة طرابلس مما سهل على الطليان استغلال التناقضات بين النزاعات واحتلال منطقة طرابلس، بعد عشر سنين من بداية الغزو في عام ١٩٢٢.

توسعت الحركة السنوسية بعد وفاة السنوسي الكبير حتى أصبحت أهم حركة إصلاحية في شمال افريقيا والصحراء كما تبين دراسة انتشار وبناء الزوايا السنوسية بين عامي ١٨٥٩ - ١٩٢٠. أولاً، عندما توفي السنوسي الكبير كان عدد الزوايا ٥٢ في عام ١٨٥٩(٧٧) ولكن في عام ١٩٢٠ ازداد عدد الزوايا إلى ١٤٦ توزعت كالآتي: ٤٥ في برقة، ٣١ في غرب مصر، ٧ في الحجاز، ١٨ في طرابلس، ١٥ في فزان، ٦ في الكفرة، و١٤ في السودان وتشاد (انظر الخريطة رقم (٤ - ١)). وقد قامت الزوايا السنوسية بوظيفة الوحدات الإدارية والاقتصادية كبديل للإدارة العثمانية في طرابلس. وكما توضح خريطة توزيع الزوايا السنوسية في عام ١٩٢٠ أيضاً، دعمت الحركة السنوسية الاقتصاد الإقليمي لوادي وبرقة وغرب مصر. فقد وجدت ٣١ زاوية سنوسية في غرب مصر في عام ١٩٢٠. بنيت هذه الزوايا في مواطن القبائل البرقاوية المهاجرة في الصحراء الغربية مثل أولاد عونا، البهجة، الهنادي، الحرابة، الفوايد،

---

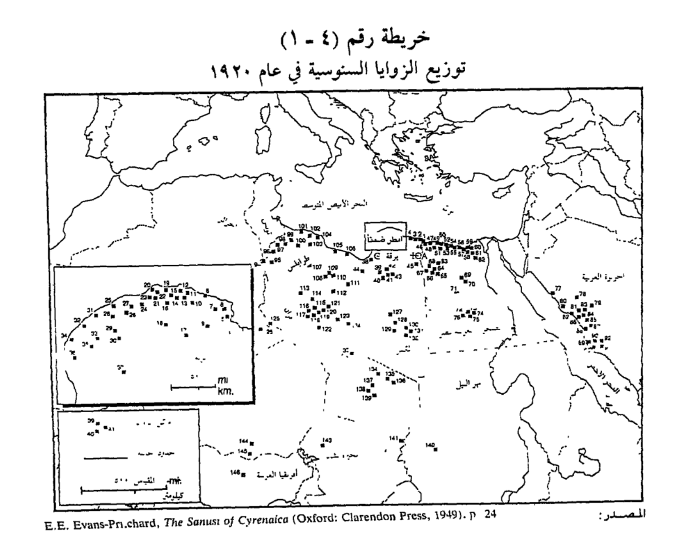
(٧٦) Abner Cohen, «Cultural Strategies in the Organization of Trading Diasporas,» in: Claude Meillassoux, ed., *The Development of Indigenous Trade and Markets in West Africa* (London: Oxford University Press, 1971), p. 266.

إن الأوصاف التي نعتت بها السنوسية كحركة غير واقعية في كتاب نقولا زيادة *...Sanusiyyah* أو الرمزية التي أغدقها ب.ج. مارتن في كتابه *...Muslim Brotherhoods* على الحركات العسكرية والمعتدلة والمحافظة، حيث وصف السنوسية بالمعتدلة، كل هذه خرجت على تعقيدات ومفاهيم القرن التاسع عشر. فالسنوسية كانت مثالاً يحتذى في التعليم وتنظيم التجارة، لما قدمته من تغييرات ثورية بالنسبة إلى مفاهيم تلك الفترة. انظر:

Nicola Abdo Ziadeh, *Sanusiyyah: A Study of a Revivalist Movement* (Leiden: Brill, 1958), and Martin, *Muslim Brotherhoods in Nineteenth Century Africa.*

(٧٧) كان عدد الزوايا في ليبيا ٣٧، وفي الحجاز ٦، وفي مصر ٨، وفي تونس واحدة، بينما زاد العدد بعد وفاة السنوسي الكبير وتولي ابنه القيادة (١٨٥٩ - ١٩٠٢) فزاد عدد الدور إلى ١٠٧: ٣٠ في ليبيا، ١١ في مصر، ٦ في وسط السودان، واحدة في الجزائر و٧ في الحجاز. انظر: الأشهب، السنوسي الكبير، ص ٣٨ و٤٢.

خريطة رقم (٤ - ١)
توزيع الزوايا السنوسية في عام ١٩٢٠



المصدر: E.E. Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica* (Oxford: Clarendon Press, 1949). p 24

الجميعات وأولاد علي. ووصل عدد هذه القبائل إلى ٧٠,٠٠٠ منهم ٣٠,٠٠٠ حرابة و٤٠,٠٠٠ أولاد علي ومرابطين[٧٨].

خامساً: الاقتصاد الإقليمي لواداي وبرقة وغرب مصر

لا بد من الأخذ في الاعتبار الاقتصاد الإقليمي، لمنطقة وادي وغرب مصر وبرقة لفهم التحولات الاجتماعية لبرقة في القرن التاسع عشر، لأن برقة ارتبطت اجتماعياً واقتصادياً بهذه المناطق. وقد شكلت الصحراء الغربية ووادي النيل تاريخياً امتداداً تاريخياً وفضاءً جغرافياً للهروب من الضغوط السكانية والحروب في برقة. رؤية هذا الاقتصاد الإقليمي يبين مدى هشاشة الحدود السياسية التي رسمت في بداية القرن العشرين لتفصل بين القبائل والفلاحين، كذلك إذا أردنا فهم التكوينات الطبقية والأسواق التجارية لقبائل برقة لا بد إذن من معرفة الاقتصاد الإقليمي بشكل عام.

أسلفنا بأن سنين الجفاف والحروب الأهلية بين القبائل أو بين القبائل والدولة المركزية في طرابلس ضغطت على القبائل المهزومة أو المهددة بالمجاعة بالهجرة إلى منطقة الفضاء الجغرافي في الصحراء الغربية. ولكن القبائل المهاجرة تصغط عليها القبائل المهاجرة حديثاً، وهذه السلسلة نجدها في سكان الصحراء الغربية مثل أولاد علي وقبلهم الهنادي وأولاد عونا، وقبلهم الجوازي والفوايد. بعض هذه القبائل الحديثة الهجرة كأولاد علي مارسوا الرعي والتجارة حتى منتصف القرن العشرين ولكن الكثير من القبائل البرقاوية اضطرت إلى الاستقرار في وادي النيل كفلاحين بينما أصبح بعض شيوخ القبائل ملاك أراضٍ.

أول قبائل برقة المهاجرة في القرن الثامن عشر هي أولاد عونا وبعدهم الهنادي. وفي منتصف القرن الثامن عشر هزمت قبيلة الهنادي أولاد عونا مما جعل أولاد عونا تنبذ الترحال والاستقرار في وادي النيل كفلاحين. ولكن جاء دور الهنادي عندما هزمهم أولاد علي الذين هربوا من برقة بعد هزيمتهم من أولاد عمهم العبيدات في عام ١٨١٧[٧٩]. وفي بداية القرن العشرين، وجدت معظم قبائل برقة لها عشائر أو أقارب في الصحراء الغربية أو وادي النيل. هذه الهجرة إلى المتنفس الجغرافي أيضاً دعمت العلاقات التجارية مع غرب مصر السوق الطبيعي للفائض الرعوي من برقة.

في عام ١٩٠٠ نجد غالبية القبائل البرقاوية المهاجرة وخصوصاً البهجة، الفوائد، الهنادي وأولاد عونا أصبحت مستقرة كفلاحين وبعض الشيوخ أصبحوا ملاك أراضٍ. وقد جنّد محمد علي باشا وخلفاؤه الذين حكموا مصر خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول

---

(٧٨) George William Murray, *Sons of Ishmael; A Study of the Egyptian Bedouin* (London: George Routledge and Sons, Ltd., 1935), p. 227.

(٧٩) هناك خلاف في النصوص حول تاريخ آخر هزيمة لأولاد علي ونفيهم إلى مصر، فيشير دي أوغسطيني في دراسته عن سكان سيرنيكا إلى أن ذلك حدث عام ١٨٦٥، بينما يشير موراي إلى عام ١٧٨٩. انظر: Di Agostini, *Le Populazioni Della Cirenica*, p. 196, and Murray, Ibid., p. 30.

من القرن العشرين العديد من قبائل البدو البرقاوية كجنود في الجيش المصري وتحديداً في عام ١٨٣٠(٨٠).

اتبعت الحكومة المصرية في القرن التاسع عشر سياسة الاستقطاب مع شيوخ القبائل البدوية في الصحراء الغربية بإعطائهم إقطاعيات كبيرة وتحويلهم إلى ملاك أراض. هذه السياسة نجحت في كسر العصبية العسكرية القبلية، وبمرور الوقت اضطر معظم أنصار القبائل العاديين إلى الاستقرار كفلاحين في قرى وادي النيل والدلتا. من أهم شيوخ القبائل الذين أصبحوا ملاك أراض: شيخ الفوايد عمر كيشار الذي ملك ٤٨١ فداناً في عهد محمد علي في منطقة المنيا و٨٦٥ فداناً في عهد الخديوي اسماعيل، شيخ قبيلة الجوازي علي الباسل ملك ٤٨١ فداناً في منطقة المنيا (حفيده حمد الباسل كان أحد قادة ١٩١٩ المصرية)، الشيخ عمر المصري أحد شيوخ الجوازي أعطى أرضاً زراعية حجمها ٩٦١ فداناً في منطقة المنيا في عهد محمد علي، شيخ الهنادي محمود سلطان ملك عزبة حجمها ٤,٠٥٠ فداناً في منطقة الشرقية في عهد الخديوي عباس الثاني. وفي نهاية عهد الخديوي اسماعيل (١٨٧٩) كان هناك ٢٠٧ ملاك أراض كبار من أصول بدوية برقاوية. في عام ١٩٠٢ بلغ حجم أملاك للموم السعدي، أحد شيوخ الفوايد، الزراعية ٤,٠٠٠ فدان وأخوه محمود للموم ٣,٠٠٠ فدان في منطقة المنيا، بينما ملك حمد الباسل من قبيلة الجوازي ١,١٩١ فداناً في منطقة الفيوم(٨١).

أولاد علي هم أحدث القبائل البرقاوية التي هاجرت إلى الصحراء العربية في عام ١٨١٧، لأنهم عاشوا في بيئة صحراوية شبيهة بدواخل برقة. لهذا استمروا في ممارسة الرعي والتجارة والتهريب حتى منتصف القرن العشرين. لذلك كانت التحولات الطبقية من النظام الجماعي القبلي إلى الطبقة الفلاحية وملاك الأراضي بطيئة لقوة الدولة المصرية وعدم حاجتها إلى استقطاب شيوخ القبائل، بالإضافة إلى أن العلاقات القبلية وأولاد علي أعيد إنتاجها في بنية الصحراء الغربية في الشمال، فأصبحت واحتا بسيوة والخارجة مصدراً للتمور كما في واحتي برقة وأولاد علي الذين كانوا من أتباع الحركة السنوسية(٨٢).

قامت زوايا الحركة السنوسية في دواخل الصحراء بوظائف المدن الساحلية في برقة، فقد قدمت خدمات أساسية للقبائل: تنظيم التجارة، التعليم، فض المنازعات ومراكز للعبادة. بدأت الزوايا في تدريب القبائل على استخدام السلاح عندما بدأ زحف الجيش الفرنسي في تشاد عام ١٨٩٩. المؤرخ المصري فؤاد شكري قدر عدد القوة القبلية المسلحة لأتباع السنوسية بحوالى ٥٤,٠٠٠ مقاتل عام ١٨٨٠(٨٣).

يرجع نجاح الحركة السنوسية إلى تفهم قادة الحركة المجتمع القبلي في برقة والصحراء وبالذات النظام الاجتماعي. بدأت الحركة بدعوة إصلاحية إلى المقاومة في عصر الامبريالية

(٨٠) Murray, Ibid., pp. 31 and 289.

(٨١) للاطلاع على تفاصيل أوفى، انظر: علي محمد بركات، تطور الملكية الزراعية في مصر وأثره على الحركة السياسية، ١٨١٣ ـ ١٩١٤ (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٧)، ص ٢٦١ ـ ٢٧٦.

(٨٢) Murray, Ibid., p. 113.

(٨٣) شكري، السنوسية دين ودولة، ص ٥٢.

الأوروبية، نمت بازدهار تجارة القوافل لتصبح دولة في عام ١٩١٣. وقد بنيت الزوايا السنوسية في الأراضي الحدودية بين القبائل لتجاوز العصبيات القبلية. النظام التعليمي السنوسي بتركيزه على الإسلام جمع بين القبائل المختلفة سعادي ومرابطين، عرب وتبو، والمبرزون في معهد الجغبوب، بغض النظر عن أصولهم، أصبحوا الدعاة وشيوخ الزوايا في ما بعد. واستطاعت القبائل السنوسية في نهاية القرن التاسع عشر أن ترفض دفع الضرائب للدولة العثمانية. وقد كتب المدير العثماني لواحة أوجلة في تقريره إلى رؤسائه بأن القبائل ترفض دفع الضرائب للدولة العثمانية ولكن ترسل ٥,٠٠٠ جملاً محملاً بالحبوب والتمور كزكاة لمركز الحركة السنوسية في الجغبوب في عام ١٨٨٠[٨٤].

سادساً: الدولة السنوسية

برغم أن الحكومة السنوسية قد أُعلنت رسمياً أول مرة في عام ١٩١٣ بعد أن وقعت الدولة العثمانية اتفاقية سلم مع إيطاليا، أعلن أحمد الشريف الجهاد وقيام الحكومة السنوسية، إلا أننا نرى أن هذه الدولة كانت قائمة من الناحية العملية بغض النظر عن الإعلان عنها، فزعم بأن الدولة السنوسية كانت لها المقومات الأساسية في عهد القائد الثاني محمد المهدي السنوسي وخصوصاً في عام ١٨٩٠. أهم مؤسسات السنوسية المجلس العالي للإخوان وكبار العلماء الذي كان على رأسه شقيق محمد المهدي محمد الشريف، وكان الإخوان أو علماء السنوسية في الجغبوب خليطاً لعلماء دين من برقة، طرابلس، مصر، السودان والحجاز، وهو دليل على الإيديولوجية التوحيدية للحركة. ويجتمع مجلس الإخوان مرة كل سنة لوضع السياسة العامة للحركة السنوسية، بعدها يقوم قائد الحركة محمد المهدي بمراجعة وتنفيذ قرارات مجلس كبار الإخوان[٨٥].

بالإضافة إلى مجلس كبار الإخوان كان هناك المجلس الخاص، ووظيفته هو الإشراف على تنفيذ قرارات مجلس كبار الإخوان بتشكل يومي. ويشرف المجلس الخاص على المعهد العالي في الجغبوب، تقديم الخدمات لتجار القوافل، مراجعة نشاط الدعاة وجمع الزكاة والأعشار من الزوايا والتدريب العسكري[٨٦].

المؤسسة التعليمية من أهم مؤسسات الحركة السنوسية، هي سبب نجاح السنوسي الكبير في برقة، بالإضافة إلى أنها استمرت كمؤسسة لتعليم الإسلام السنوسي من الطفولة وحتى التخرج في المعهد العالي في الجغبوب.

---

(٨٤) مجموعة أدهم، في: الدجاني، الحركة السنوسية: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، ط ٢ (١٩٨٨)، الوثيقة رقم ٤٩، ص ٣٥٢.

(٨٥) الأشهب، المهدي السنوسي، ص ٣٥.

(٨٦) المصدر نفسه.

جدول رقم (٤ - ٢)

الدولة السنوسية في الجغبوب، عام ١٨٩٠

الإمام محمد المهدي السنوسي

مجلس كبار الإخوان
السلطة التشريعية

التشريفات
مستشاري الإمام

المجلس الخاص
السلطة التنفيذية

التعليم | البريد | الدعوة | الإسكان الضيافة وقوافل التجارة | التدريب العسكري

الزوايا الإقليمية

طرابلس | فزان | الكفرة | مصر | الحجاز

زاوية زاوية زاوية زاوية زاوية زاوية زاوية زاوية زاوية زاوية زاوية زاوية زاوية زاوية زاوية

في عام ١٨٩٧ بلغ عدد الطلاب في النظام التعليمي السنوسي حوالى ٥,٠٠٠ منهم ٢,٠٠٠ في المعهد العالي بالجغبوب. ازداد هذا العدد ليصل ١٥,٠٠٠ عام ١٩٠٠[(٨٧)]. سمح النظام التعليمي السنوسي للعديد من أبناء القبائل المرابطين والجماعات الإثنية غير الأرستقراطية تبوء مناصب عالية في الحركة لأن السنوسية حاولت تجاوز العصبيات القبلية. لذلك نجد عدداً كبيراً من قادة المقاومة ضد الاستعمار الإيطالي من أصول متواضعة، أي مرابطين أو غير برقاوية أصلاً مثل عمر المختار، يوسف بورحيل، الفضيل بوعمر، وفضيل المهشمش كلهم من أصول قبلية مرابطية، وآخرون مثل عثمان الشامي من أصل فلسطيني، وعبد الله قجة من تشاد[(٨٨)]. هؤلاء الشيوخ برزوا في المعاهد السنوسية ومن ثم أصبحوا قادة للحركة ولقبائل سعادية.

وحاول قادة الحركة السنوسية مصالحة القبائل المتعادية كما حدث في مؤتمر السلوم في عام ١٩١٠. ترأس أحمد الشريف السنوسي هذا المؤتمر بغرض مصالحة القبائل السعادية التي حاربت بعضها في الماضي وخصوصاً قبائل الجوازي الهنادي وأولاد علي الذين طردوا من برقة مع أبناء عمومتهم بقية قبائل السعادي العشر في برقة. هذا المؤتمر نجح في التخفيف من

(٨٧) El-Horeir, «Social and Economic Transformations in the Libyan Hinterland During the Second Half of the Nineteenth Century: The Role of Sayyid Ahmad Al-Sharif,» p. 95.

(٨٨) المصدر نفسه، ص ٩٣.

المشاعر العدائية بين القبائل، والدليل تعاونها في الحرب ضد الطليان وحتى الإنكليز في عام ١٩١٦[٨٩].

جاءت مصادر دخل الدولة السنوسية من الزكاة والأعشار وريع تجارة القوافل التي دفعتها القبائل والتجار وأراضي الزوايا السنوسية لمركز الحركة في الجغبوب سنوياً. معظم الزوايا حصلت على أرض مهداة لها من القبائل، بل إن رجال القبائل عادة ما تطوعوا لحرث وحصد أراضي الوقف السنوسية بلا مقابل. هذه المصادر أو الفائض ذهب إلى الجغبوب وبعدها الكفرة للصرف على الإخوان، الأسرة السنوسية، الدعاة، المعهد العالي والزوايا النائية.

عجل التوسع الأوروبي وتحديداً الفرنسي في تشاد ضد زوايا الحركة هناك ببداية التدريب العسكري وشراء السلاح للمواجهة القادمة. بدأ معهد الجغبوب والزوايا في تدريب القبائل على حمل السلاح والرماية. كما حاول قادة الحركة السنوسية شراء السلاح من أي مكان وتحديداً مصر وطرابلس. وفي عام ١٨٩٠ كان بحوزة الحركة ٦٠٠ بندقية[٩٠]. حاول أحمد الشريف القائد الثالث للحركة شراء السلاح من مصر لمواجهة الجيوش الفرنسية في تشاد في عام ١٨٩٩. حاولت المخابرات الإيطالية استغلال الصراع السنوسي الفرنسي في تشاد للتقرب من السنوسية كنوع من الإعداد أو لخلق تحالف قبيل غزو الولاية.

لذلك أهدى القنصل الإيطالي في القاهرة بعض الهدايا والأسلحة لأحمد الشريف في عام ١٩٠٥. رد أحمد الشريف رداً عكس حنكته ووعيه السياسي في تلك المرحلة:

«ليس هناك أعز علينا في الحياة أكثر من السلاح والكتب. بالسلاح نستطيع هزيمة أعدائنا وبالكتب نوسع معرفتنا، وهذا أهم شيء للمسلمين.. نحن نطلب إذا لم تمانعوا ٤ مسدسات و١,٠٠٠ بندقية»[٩١].

أحمد الشريف لم يكن غافلاً عن الدوافع الإيطالية في شمال افريقيا ولكنه كان في حاجة ماسة إلى السلاح لمحاربة الفرنسيين الذين استولوا على زاوية بيرعلالي وقتلوا شيخها. كما أن عمه محمد المهدي مات وهو يقود المقاومة ضد الفرنسيين في تشاد. ولكنه أيضاً يريد استغلال هذا التناقض لصالحه وهو الحصول على السلاح.

سابعاً: التحولات الاجتماعية في برقة

نجحت الحركة السنوسية في كسب تعاون قبائل وتجار برقة لأنها عكست مصالحهم ورغباتهم ودفعتهم إلى دفع الزكاة والأعشار للحركة. كذلك استفادت الحركة السنوسية من نظام التحالف القبلي وجعلته يتكيف مع الأخوة الإسلامية السنوسية بدلاً من العصبة القبلية

---

(٨٩) محمد الطيب الأشهب، برقة العربيّة أمس واليوم (القاهرة: مكتبة الهواري، ١٩٤٧)، ص ٢١٦.

(٩٠) الأشهب، المهدي السنوسي، ص٤٦.

(٩١) انريكو انساباتو، العلاقات الإيطالية ـ الليبية، ١٩٠٢ ـ ١٩٣٠، ترجمه إلى العربية عمر الباروني (طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٠)، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

لقبيلة السعادي أو مرابطين أو عرب، تبو وغيرها من الانتماءات الإثنية. ولكننا لا نريد أن نعطي الانطباع عن التركيب الاجتماعي للحركة السنوسية وكأنه مبني على المساواة والتكافؤ. فتكوين الدولة السنوسية كأي دولة أخرى قادته فئات وطبقات محددة على حساب أخرى.

قاد الحركة السنوسية في نهاية القرن التاسع عشر فئتان اجتماعيتان: العائلة السنوسية والعلماء أو الإخوان السنوسيون كما كانوا يسمون؛ وتجار تجارة القوافل عبر الصحراء. هاتان الفئتان استولتا على معظم الفائض أو عوائد التجارة والأعشار والزكاة. التجار مثل المجابرة، الزوية، والغداسية استفادوا من حماية الزوايا السنوسية كحرم وكخدمات في استثمار أموالهم. أما العائلة السنوسية والإخوان فقد استولت على الهدايا والضرائب السنوية في شكل زكاة وأعشار من القبائل السنوسية. وقد دفعت الزكاة والأعشار بشكل عيني: الأغنام، الصوف، والحبوب لمركز السنوسية في الجغبوب والكفرة.

عندما زحف الجيش الفرنسي على تشاد اصطدم بالقوات السنوسية التي قادت المقاومة ولا سيما على زواياها في تشاد بين عامي ١٨٩٩ ـ ١٩٠٢، بل إن شيخ زاوية بيرعلالي استشهد في معركة الدفاع وبعدها السيد محمد المهدي السنوسي في عام ١٩٠٢. غنائم الجيش الفرنسي من زاوية بيرعلالي تدل على غنى هذه الزاوية: الغنائم الفرنسية شملت ٣,٠٠٠ كوز من السكر ومخازن مليئة بالملابس القطنية والفرش والشاي[٩٢]. وقد قدرت السلطات الاستعمارية الإيطالية كمية العوائد السنوية للحركة السنوسية من غير حساب لعوائد الكفرة والجغبوب حوالى ٢٠٠,٠٠٠ لير إيطالي[٩٣]. كما قدرت أراضي الوقف السنوسي بحوالى نصف مليون فدان في عام ١٩٣٠[٩٤].

ركّزت الحركة السنوسية في بدايتها على المساواة بين القبائل والتجار، ولكن بعد أن أصبحت دولة من الناحية العملية برزت فيها كأي دولة في مرحلة التكوين العلاقات اللامتكافئة. لقد استولت العائلة السنوسية وكبار الإخوان على جزء من فائض الزكاة والأعشار والباقي استخدم للصرف على الزوايا، المعهد العالي، الدعاة وشراء الأسلحة. وقد تولى بعض الإخوان قيادة بعض الزوايا بشكل وراثي كما لاحظنا في حالة عائلة بن دردف، الغمري، بن بركة والخطابي. كما أن عائلات كبار الإخوان زوجت بناتها من العائلة السنوسية وبشكل أقل من العائلات الأخرى[٩٥].

نجد على رأس قيادة العلماء أو فئة الإخوان الأسرة السنوسية التي كان لها عوائد أراضي الوقف الملحقة بالزوايا والمعفية من الضرائب العثمانية. أصل هذه الأراضي كان أراضي قبلية

(٩٢) Cordell, «Eastern Libya, Wadai and the Sanusiyya. A Tariqa and a Trade Route,» p. 32.

(٩٣) Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica*, pp. 78-79.

(٩٤) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٩٥) المصدر نفسه، ص ٨١ ـ ٨٢، و C.C. Adams, «The Sanusis,» *Muslim World*, vol. 36, no. 1 (January 1946), p. 32.

قدمت كهدية للأسرة السنوسية لبناء زوايا وخدمات دينية. كما ان القبائل السنوسية تطوعت لحرث وحصد هذه الأراضي بلا مقابل للصرف على الزاوية، ليس هذا فحسب بل إن القبائل السنوسية عادة ما تبرعت بالأرز، الشاي، السكر، الجلود، الصوف، الزبد، العسل، والملابس للعائلة السنوسية. وقد نظرت القبائل إلى العائلة السنوسية كعلماء دين وأشراف من نسل الرسول يحملون البركة.

في بداية القرن العشرين نجد أن التحول إلى دولة أدى إلى خلق فئات غنية على رأس الدولة السنوسية، وبهذا التحول أصبحت العائلة السوسية على رأس الأقاليم أو الزوايا الأم في برقة، فزان، سرت، والكفرة. في عام ١٩١٦ محمد الرضا المهدي السنوسي كان المسؤول على زوايا هضبة برقة، هلال السنوسي على زوايا شرق برقة، صفي الدين السنوسي على زوايا سرت، محمد عابد السنوسي على زوايا فزان، وعلي الخطابي على زوايا الكفرة(٩٦).

كانت للسنوسية كما حاولنا أن نبرهن سابقاً مقومات الدولة من الناحية العملية ولكنها لم تعلن رسمياً إلا في عام ١٩١٣. ولم تعلن القيادة السنوسية رسمياً الدولة السنوسية قبل عام ١٩١٣ تفادياً للصراع مع الدولة العثمانية صاحبة السيادة الاسمية على ولاية طرابلس الغرب بما فيها برقة. ولكن السنوسية ملكت إقليماً محدداً بمبايعة أتباعها جهاز إداري قضائي وتشريعي وإيديولوجية إصلاحية إسلامية واضحة. هذه السياسة الحذرة تجاه الدولة العثمانية تغيرت بعد التوسع الفرنسي والإيطالي وتوقيع الامبراطورية العثمانية معاهدة صلح مع إيطاليا في عام ١٩١٣. بعد هذه المعاهدة التي كشفت ضعف الدولة العثمانية لم يعد هناك مبرر للتمسك بالسيادة العثمانية المهزومة، بل إن الدولة العثمانية شجعت السنوسية على أخذ المبادرة وإعلان الجهاد. لقد قاومت الحركة السنوسية التوسع الفرنسي في تشاد دفاعاً عن زواياها هناك بين (١٨٩٧ ـ ١٩١٠) وبعد الغزو الإيطالي خاضت حرب مقاومة طويلة من عام ١٩١١ ـ ١٩٣٢. وعند انتهاء الحرب العالمية الأولى، ضغط الأتراك العثمانيون على السيد أحمد الشريف لغزو مصر التي كانت تحت الاستعمار الإنكليزي في عام ١٩١٦.

واجهت القيادة السنوسية الخطر الاستعماري الأوروبي بسياستين. في البداية دعا أحمد الشريف السنوسي القائد الثالث للسنوسية الدولة العثمانية إلى إرسال قائمقام إلى الكفرة. هذا التغيير الجذري للسنوسية فرضته ضرورات الحرب مع فرنسا. بعد هزيمة المقاومة السنوسية في تشاد وخوفاً من التوسع الفرنسي شمالاً إلى الكفرة طلب السنوسيون الحماية العثمانية. إن إرسال قائمقام إلى الكفرة هدفه الاستفادة من السيادة العثمانية لردع التوسع الفرنسي في عام ١٩٠٢(٩٧). هذه السياسة نجحت لأن التوسع الفرنسي لم يمتد إلى الكفرة.

---

(٩٦) Adams, Ibid., p. 79.

(٩٧) كان قرار أحمد الشريف يهدف إلى استخدام السلطة القانونية للدولة العثمانية كرادع ضد توسع الفرنسيين في الصحراء، وقد طلب حماية الدولة العثمانية لأن الليبيين لم يكونوا قد أعلنوا قيام دولتهم بعد؛ وهكذا يمكن دحض ادعاء الفرنسيين بمجرد إعلان وسط السودان وجنوب ليبيا مقاطعات عثمانية. وقد عيّن =

ولكن بعد خسارة زوايا تشاد جاء الخطر الأكبر عندما غزت إيطاليا الولاية في عام ١٩١١. وبعد سنة من الحرب مع الدولة العثمانية في الولاية اضطرت الدولة العثمانية إلى توقيع معاهدة صلح مع إيطاليا، ولكن لحفاظ ماء وجهها أعلنت الدولة العثمانية استقلال أهالي ولاية طرابلس الغرب. وقد وجدت الحركة السنوسية في برقة نفسها بلا حماية دولية عثمانية وبالتالي لا مفر من إعلان الجهاد الإسلامي للدفاع عن العقيدة ودار الإسلام لهجوم النصارى الطليان كما تنبأ مؤسس الحركة محمد بن علي السنوسي في منتصف القرن التاسع عشر. وقد أُعلنت الحكومة السنوسية في عام ١٩١٣ هذا الإعلان عبّر عن السياسة الجديدة، المقاومة في ظل الحكومة السنوسية فعلياً واسمياً من دون الغطاء العثماني[٩٨].

= كيلاني لاطيوش من قبيلة المغاربة حاكماً على كفرة في عام ١٩١٠. انظر: شكري، السنوسية دين ودولة، ص ١٠٠، و Evans-Pritchard, Ibid., p. 102.

(٩٨) نشرت مجلة المنار المصرية إعلان أحمد الشريف هذا. انظر: المنار، العدد ١٥ (١٩٢١)، ص ١٠٩ - ١١١. انظر أيضاً: محمد عيسى صالحية، «صفحات من الوثائق السرية الليبية، رسائل أحمد الشريف، ١٨٧٥ - ١٩٣٣،» حوليات كلية الآداب (جامعة الكويت)، العدد ١ (١٩٨٠)، ص ٩، وشكري، السنوسية دين ودولة، ص ١٤٠.

الفصل الخامس

ردود الفعل للغزو الاستعماري: الأصول الاجتماعية لحركات التواطؤ والمقاومة

«تركناك على خير يا وطن بالسلامه
ورانا ندامه
ويا عون من فيك كمل أيامه».

الشاعر الليبي أحمد رفيق المهدوي في طريقه إلى المنفى، بنغازي، ١٩٢٣.

أوقف الغزو العسكري الإيطالي لولاية طرابلس الغرب في ٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١١ بشكل مفاجىء الصراع السياسي والاجتماعي بين الدولة العثمانية في طرابلس، الحركة السنوسية في برقة والتحالفات والصفوف القبلية في دواخل القبيلة، فزاد تقوية الإدارة المركزية بالنسبة إلى الدولة العثمانية وتكملة بناء الدولة بالنسبة إلى الحركة السنوسية. أما القبائل فحاولت المحافظة على استقلالها الاقتصادي من الدولة العثمانية. لقد تعددت ردود فعل القبائل، الفلاحين، والأعيان للغزو لتعدد الخلفيات الاقتصادية والاجتماعية في كل منطقة. لذلك إن فهم ردود الفعل للغزو الإيطالي برؤية جديدة مهم لتجاوز التفسيرات الشخصية والاتهامية في ليبيا بعد الاستقلال في عام ١٩٥١. وليس هدفنا في هذا الفصل الوصف التفصيلي لتاريخ المقاومة ولكن تحليل الدوافع المختلفة وسياسات حركات التواطؤ، المقاومة للاستعمار بناء على منهجية جديدة تركز، ليس على العوامل الشخصية والأخلاقية، ولكن على الظروف الاجتماعية، الاقتصادية والثقافية التي وجدت قبل الغزو.

امتاز الاستعمار الرأسمالي الحديث بخصوصيتين عن أشكال الاستعمار الأخرى: أولاً، الاستعمار الرأسمالي هو نمو اجتماعي للتكوين الرأسمالي الذي أخذ شكل الغزو العسكري والاقتصادي على مجتمعات أخرى من الخارج[1]. ازداد الاستعمار الأوروبي لافريقيا كمخرج للكساد الاقتصادي للنظام الرأسمالي في عام ١٨٨٠. ويرز الاستعمار كحل لهذه الأزمة الاقتصادية، وبالتحديد ضيق السوق الأوروبية من ناحية الاستثمارات، المواد الأولية ورخص الأيدي العاملة. كذلك يوجد في بعض الأحيان، كما في الاقتصاد الإيطالي، «فائض» فلاحي من وجهة نظر الطبقات الحاكمة تطلب حلاً خارجياً بتصدير الفلاحين إلى مستعمرات بدل إعطائهم أرضاً وحق التصويت.

---

(١) Bipan Chandara, «Karl Marx, His Theories of Asian Societies and Colonial Rule,» *Review*, vol 5, no. 1 (Summer 1981), p. 84.

ثانياً، الإنتاج الرأسمالي الحديث ليس ظاهرة أوروبية بحتة، لكن ظهر في أماكن أخرى خارج شمال غرب أوروبا، كما أثبتت الدراسات الحديثة. الباحثة الأمريكية جانيت أبو لغد في كتابها **قبل الهيمنة الأوروبية** برهنت على وجود نظام رأسمالي في منطقة الشرق الأوسط، المحيط الهندي ووسط آسيا في القرن الثالث عشر الميلادي. بعبارة أخرى، هناك جذور محلية للرأسمالية كما أوضح المؤرخ الأمريكي بيتر غران في دراسته عن التاريخ الاجتماعي لمصر في القرن الثامن عشر، وتزعم بأن رأسمالية محلية وجدت في طرابلس وارتبطت بتجارة القوافل بين البحر المتوسط وبلاد السودان في أواخر القرن التاسع عشر. يتميز الاستعمار الرأسمالي، بعكس الأنواع السابقة التي وجدت في مراحل عديدة من التاريخ الإنساني، بتغير علاقات الإنتاج السائدة غير الرأسمالية. بينما الغزو والحروب والأشكال الأخرى للاستعمار ما قبل الرأسمالي تركزت على أخذ الريع والسلب من غير تغيير جذري لعلاقات الإنتاج(٢).

أشكال وأساليب الاستعمار الرأسمالي عديدة. هناك شكل الاستعمار المتعاون مع الطبقات العليا في المستعمرات والحكم من خلالها كما حدث في الهند، شمال نيجيريا، مصر وأوغندا من قبل الاستعمار الإنكليزي، أو تونس والمغرب في الشكل الاستعماري الفرنسي. وهناك شكل آخر للاستعمار الرأسمالي النموذج الاستيطاني الذي يركز على تصدير مستوطنين أوروبيين إلى المستعمرات وبالتالي الحكم المباشر وعدم الاعتماد على الطبقات والدول التي وجدت ما قبل المرحلة الاستعمارية، كما نجد في التجارب الثلاث في الوطن العربي: الجزائر الفرنسية، ليبيا الإيطالية، وفلسطين الإنكليزية ـ الصهيونية. خلاصة القول، يتوجب الحذر في الحديث عن نماذج وأساليب الاستعمار والدولة الاستعمارية من دولة استعمارية إلى أخرى، ومن مستعمرة إلى أخرى بالنظر إلى طبيعة الدولة الرأسمالية الاستعمارية، وزمن الاستعمار والمنافسة مع الدول الاستعمارية الأخرى(٣).

---

(٢) Thomas Hall, «Peripheries, Regions of Refuge, and Non-State Societies: Toward a Theory of Reactive Social Change,» *Social Science Quarterly*, no. 64 (1983), pp. 582-597; Lionel Cliffe, «Class Formation as an «Articulation» Process: East African Cases,» in: Hamza Alavi and Theodor Shanin, eds., *Introduction to the Sociology of Developing Societies* (New York. Monthly Review Press, 1982), pp. 262-287, and Salah Hamzaoui, «Non-Capitalist Relations of Production in Capitalist Society: The Khammessat of Southern Tunisia,» *Journal of Peasant Studies*, vol. 6, no. 4 (July 1979), pp. 444-470.

للاطلاع على الجذور غير الأوروبية للرأسمالية خارج أوروبا، انظر: Janet Lipman Abu-Lughod, *Before European Hegemony* (New York: Oxford University Press, 1989), pp. 353-354 and 372; K.N. Chaudhuri, *Trade and Civilization in the Indian Ocean: An Economic History from the Rise of Islam to 1750* (Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1985), p. 222, and Peter Gran, *Islamic Roots of Capitalism: Egypt, 1760-1840*, foreword by Afaf Lutfi Al-Sayyid Marsot, Modern Middle East Series; no. 4 (Austin: University of Texas Press, 1979).

للاطلاع على دور التعاون، انظر: Ronald Robinson, «Non European Foundations of European Imperialism: Sketch for a Theory of Collaboration,» in: Roger Owen and Bob Sutcliffe, eds., *Studies in the Theory of Imperialism* (London: Longman, 1972), pp. 117-140.

(٣) Perry Anderson, «Portugal and the End of Ultra-Colonialism,» *New Left Review* (May-June 1962), pp. 92-93, 98 and 101-102, and Antonio Gramsci, *Selections from the Prison Notebooks*, trans. and ed. by Quintin Hoare and Geoffrey Newell Smith, 8th ed. (New York: International Publishers, 1985), p. 68.

كان المشروع الاستعماري الإيطالي في ليبيا بين عامي ١٨٨٦ ـ ١٩١١ مدفوعاً بعوامل اقتصادية وإيديولوجية. في عام ١٨٨٠ دعا الرأسماليون والصناعيون والقوميون والكنيسة الكاثوليكية في إيطاليا إلى التوسع الاستعماري[٤]. يرتكز تبرير هذه القوى الاجتماعية الإيطالية للاستعمار على حق إيطاليا كبقية الدول الأوروبية الأخرى في الاستيلاء على مستعمرات وحل ما كان يسمى في إيطاليا المعاملة المهينة للمهاجرين الإيطاليين في أمريكا[٥]، كذلك مشاركة بقية الدول الأوروبية في جلب الحضارة إلى افريقيا[٦]. وأخيراً اعتبر بعض الإيطاليين، خصوصاً الفاشست، ان إيطاليا كوريث للامبراطورية الرومانية لها حق تاريخي في اعتبار منطقة البحر المتوسط منطقة نفوذ للدولة الإيطالية[٧]. هذه أهم التبريرات الإيديولوجية للاستعمار، أما التبريرات الاقتصادية فتركزت على توجيه المهاجرين الإيطاليين إلى مستعمرات في شرق وشمال افريقيا والسيطرة على تجارة الصحراء[٨].

بدأت الصحف الإيطالية في أواخر القرن التاسع عشر في عكس دعاوى التوسع الاستعماري ووصف طرابلس الغرب بـ «طرابلس الجميلة» بوابة افريقيا وتجارة الصحراء ومصدر للزيتون والحبوب كما في العهد الروماني لإيطاليا[٩]. المستعمرات الإيطالية في تونس وطرابلس ستساعد إيطاليا على «التنفس» في البحر المتوسط المحكوم من قبل الدولة الفرنسية والإنكليزية[١٠].

ولكن أهم دوافع الاستعمار الإيطالي، برأينا، هو المشكلة الفلاحية في الجنوب الإيطالي. في عام ١٨٩٠. قاد الوحدة الإيطالية تحالف برجوازية الشمال الإيطالي المتقدم في التصنيع الرأسمالي وملاك الأراضي الإقطاعيين في الجنوب والجزر الإيطالية. وكونت الطبقة الصناعية الرأسمالية الشمالية في إيطاليا الفئة المهيمنة على الدولة. الفلاحون الجنوبيون طالبوا بإصلاح

---

(٤) Luigi De Rosa, «Economics and Nationalism in Italy, 1861-1914,» *Journal of European Economic History*, vol. 11, no. 3 (Winter 1983), pp. 537-538.

(٥) Luigi Villari, *Italian Foreign Policy Under Mussolini* (New York. Devin-Adair Company, 1950), pp. 66-67, and Maxwell H. MacArthney and Paul Cremona, *Italy's Foreign and Colonial Policy, 1914-1937* (London: Oxford University Press, 1938), pp. 273 and 284.

(٦) Paolo De Vecchi, *Italy's Civilizing Mission in Africa* (New York· Brentano's, 1912), pp. 7, 40 and 78-79.

انظر أيضاً: Chevalier Tullio Irace, *With the Italians in Tripoli* (London: John Murray, 1912), pp. VIII-XVI

(٧) Denis Mack Smith, *Mussolini's Roman Empire* (New York. Penguin Books, 1977), p. 41.

(٨) MacArthney and Cremona, *Italy's Foreign and Colonial Policy, 1914-1937*, pp. 276-277.

(٩) Ernest Nathanied Bennett, Sir, *With the Turks in Tripoli; Being Some Experiences in the Turco-Italian War of 1911* (London: Methuen and Co. Ltd., 1912), pp. 6-7;

انظر رأياً مماثلاً عن صور الاستعمار الفرنسي في افريقيا الغربية، في: A S. Kanya-Frostner, «French Expansion in Africa: The Mythical Theory,» in. Owen and Sutcliffc, eds., *Studies in the Theory of Imperialism*, pp. 227-293

(١٠) Charles Lapworth, *Tripoli and the Young Italy* (London: Stephen Sweft, 1912), chap. 3.

زراعي يعطيهم أراضي وحق التصويت. ولكن ملاك الأراضي في الجنوب رفضوا هذه المطالب واشترطوا في انضمامهم إلى الدولة الإيطالية الموحدة الحفاظ على مصالحهم الإقطاعية مقابل إعطاء برجوازية الشمال الدور القيادي في الدولة(١١). لكن الفلاحين الجنوبيين بدأوا في الانتفاض والاحتجاج على عدم إعطائهم أراضي وحق التصويت، مما اضطر الطبقات الحاكمة إلى ضرورة إيجاد حل للمشكلة الجنوبية. الحل الأمثل كما ذكر غرامشي للطبقة الحاكمة الإيطالية وجد في التوسع الاستعماري لإرضاء ملاك الأراضي الكبار في الجنوب الإيطالي شركاء الطبقة الرأسمالية الشمالية في الدولة الإيطالية. الاستيلاء على مستعمرات حل متشكلتين من وجهة نظر الطبقة الحاكمة: تخفيف حدة الضغط الاجتماعي للفلاحين والثوريين الإيطاليين المطالبين بالإصلاح للأراضي وحق التصويت من ناحية، وتوطين الفلاحين في مستعمرات وإعطائهم مزايا كنخبة على حساب الأريتريين، الصوماليين، الليبيين والأحباش من ناحية أخرى. هذا التبرير الإيديولوجي لما يسمى مشكلة زيادة السكان في إيطاليا في ذلك الوقت هو في الواقع محاولة لتفادي المشكلة الفلاحية في داخل إيطاليا. لو نظرنا إلى تعداد سكان إيطاليا الآن فهو بلا شك أكبر بمراحل عن تعدادها في عام ١٩١٠، ولكن ليس هناك طرح لمشكلة الفائض السكاني الآن، ومن ثم طرح مشكلة زيادة السكان في إيطاليا في ذلك الوقت هو مبالغة وتبرير إيديولوجي لسياسة التوسع الاستعماري وإرضاء إقطاعيي الجنوب الإيطالي الشركاء في الطبقة الحاكمة التي كونت الوحدة الإيطالية(١٢).

بدأ التوسع الإيطالي الاستعماري في عام ١٨٦٩ في أريتريا في شرق افريقيا بشراء الأراضي. هذه البداية قادها رئيس الوزراء الإيطالي فرنسيسكو كريسبي وهدفها استعمار أريتريا والحبشة. ولكن هذه المرحلة انتهت بهزيمة الجيش الإيطالي عندما استطاع الامبراطور الحبشي منليك هزيمة الطليان في موقعة عدوة في ٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٩٦. هذه الهزيمة أنهت الحياة السياسية لكريسبي ووجهت أنظار أصحاب المشروع الاستعماري الإيطالي إلى طرابلس الغرب(١٣).

كان شمال افريقيا من البداية المنطقة الثانية المهمة التي استهدفت كمستعمرات لإيطاليا. ولكن احتلال فرنسا تونس في عام ١٨٨١ دفع الحكومة الإيطالية إلى التركيز على

---

(١١) انظر: Antonio Gramsci: *The Modern Prince and Other Writings*, 9th ed (New York: International Publishers, 1983), pp. 31-37, and *Selections from the Prison Notebooks*, p. 68.
للاطلاع على موضوع البرجوازية الصناعية الشمالية، انظر: R.A. Webster, *Industrial Imperialism in Italy, 1908-1915* (Berkeley, Calif: University of California Press, 1975), pp. 333-339.
انظر أيضاً: عبد المنصف حافظ البوري، «دوافع الغزو الإيطالي لليبيا،» (رسالة ماجستير في العلوم السياسية، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٧٧).

(١٢) ارتفع عدد سكان إيطاليا من ٢٦ مليوناً عام ١٨٦١ إلى ٣٦ مليوناً في عام ١٩١١؛ ووصل عددهم إلى ٤١ مليوناً في عام ١٩٣١. انظر: Villari, *Italian Foreign Policy Under Mussolini*, pp. 66-67.

(١٣) انظر: Tekeste Negash, *Italian Colonialism in Eritrea, 1882-1914: Policies, Praxis and Impact* (Uppsala: Sweden, 1987), p. 2.
للاطلاع على تفاصيل أوفى بشأن خلفيات الحرب، انظر: M.B. Akpan, «Liberia and Ethiopia, 1884-1914: The Survival of Two African States,» in: Adu Boahen, ed., *UNESCO General History of Africa* (Berkeley, Calif : University of California Press, 1985), pp. 268-270.

طرابلس الغرب. وكما أسلفنا في الفصل الثالث بدأت الحكومة الإيطالية الإعداد الاقتصادي والتقاني في طرابلس من خلال مصرف روما، وإنشاء المدارس والصحف الإيطالية في عام ١٨٩٠. بدأ بنك روما في عام ١٩٠٧، وبدأ الاستثمار في الأراضي والتجارة والطباعة.

استمرت السياسة الإيطالية السلمية حتى قرار الغزو العسكري في ٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١١. ولكن الغزو العسكري للولاية تأثر بدخول إيطاليا في الحرب العالمية الأولى في صف بريطانيا وفرنسا، بالإضافة إلى المقاومة الليبية للغزو مما أدى إلى إعطاء بعض الاستقلال الذاتي للمقاومة بين عامي ١٩١٤ و١٩٢٢. ولكن بمجيء الفاشست إلى الحكم في عام ١٩٢٣ تغيرت السياسة الاستعمارية. أعلن الفاشست عن إلغائهم معاهدات الاستقلال الذاتي التي أعطت الحكومة السنوسية في برقة والجمهورية الطرابلسية في طرابلس بعض الاستقلال، وبالتالي لا بد من فرض السيادة الكاملة على المستعمرة وتوطين الفلاحين الطليان فيها. هذه السياسة الفاشستية هددت كل حركات المقاومة، الدولة السنوسية، الجمهورية الطرابلسية والتحالفات القبلية المستقلة في فزان والقبلة.

واجهت السياسة الاستعمارية الإيطالية مقاومة عنيدة وطويلة. لذلك لم تتمكن إيطاليا من هزيمة المقاومة والسيطرة على قبائل وفلاحي الدواخل حتى عام ١٩٣٢، أي بعد واحد وعشرين سنة من الغزو. إذن يجب تقسيم المرحلة الاستعمارية إلى المراحل الآتية: ١٨٩٠ - ١٩١١ الإعداد الاقتصادي والسلمي للغزو؛ ١٩١١ - ١٩١٤ النجاح المبدئي لغزو الجبل وفزان، ولكنها انتهت بهزيمة الجيش الإيطالي في القرضابية في أواخر عام ١٩١٤. المرحلة الثالثة، مرحلة الاتفاقيات بين عامي ١٩١٤ و١٩٢٢، حيث أدت هزيمة إيطاليا في موقعة القرضابية ودخولها الحرب العالمية الأولى إلى حصر السيادة الإيطالية في مدن طرابلس الساحلية وخصوصاً الخمس وطرابلس. وانتهت هذه المرحلة بصعود الحزب الفاشستي إلى الحكم في روما وبداية السياسة الدموية لاحتلال دواخل ليبيا بين عامي ١٩٢٢ و١٩٣٢.

أدت مرحلة الاتفاقيات بين الدولة الاستعمارية الإيطالية والمقاومة الليبية إلى إعطاء نوع من الاستقلال الذاتي للمقاومة بعد هزيمة الجيش الإيطالي في موقعة القرضابية ودخول إيطاليا الحرب العالمية الأولى. أحيت هذه الاتفاقيات ودعمت استقلال قبائل وخلاص الدواخل من مواجهة الدولة المركزية. لذلك وقعت الحركة السنوسية مجموعة من الاتفاقيات مع إيطاليا في الأعوام ١٩١٥، ١٩١٧، ١٩٢٠[٩]. أعطت هذه الاتفاقيات إدريس المهدي السنوسي، القائد الرابع للحركة السنوسية، رواتب له ولعائلته واعترفت بالاستقلال الذاتي لبرقة في ظل السنوسية بما فيها حق تكوين برلمان برقاوي. في المقابل وعد إدريس السنوسي بإبعاد الضباط العثمانيين الذين جاؤوا إلى ليبيا لمساعدة المقاومة بعد دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا والنمسا. كذلك وعد إدريس السنوسي بإبعاد ابن عمه أحمد الشريف، القائد الثالث للسنوسية، المعادي للتوسع الاستعماري (١٩٠٢ - ١٩١٦). أحمد الشريف قاد المقاومة السنوسية ضد التوسع الفرنسي في تشاد عام ١٩٠٢، إيطاليا عام ١٩١٢ وبتحريض

من الدولة العثمانية هجم على القوات الإنكليزية في مصر عام ١٩١٥ ـ ١٩١٦. هزمت القوات الإنكليزية الجيش السنوسي بقيادة أحمد الشريف، وفي مفاوضات الصلح اشترط الإنكليز والطليان إبعاد أحمد الشريف ووافق إدريس على هذا الطلب خصوصاً أن السنوسية كانت في موقع ضعيف. صعد نجم إدريس السنوسي كدبلوماسي مرن وبالتالي فضّلته السياسة الإنكليزية على ابن عمه الصلب أحمد الشريف.

أدت هزيمة الجيوش الإيطالية في منطقة طرابلس إلى ظهور مجموعة من الحكومات الصغيرة سيطر عليها الأعيان وشيوخ القبائل لسد فراغ غياب الإدارة العثمانية والإيطالية. نجد في الجبل الغربي والجفارة حكومة قادها سليمان الباروني، عضو البرلمان العثماني، من الجبل الغربي، بين عامي ١٩١٢ و١٩١٦، وفي شرق منطقة طرابلس صعد نجم رمضان السويحلي، زعيم مصراته وأحد أبطال معركة القرضابية، الذي أصبح الزعيم المفضل للضباط العثمانيين الذين طردوا من برقة، ولهذا استولى على العديد من المعونات والأسلحة التي جاءت عن طريق ميناء قصر حمد بواسطة الغواصات الألمانية، حلفاء الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، كذلك استقل الشيخ سوف المحمودي بغرب الجفارة، أحمد المريض بمنطقة ترهونة في عام ١٩١٥ وخليفة الزاوي بمنطقة فزان ١٩١٦ ـ ١٩٢٦.

ولكن الدولة العثمانية بعد هزيمتها وألمانيا في الحرب العالمية الأولى اضطرت إلى سحب ضبّاطها ووقف معوناتها للمقاومة الليبية في عام ١٩١٨. ووجدت المقاومة الطرابلسية نفسها بلا حليف قوي بعكس الحركة السنوسية في برقة حيث أيدت السياسة الإنكليزية قيادة إدريس السنوسي كنوع من الحاجة الوقائية لحماية مصالحها في مصر ولمنع أي هجوم سنوسي كما حصل في عام ١٩١٥ ـ ١٩١٦م لذلك اجتمع الأعيان وشيوخ القبائل في المنطقة الغربية وكوّنوا أول جمهورية في منطقة شمال افريقيا، الجمهورية الطرابلسية لتنسيق جهود المقاومة والتفاوض مع الحكومة الاستعمارية الإيطالية مما أدى إلى صلح سواني بن يادم في عام ١٩١٩. القانون الأساسي الذي أعلن في صلح سواني بن يادم أعطى من الناحية النظرية الحق للطرابلسيين المسلمين في الاستقلال الذاتي، انتخاب برلمان، صحافة حرة، وحق المواطنة الإيطالية. ولكن الصراعات والانشقاقات بين الأعيان وشيوخ القبائل في الجمهورية الطرابلسية والرشاوى الإيطالية أدت إلى انهيار الجمهورية الطرابلسية ونشوب حروب أهلية ساعدت الطليان على احتلال المنطقة الغربية في عام ١٩٢٢.

الصراعات والانشقاقات بين الأعيان الطرابلسيين مرجعها اختلاف اجتماعي واقتصادي بين القبائل التي استقرت في نهاية القرن التاسع عشر والقبائل التي لم تستقر وحافظت على استقلالها، كذلك أذكى تنافس الأعيان والشيوخ على المساعدات والأموال العثمانية والإيطالية الخلافات القديمة. أدت هذه الخلافات إلى منافسة وحروب أضعفت في النهاية المقاومة وشجعت بعض الأعيان على طلب المعونة من الدولة الإيطالية التي استغلتها فرصة لفرض سيادتها على المنطقة في عام ١٩٢٢.

أصبح إقليم فزان الموغل في عمق الصحراء ملجأ للقبائل المقاومة في القبلة والجبل بالإضافة إلى قبائل فزان خصوصاً بعد هزيمة المقاومة الطرابلسية في عام ١٩٢٣. قاد أولاد سليمان المقاومة وخصوصاً أبناء سيف النصر أحفاد عبد الجليل مثل أحمد وعبد الجليل وعمر المقاومة في الجفرة وفزان. نجحت المقاومة القبلية وخصوصاً في حرب عصابات لدراية المقاومة بجغرافية المنطقة وتعاون الأهالي ضد الجيوش الإيطالية. ولكن المقاومة القبلية نجحت فقط في ابعاد تقدم الجيش الإيطالي وخصوصاً في معارك تافرفت في ٤ آذار/ مارس ١٩٢٨ وعافية ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٨[١٤]. ولكن مقاومة قبائل أولاد سليمان، ورفلة، القذادفة، الزنتان، أولاد بوسيف والمشاشية لم تكن قادرة على الصمود في وجه الجيش الإيطالي الحديث ولتواطؤ مجندين ليبيين معه. استخدم الجيش الإيطالي الطائرات والغارات السامة لضرب المقاومة، وفعلاً اضطرت القبائل المقاومة في نهاية ١٩٣٠ إما لتسليم سلاحها أو للهجرة إلى تشاد، تونس، مصر، والسودان[١٥].

توفر للقبائل البرقاوية بقيادة الحركة السنوسية التنظيم والاقتصاد والاندماج في الزوايا والتوحيد بعد نصف قرن من التعليم والتسييس الحركي. وبرزت قيادة الشيخ عمر المختار في الفترة بين عامي ١٩٢٣ و١٩٣١. كانت المقاومة البرقاوية أفضل حركات المقاومة تنظيماً واندماجاً. لذلك لم يكن من السهل هزيمتها. اضطرت القيادة الإيطالية إلى استخدام أبشع الوسائل الحربية في تاريخ الاستعمار في افريقيا مثل غلق الآبار والاستيلاء على قطعان الحيوانات، غلق الحدود مع مصر بسلك كهربائي، محاكمات صورية لرجال المقاومة وإسقاطهم من طائرات، وأخيراً إرغام ١٠٠,٠٠٠ من قبائل برقة المقاومة بنسائهم وأطفالهم ومواشيهم على مغادرة أوطانهم ووضعهم في معسكرات اعتقال في صحراء سرت القاسية في عام ١٩٣٠. الهدف من هذه السياسة حصار رجال العصابات المنتشرة في كهوف وغابات الجبل الأخضر وإجبارهم على إلقاء السلاح وحرمانهم من تعاون القبائل التي أمدتهم بالغذاء والمعلومات والملجأ. بعد ثلاث سنين من الاعتقال في عام ١٩٣٣ كان هناك ٣٥,٠٠٠ أحياء في هذه المعتقلات الرهيبة، الباقون ماتوا شنقاً أو جوعاً أو بسبب الأوبئة. حققت هذه السياسة البشعة هدفها في فصل المقاومة من قاعدتها الاجتماعية. بعدها أسر عمر المختار في عام ١٩٣١، حوكم وأعدم أمام القبائل. وبقيت بعض جيوب المقاومة حتى كانون الثاني/ يناير عام ١٩٣٢ عندما حاول أربعة قادة من معاوني عمر المختار الهروب إلى مصر، قتل أحدهم، أسر اثنان واستطاع الأخير تجاوز الحاجز السلكي المكهرب واللجوء إلى مصر. هذا باختصار ملحص لتاريخ المقاومة ومراحلها. في الصفحات القادمة سنحلل حركات التواطؤ والتعاون مع الدولة السياسية الإيطالية وبعدها المقاومة.

---

(١٤) خليفة محمد التليسي، معارك الجهاد الليبي من خلال الخطط الإيطالية (طرابلس· المؤسسة العامة للنشر، ١٩٨٢)، ص ٧٢ و٧٦، و Rodolfo Graziani, *Verso El-Fezzan*, trans. by Taha Fawzi (Tripoli: Maktabat Al-Firjani, 1973), pp 381-397.

(١٥) التليسي، المصدر نفسه، ص ٧٨.

أولاً: دوافع وسياسات حركات التواطؤ مع الاستعمار

لا بد من الاعتراف في البداية بأن موضوع التواطؤ هو من أعقد وأكثر المواضيع التاريخية حساسية خصوصاً أن الحركات الوطنية والقومية في الوطن العربي بنت شرعيتها على مشاعر معاداة الاستعمار. ولذلك نجد في مرحلة ما بعد الاستقلال في ليبيا إما تجاهلاً ومحاولة تناسي هذا الموضوع أو تمجيداً للقبائل والأعيان على حساب آخرين. الدولة الليبية الحديثة بنت شرعيتها على أبطال وشهداء المقاومة ضد الطليان. بعبارة أخرى، التاريخ وخصوصاً المرحلة الاستعمارية ليس جزءاً من الماضي ولكنه يلعب دوراً حاسماً في السياسة المعاصرة في المرحلة الملكية والجمهورية، كل يدعي بأنه امتداد لحركات المقاومة والجهاد. أدى تسييس التاريخ إلى غياب وجهة نظر المتعاونين مع الدولة الاستعمارية وقلة المذكرات والوثائق، كذلك نجد القليل من الكتابات عن الحروب الأهلية لأنها شجبت كتمزيق للمقاومة في ذلك الوقت، أو لأنها ستنتج الجروح والصراعات في المجتمع الليبي. ولكن إنشاء مركز دراسات الجهاد وتجميعه العديد من الوثائق والروايات الشفهية، بالإضافة إلى نشر أوراق السيد أحمد الشريف، ووثائق حرب الجبل الغربي أعطتنا معلومات هامة لموازنة المصادر الإيطالية والإنكليزية عن المرحلة الاستعمارية[١٦].

تعددت ردود فعل المجتمعات المحلية في افريقيا بشكل عام، وشمال افريقيا بشكل خاص، من المقاومة المسلحة، التجارة، المهادنة، الهروب إلى المناطق الحدودية والأطراف، الهجرة، التعاون مع الدولة الاستعمارية كأمر واقع، وأخيراً التواطؤ، أي العمل مع الدولة الاستعمارية كمستشارين، شرطة، مخبرين، جنود وإداريين. المجتمع الليبي هو كبقية المجتمعات في افريقيا نظراً إلى تعدد قبائله، طبقاته وأقاليمه. لذلك ليس غريباً أن نجد ردود فعل مختلفة للدولة الاستعمارية الإيطالية.

---

(١٦) لم تدرس فترة الاستعمار في ليبيا بعناية، بل اقتصر الاهتمام على شجب التعاون الذي كان سائداً بين بعض الليبيين والسلطة الاستعمارية الإيطالية على المستوى العسكري والإداري، وبضعف الأخلاق للمطلنين، هؤلاء الذين أصبحوا إيطاليين بسبب تخليهم عن قيمهم، كما نجد في دراسة محمد سعيد القشاط. ومثل هذه الآراء المحبطة تنكر الخلفية الاجتماعية والأعمال الوجيهة التي قام بها الليبيون في ظل الاستعمار، إلا أن الدراسات عن مقاومة الاستعمار في الشرق وأجزاء أخرى من شمال أفريقيا لهي جديرة بالثناء في الوقت الحاضر. للاطلاع على أوضاع شرق أفريقيا، انظر: John Iliffe, «The Social Organization of the Maji Maji Rebellion,» *Journal of African History*, vol. 8, no. 3 (1967), pp. 495-512; وللاطلاع على أوضاع شمال افريقيا، انظر: Edmund Burke III, *Prelude to Protectorate in Morocco: Precolonial Protest and Resistance, 1860-1912* (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1976); Ross Edmunds Dunn, *Resistance in the Desert: Moroccan Responses to French Imperialism, 1881-1912* (Madison, Wis.: University of Wisconsin Press, 1977), انظر أيضاً: Peter Von Sivers, «Rural Uprisings as Political Movements in Colonial Algeria»; Julia Clancy-Smith, «Saints, Mahdis, and Arms: Religion and Resistance in Nineteenth Century North Africa,» and Fanny Colonna, «The Transformation of a Saintly Lineage in North West Aures Mountains (Algeria): Nineteenth and Twentieth Centuries,» in: Edmund Burke III and Ira Lapidus, eds., *Islam, Politics and Social Movements* (Berkeley, Calif.: University of California Press, 1988).

كان تعدّد ردود فعل المجتمع الليبي للغزو الاستعماري أمراً طبيعياً متوقعاً. التعدد مصدره تعدد التركيب الاقتصادي والاجتماعي في الأقاليم المختلفة في ما يخص التطور الرأسمالي وعلاقة المدن بالأرياف والدواخل مع ولاية طرابلس الغرب في بداية القرن العشرين.

كما أسلفنا في الفصلين الثالث والرابع، المنطقة الغربية، طرابلس، بدأت في الانتقال من الإنتاج الريعي والعائلي الاكتفائي للعلاقات الرأسمالية خصوصاً في المنطقة الساحلية حول مدينة طرابلس التي بدأت في فرض هيمنة سوقية تجارية على الدواخل. الإقليم الشرقي، برقة، وحدت قبائل الدواخل تحت تنظيم الحركة والدولة السنوسية، ولكن بقيت علاقة الدواخل بالمراكز الحضرية في بنغازي ودرنة ضعيفة لأن القبائل فضلت أسواق غرب مصر الكبيرة على المراقبة والضرائب العثمانية في بنغازي ودرنة، مما أدى إلى استمرارية علاقة قبائل برقة بالغرب حتى بعد ظهور الحركة السنوسية إلى بداية الغزو الإيطالي. مر الاقتصاد التجاري لفزان، الإقليم الجنوبي، بأزمة كبيرة نتيجة تدهور تجارة القوافل في عام ١٨٩٠ مما أدى إلى التأثير في أهم أسواقه، في واحات غات ومرزق وبالتالي إلى المنافسة بين التحالفات القبلية والدولة العثمانية التي سيطرت على معظم أجزاء طرابلس. وقد انتشرت الحركة السنوسية التي معقلها إقليم برقة في فزان، ولكن وجودها كان محدوداً في المنطقة الغربية في طرابلس لوجود إدارة عثمانية مركزية.

نجد إلى جانب الأسواق الاقتصادية والحدود الجغرافية لكل إقليم فئات وطبقات وتجمعات قبلية داخل كل إقليم. لاحظنا في المنطقة الغربية ظهور طبقة أعيان حضريين، في المدن، طبقة فلاحية، بالإضافة إلى استمرار وجود بعض التحالفات القبلية. في فزان سيطرت التحالفات القبلية وملاك الأراضي في الواحات والفلاحين الخماسة. أما في برقة فنحن لا نستطيع الحديث عن وجود طبقة فلاحية، ولكن ظهور الدولة السنوسية أدى إلى إدماج التحالفات القبلية في نظام الزوايا والإدارة السنوسية.

تواطأ بعض الفئات الأرستقراطية والتجار الوسطاء العاملين مع مصرف روما في المنطقة الغربية، طرابلس، مع السياسة الاستعمارية لحماية مصالحهم الاقتصادية، بالنسبة إلى التجار المسلمين ولاستغلال فرص جديدة بالنسبة إلى التجار اليهود. ولكننا نجد نماذج للتواطؤ مع الدولة الاستعمارية من قبل الطبقة العليا الأرستقراطية كما في حالة حسونة القرهمانلي، عميد بلدية طرابلس وحفيد آخر حكام الأسرة القرهمانلية علي باشا القرهمانلي، والتجار الوسطاء الذين تعاونوا وتواطأوا مع الغزو الإيطالي. ونجد أيضاً بعض المسلمين كعائلة المنتصر ويهوداً مثل عائلة حلفون. هذه الفئات عملت على نشر النفوذ الاقتصادي، الثقافي الإيطالي، كذلك ساعدت، الجيش الإيطالي على احتلال مدينة طرابلس[١٧].

---

(١٧) انظر التقريرين اللذين وضعهما الشاهدان الصحفيان: Bennett, *With the Turks in Tripoli; Being Some Experiences in the Turco-Italian War of 1911*, p. 186, and Francis McCullagh, *Italy's War for a Desert; Being Some Experiences of a War Correspondent with the Italians in Tripoli* (Chicago, Ill.. F.G. Browne and Co., 1913), p. 18.

كان حسونة القرهمانلي على اتصال مع الحكومة الإيطالية منذ عام ١٨٩٠ . ودافعه إلى التعاون مع الطليان هو طموحه لأن يصبح حاكم طرابلس كأجداده القرهمانليين. اعتقد حسونة بأن الحكومة الإيطالية ستنصبه حاكماً لطرابلس كما حدث في تونس عندما تعاون الباي التونسي والأعيان مع الإدارة الاستعمارية الفرنسية من خلال حكم غير مباشر. هذا التعاون شبيه بتعاون أسرة محمد علي في عام ١٨٨٢ والأسرة العلوية في المغرب في عام ١٩١٢ .

ساعد العميد حسونة الجيش الإيطالي على جمع السلاح من أهالي مدينة طرابلس، وهو السلاح الذي وزعته السلطات العثمانية لمقاومة الغزو[١٨]. بل إن حسونة أعطى السلطات الإيطالية معلومات هامة عن المدينة ساعدها على الاحتلال. دوافع العميد ليست بعيدة عن دوافع الخديوي توفيق في مصر، الباي الحسيني في تونس وسلطان المغرب في التعاون مع الاستعمار الإنكليزي والفرنسي[١٩]. ولكن السلطات الاستعمارية بعدما اكتشفت بأن نفوذ العميد حسونة محدود في مدينة طرابلس عينته في منصب فخري هو نائب حاكم مدينة طرابلس[٢٠].

كذلك تعاون التجار الوسطاء مع السلطات الإيطالية منذ البداية بدوافع اقتصادية وسياسية. وكانت عائلة المنتصر نموذجاً لهذا النوع من رد الفعل، حيث ارتبطت بمصرف روما. كما أنهم رغبة في الانتقام من خصومهم في الولاية المزعّمين من قبل السلطة العثمانية اعتقدوا بأن التحالف مع الحكومة الإيطالية سيساعدهم على تحقيق هذا الهدف، ربما كما اعتقد حسونة القرهمانلي بأن التعاون مع الطليان سيؤدي إلى استرداد حكم جده علي باشا القرهمانلي الذي أنهاه الجيش العثماني في عام ١٨٣٥[٢١]. أحمد ضياء الدين المنتصر كان في روما قبيل الاحتلال كمستشار للحكومة الإيطالية في الشؤون الليبية، ووالده عمر المنتصر استخدم نفوذه السياسي في مساعدة الجيش الإيطالي في احتلال مدينة سرت وفي ما بعد فزان في عام ١٩١٣[٢٢].

ليست عائلة المنتصر حالة فريدة، بل الأعيان والتجار الوسطاء بين مصرف روما والأهالي مثل منصور بن قدارة من زليطن، الشريف قنابة، أحمد قرجي، يوسف بلحاج، أحمد الأزمرلي، محمد عبد الرحمن البوصيري والقاضي شمس الدين تعاونوا مع الحكومة الإيطالية، ولكن أكثر هؤلاء الأعيان حماساً كانت عائلة المنتصر[٢٣]. هناك أسباب موضوعية

---

(١٨) McCullagh, Ibid., p. 3, and Lapworth, *Tripoli and the Young Italy*, p. 85.

(١٩) Giovanni Giolitti, *Memoirs of My Life*, trans. by Edward Storer (New York: Howard Fertig, 1973), pp. 260 and 279.

(٢٠) Tullio Irace, *With the Italians in Tripoli*, p. 20.

(٢١) انظر: رسالة أحمد ضياء الدين المنتصر إلى سليمان الباروني، في: زعيمة سليمان الباروني، جامع، **صفحات خالدة من الجهاد**، ٢ ج (القاهرة: مطبعة الاستقلال الكبرى، ١٩٦٤ ـ ١٩٦٨)، ج ١، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

(٢٢) Enrico De Leone, *La Colonizzione Dell Africa Del Nord* (Padava: Cedam-Casa Editrice Dott. Antonio Milani, 1957), p. 390.

(٢٣) الطاهر أحمد الزاوي، **جهاد الأبطال في طرابلس الغرب**، ط ٢ (بيروت: دار الفتح للطباعة والنشر، ١٩٧٠)، ص ٣٤ .

دفعت عائلة المنتصر إلى العمل بنشاط مع الجانب الإيطالي. لذلك من المفيد التعليق على خلفية ودافع هذه العائلة الطرابلسية المهمة[٢٤].

أصل عائلة المنتصر من مدينة مصراتة حيث برزت في التجارة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر خصوصاً بعد هزيمة عائلة الأدغم التي سيطرت على مصراتة وقضاء الخمس في النصف الأول من القرن الماضي. تورطت عائلة الأدغم في الانتفاضة ضد الحكم العثماني، وبعد هزيمة الانتفاضة فقدت هذه الأسرة نفوذها السياسي والاقتصادي[٢٥]. وبدأت عائلة المنتصر بالنشاط التجاري مما أهلها لتولي مناصب إدارية في الدولة العثمانية. لذلك نجد في نهاية القرن التاسع عشر عمر المنتصر وأبناءه أحمد ضياء الدين وسالم وعبد القادر قد عينوا كمديرين ومتصرفين في سرت وترهونة وغريان[٢٦].

تحالف آل المنتصر بحكم ثروتهم ووضعهم السياسي مع بعض الأعيان الآخرين وخصوصاً بالزواج من عائلات كعبار في غريان والمريض في ترهونة[٢٧]. هذه المصاهرات تفسر تقبل آل المنتصر كإداريين في غريان، ترهونة ومصراتة حتى عام ١٩٠٨[٢٨]. ثم أصبحت عائلة المنتصر كبقية الأعيان من مناصري سياسة الجامعة الإسلامية التي أعلنها السلطان عبد الحميد الثاني. ولكن صعود جماعة تركيا الفتاة إلى الحكم في عام ١٩٠٨ أدى إلى تغيرات سياسية في الولايات العثمانية. مالت حكومة تركيا الفتاة إلى إبعاد أنصار السلطان عبد الحميد وتعيين أعيان منافسين لهم في الإدارة. وعائلة المنتصر استهدفت كبعض الأعيان المناصرين للسلطان عبد الحميد، وأفضل تلخيص لدوافع عائلة المنتصر رسالة أحمد ضياء الدين المنتصر الموجودة في مركز وثائق وزارة الخارجية الإيطالية:

«عندما جاء جماعة تركيا الفتاة للحكم أبدوا كرههم لأنصار السلطان عبد الحميد. ولهذا استهدفوا عائلتنا. أولاً في انتخابات البرلمان العثماني، انتخبت أنا نائباً عن سنجقي الخمس وطرابلس، ولكن رفضت حكومة تركيا الفتاة التصديق على انتخابي بحجة عدم معرفتي باللغة العثمانية وفي نفس الوقت صدقت الحكومة على انتخاب نواب آخرين معرفتهم أقل من معرفتي باللغة العثمانية. ثانياً عزلتني الحكومة من منصبي كقائمقام لترهونة، كما ان الحكومة أغرت بعض القتلة لقتل أخي أبو القاسم بشكل بربري في الشارع، كما حمت الحكومة القاتل [رمضان السويحلي] من حسن حظنا علمنا بأن إيطاليا قررت احتلال طرابلس فانضم أخي سالم وأنا

---

(٢٤) انظر: دار المحفوظات التاريخية، الوثيقة رقم ١٨٨، «ملف العائلات الليبية».

(٢٥) محمد مسعود فشيكه، رمضان السويحلي (طرابلس: دار الفرجاني، ١٩٧٤)، ص ٢٩ - ٣٣.

(٢٦) أصبح أحمد قائمقام ترهونة وعضواً في مجلس الدولة العثماني في طرابلس الغرب، لكنه اعتبر من قبل مسؤولي تركيا الفتاة في عام ١٩٠٨ بأنه من أتباع السلطان عبد الحميد، فمنعوا إعادة انتخابه في البرلمان. وكان والده عمر قائمقام سرت. انظر: المصدر نفسه، ص ٢٥ و٣٣، ودار المحفوظات التاريخية، الوثيقة رقم ٨٨، «ملف عائلة المنتصر».

(٢٧) فشيكه، المصدر نفسه، ص ١١٢.

(٢٨) كوفئت عائلة المنتصر لتعاونها مع الإيطاليين، فعيّن عمر المنتصر قائمقاماً على مصراته، كما عيّن ابنه الآخر أحمد، مستشاراً للحاكم الإيطالي. انظر: الزاوي، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ص ١١٨، و Graziani, *Verso El-Fezzan*, p. 162.

لمصرف روما كشجب لسياسة حكومة تركيا الفتاة ضد عائلتنا. لذلك تعاونا مع الحكومة الإيطالية في احتلال مدينة طرابلس»[٢٩].

يتضح من هذه الشهادة ان عائلة المنتصر لم تر غرابة في التعاون مع الطليان، بل على العكس كان هذا التعاون مجرد وسيلة لحماية مصالحهم الاقتصادية ولرفع ما أدعوه من ظلم حكومة تركيا الفتاة[٣٠]. المحافظة على مصالحهم ونفوذهم هو الدافع الأساسي لذلك. نظير هذا التواطؤ عينتهم الإدارة الاقتصادية كمستشارين وإداريين في منطقة طرابلس[٣١].

التجار اليهود الوسطاء وتحديداً العاملين في مصرف روما أيضاً تواطأوا مع الإدارة الإيطالية بل رحبوا بها وخصوصاً عائلات حلفون، حسن، لاي، اربيب وناحوم. هذه العائلات كانت نشطة في تجارة التوريد والتصدير مع أوروبا[٣٢]. وعندما بدأت إيطاليا سياسة التمييز الاقتصادي والثقافي رحب التجار اليهود بهذه السياسة وعملوا في مصرف روما والصحف الإيطالية في طرابلس. أهم صحف طرابلس الناطقة باللغة الإيطالية كانت ايكو دي تربولي، رئيس تحريرها غوستاف اربيب[٣٣]. لقد وجد التجار اليهود بلا شك بأن التعاون مع الحكومة الإيطالية هو دعم لمصالحهم الاقتصادية والتجارية، ولذلك استغلوا مهاراتهم في التجارة ومعرفة اللغة الإيطالية في توسيع نفوذهم. أما فقراء الأقلية اليهودية لم يبدوا حماس التجار اليهود. ولكن بشكل عام رحبت الأقلية اليهودية بالغزو الإيطالي[٣٤]. لفهم هذا الترحيب لا بد من الأخذ في الاعتبار بأن نصف يهود ليبيا أي حوالى عشرة آلاف عاشوا في مدينة طرابلس التي احتلت في ٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١١. هذا الاحتلال فرض أمراً واقعاً على سكان المدينة[٣٥]. كذلك حافظت الأقلية اليهودية على انغلاقها تجاه السكان المسلمين ورأت في الحاكم الجديد واقعاً جديداً لا بد من قبوله، كما نجد في كتاب راباي طرابلس موردخاي كوهين الذي وصف الغزو الإيطالي إعادة لمجد الامبراطورية الرومانية، ووصف المقاومة خارج المدينة بأنها مجموعة من المتمردين والخارجين على القانون[٣٦].

---

(٢٩) أسامي (١٩١٩)، ص ١٥٠ ـ ١٥٣. انظر أيضاً: رسالة أحمد المنتصر إلى سليمان الباروني، في: الباروني، جامع، **صفحات خالدة من الجهاد**، ص ١٤٩ ـ ١٥٩، ودار المحفوظات التاريخية، الوثيقة رقم ٨٨، «ملف عائلة المنتصر».

(٣٠) Aghil M. Barbar, «Tarabulus (Libyan Resistance to the Italian Invasion, 1911 - 1920),» (Ph.D. Dissertation, History, Madison, University of Wisconsin, 1980), p. 266, and De Leone, *La Colonizzione Dell Africa Del Nord*, pp. 390 and 420.

(٣١) الزاوي، **جهاد الأبطال في طرابلس الغرب**، ص ١١٨.

(٣٢) عيّن الإيطاليون عبد النبي بلخير متصرفاً على الجفرة في عام ١٩١٣، واعتقلوا عائلة سيف النصر. انظر: المصدر نفسه، ص ١٨٣، وفشيكه، رمضان السويحلي، ص ٢٣٢.

(٣٣) Rachel Simon, «The Socio-Economic Role of the Tripolitanian Jews in the Late Ottoman Period,» in: Michel Abitbol, ed., *Commaunates juives des marges sahariennes du Maghreb* (Jerusalem: [s.n.], 1982), p. 324.

(٣٤) Renzo De Felice, *Jews in an Arab Land: Libya, 1835-1970*, trans. by Judith Roumani (Austin: University of Texas Press, 1985), pp. 28 and 40.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٣٥١.

(٣٦) Harvey E. Goldberg, ed., *The Book of Mordechai* (Philadelphia: Institute for the Study of Human Issues, 1980), pp. 184 and 187.

يجب ألّا يفسر تعاون بعض الأعيان المتضررين من السياسة العثمانية والتجار الوسطاء كنموذج لرد فعل بقية الأعيان. على العكس، معظم الأعيان وخصوصاً الذين أيدوا حكومة تركيا الفتاة وتحديداً سليمان الباروني وفرحات الزاوي اللذان انتخبا في البرلمان العثماني في عام ١٩١٨، ورمضان السويحلي، خصم عائلة المنتصر وزعيم مصراتة، ظهروا كأبرز قادة مقاومة الاحتلال الإيطالي كما سنتناول في ما بعد.

هناك أيضاً شيوخ قبائل تعاونوا فترة وعادوا الدولة الإيطالية في فترات أخرى في دواخل طرابلس، كعائلة المنتصر. الكثير من هذه القبائل عادت الإدارة العثمانية، كما انها عاشت في مناطق الأطراف، أي خارج تأثير سياسة الاستقرار الزراعي والإداري العثماني. هذه القبائل لم تنظر إلى تعاونها مع الحكومة الإيطالية كخيانة وتواطؤ بل لم يكونوا عارفين بطبيعة الاستعمار الإيطالي، وبالتالي فسروا تعاونهم على أنه فرصة لإضعاف أو هزيمة خصومهم من القبائل الأخرى. هنا أيضاً هذه القبائل لا تعبر عن رد فعل قبائل أخرى قاومت الحكومة الاستعمارية مدة عشرين سنة.

يوضح التراث الشفوي للمرحلة الاستعمارية بأن تعاون بعض الأعيان والقبائل مع الدولة الإيطالية كان دافعه الأساسي هو الحفاظ على المناصب الإدارية أو استخدام الحكومة الإيطالية ضد خصوم محليين، بل إن الوضع الإداري في الدواخل بعد انسحاب الدولة العثمانية في عام ١٩١٣ من طرابلس شهد صراعاً بين الأعيان والشيوخ على المناصب والمعونات العسكرية والمالية. بعض شيوخ القبائل مثل الشيخ حرب النائلي، شيخ قبيلة النوايل ومحمد بن حسن المشاشي، شيخ قبيلة المشاشية، انضما إلى الجانب الإيطالي لتصحيح ما رأوه من ظلم ضدهم من خلال الإدارة العثمانية والأعيان الآخرين. هنا لا بد من تذكر ظاهرة الصفوف أو الأحلاف القبلية في القرن التاسع عشر وخصوصاً في مناطق القبلة وسرت التي ظلت قبائلها مستقلة من الإدارة العثمانية، ولذلك دوافع أساسية هي الحفاظ على استقلالها السياسي والاقتصادي.

أسلفنا في الفصل الرابع أنه كان هناك صفان قبليان في المنطقة الغربية، صف القبائل الإباضية، المشاشية، أولاد بوسيف والنوايل في مواجهة صف الزنتان، الرجبان، المحاميد والحرابة. ظهرت هذه الصفوف القبلية كنوع من الأحلاف السياسية نتيجة الصراع حول المراعي والأراضي والتحالف مع الدولة المركزية العثمانية أو مقاومتها. مثلاً في عام ١٩١٠ قامت حرب بين قبائل الزنتان وأولاد بوسيف وحلفائهم المشاشية، فوقف الجيش العثماني إلى جانب الزنتان مما أدى إلى هزيمة أولاد بوسيف والمشاشية. نتج من هذه الحرب معاداة المشاشية وأولاد بوسيف الدولة العثمانية[٣٧].

---

(٣٧) انظر: الحاج عمر الفرجاني، مقابلة بتاريخ ١٩٧٨/٦/٧، في: مبروك الساعدي، محرر، **موسوعة روايات الجهاد** (طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٣)، مج ١، ص ١٠١. انظر أيضاً:
André Caunelle, «Le Nomadisme de Zintan (Tripolitaine et Fezzan),» *Travaux de l'institut de recherches sahariennes*, vol. 16, no. 2 (1957), p. 97;
Graziani, *Verso El-Fezzan*, pp. 42 and 188-189، و الزاوي، **جهاد الأبطال في طرابلس الغرب**، ص ١٨٣،

عندما بدأ الضباط العثمانيون بتنظيم المقاومة ضد الطليان في فترة عام ١٩١١ ـ ١٩١٣ تردد بعض شيوخ المشاشية وأولاد بوسيف في الانضمام إليهم خصوصاً ان الزنتان والقبائل «المعادية» أيضاً كانت على رأس المقاومة. رغم ان الشيخ محمد بن الحاج حسن حارب الطليان مع بقية القبائل إلا أن استغلال الطليان خلافه مع الزنتان والرجبان أدى إلى انضمامه إلى الجانب الإيطالي، ولكنه تصالح في ما بعد مع خصومه بوساطة الزعماء الآخرين وحارب الطليان في فزان في عام ١٩٢٦ حتى عام ١٩٣٠ عندما هاجر مع بقية القبائل المقاومة[٣٨].

مثال ثانٍ نجده في محمد جلبان، أحد أعيان قبيلة المريانية في الجبل الغربي، الذي غضب عليه زعيم الجبل الشيخ محمد فكيني لأن الأخير عين أحد خصوم جلبان القبلي عبد الله الرحيبي مديراً لقبيلة الريابنة في عام ١٩١٨. انضم محمد جلبان إلى الجانب الإيطالي بعد أن وضعه خصمه عبد الله الرحيبي في الحبس، فكان القصد من انضمام جلبان إلى الإدارة الاستعمارية رد الاعتبار إليه من الشيخ فكيني[٣٩]. أحمد العياط (البوتسعين)، أحد شيوخ أولاد بوسيف، انضم إلى الجانب الإيطالي بعد هزيمته أمام خليفة الزاوي في فزان في عام ١٩١٨[٤٠].

أما خليفة الزاوي فهو ضابط سابق في الجيش العثماني من مدينة الزاوية في إدارة فزان. استقل الزاوي بفزان وتحالف مع حكومة رمضان السويحلي في مصراتة بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٦. ولتأكيد سلطته في فزان اعتمد الزاوي على قبائل أرياح والمقارحة، خصوم قبائل أولاد سليمان التي عادت إلى فزان. ولكن عبد الجليل سيف النصر وحلفاءه قبائل المنصف الفوقي استطاعوا هزيمة خليفة الزاوي في عام ١٩٢٦. رجع خليفة إلى طرابلس وانضم إلى الطليان كوسيلة لاسترجاع نفوذه السياسي في فزان، وعُيِّن مستشاراً للجيش الإيطالي الذي احتل فزان وهزم أولاد سليمان في عام ١٩٣٠. يفسر الصراع القبلي أيضاً دوافع تعاون بعض عشائر أرياح والمقارحة مع الجيش الإيطالي لخوفهم من نفوذ أولاد سليمان[٤١]. خلاصة القول، نظر بعض الأعيان وشيوخ القبائل إلى الإدارة العثمانية وخصومهم المحليين على أنهم خطر أكبر من الدولة الاستعمارية الإيطالية.

في منطقة غريان، سيطرت عائلة كعبار الكولوغلية على إدارة القضاء قبيل الغزو الإيطالي، بل إن الهادي كعبار انتخب عضواً في البرلمان العثماني في عام ١٩٠٨. وقد

---

(٣٨) الحاج أمنية الغربي، مقابلة بتاريخ ١٩٧٨/٥/٣١، في: الساعدي، محرر، المصدر نفسه، ص ٩١؛ الزاوي، المصدر نفسه، ص ٤٨٠ و٥٠٢، و Rodolfo Graziani, *Cirenica Pacificata*, trans. by Ibrahim B. Amir (Benghazi: Dar Al-Andalus, 1974), p. 43.

(٣٩) Graziani, *Verso El-Fezzan*, p. 110, and محمد سعيد القشاط، معارك الدفاع عن الجبل الغربي (طرابلس: المؤسسة العامة للنشر، ١٩٨٣)، ص ٣٤٥.

(٤٠) محمد علي الهامل، مقابلة بتاريخ ١٩٧٨/٧/٣، في: الساعدي، محرر، المصدر نفسه، ص ٩٠، والزاوي، المصدر نفسه، ص ٥٠٢.

(٤١) لإعطاء لمحة تاريخية عن خليفة الزاوي، انظر: الزاوي، المصدر نفسه، ص ٥٠٢ ـ ٥١٢. انظر أيضاً: André Caunelle, «Le Fezzan Soul Bey Khalifa,» *Bulletin de liaison saharienne*, vol. 9, no. 32 (1959), pp. 298-302.

استخدمت عائلة كعبار نفوذها السياسي في تسجيل أراض زراعية في سهل الجفارة باسمهم، الأمر الذي أدى إلى غيرة بقية أعيان غريان كعاكف مسيك، المبروك القعود ونافع المبروك الذين تعاونوا مع الحكومة الاستعمارية طمعاً في الحصول على مناصب كبيرة وموازنة نفوذ آل كعبار(٤٢).

عينت الدولة العثمانية في منطقة الجفارة الغربية الشيخ سوف المحمودي كتائب السلطان في طرابلس في عام ١٩١٦. وقد استغل الشيخ سوف هذا المنصب والأموال والأسلحة العثمانية في تدعيم وضع أسرته وقبيلته على حساب خصومه من القبائل الأخرى، فمتلاً عين فرحات أبو سهمين مديراً لبلدة زوارة على حساب العائلة المسيطرة بن شعبان. كذلك عيّن قريبه محمد أبولقاسم المحمودي مديراً لقبيلة النوايل وتجاهل شيخ النوايل حرب النايلي. أدت هذه السياسة إلى تعاون سلطان بن شعبان، والشيخ حرب النايلي مع الحكومة الإيطالية التي وعدت بتعيينهم كمديرين لمناطقهم(٤٣).

تطور التنافس بين أعيان وشيوخ الجبل الغربي إلى حوب أهلية في ما بين أعوام ١٩١٥ ـ ١٩١٦ و١٩٢٠ ـ ١٩٢١. الحرب الأهلية بين صفوف الجبل وتحديداً بين أهالي جادو ويفرن من جانب وقبائل الزنتان والرجبان من جانب آخر أسبابها معقدة بسبب تركيبة سكان الجبل الغربي من فلاحين وقبائل، مسلمين إباضيين ومالكيين. إن وجود أقلية إباضية تتبع المذهب الخارجي في الجبل الغربي ليس حديثاً ولكنه يرجع إلى بداية الفتح الإسلامي وبعدها مجيء بني هلال وسليم. لقد هرب الدعاة الخوارج إلى افريقيا خوفاً من البطش الأموي والعباسي، بل إنهم كوّنوا دولاً في ولاية افريقيا، وأصبح الجبل الغربي في طرابلس ملجأ للخوارج من المطاردة الفاطمية في الساحل. لذلك حافظت بعض القبائل على هويتها الإباضية في الجبل الغربي ومدينة زوارة.

على عكس التحليلات العرقية ـ المذهبية تزاوج القبائل والفلاحون الإباضيون وارتبطوا تاريخياً واجتماعياً بالقبائل الأخرى في الجبل الغربي(٤٤). فلو نظرنا إلى تركيبة الصفوف القبلية في الجبل الغربي لوجدنا إباضيين ومالكيين في صف واحد. لهذه الأسباب لا نجد دليلاً قوياً على وجود تقسيم عرقي في الجبل الغربي كما ادعى ديبوا ودي أوغسطيني، الذي ركّز على الرؤية الاستعمارية للغرب في مواجهة البربر. هذا التحليل يتفق مع وضع الأقلية اليهودية المنغلقة على ذاتها ولكن من الصعب إيجاد دليل على وجود نقاء عرقي عربي وبربري. لقد

---

(٤٢) محمد خليفة مفتاح، مقابلة بتاريخ ١٩٧٨/٤/٢٤، في: الساعدي، محرر، المصدر نفسه، ص ٣٠ ـ ٣١، والقشاط، معارك الدفاع عن الجبل الغربي، ص ١٢.

(٤٣) الزاوي، المصدر نفسه، ص ٢٣٣.

(٤٤) Jean Despois, *Le Dejbel Nefousa (Tripolitaine): Etude géographique* (Paris: Larose, 1935), pp. 308 et 319, et

عبد الجليل الطاهر، المجتمع الليبي (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٦٨)، ص ٣٣.

تصاهر العرب والبربر وامتزجوا منذ مجيء القبائل العربية الهلالية نظراً إلى أنهم مارسوا الرعي وارتبطوا بالنظام القبلي. نحن نرفض مقولة النقاء العرقي للبربر وكذلك العرب أيضاً[45].

لو حللنا القاعدة الاجتماعية التي أيدت الشيخ غومة المحمودي في انتفاضة الجبل الغربي بين عامي ١٨٣٥ و١٨٥٨ لوجدنا القبائل والفلاحين الإباضيين والمالكيين في مقدمة حلفائه[46]. ومن ثم نفضل النظر إلى تحالفات الجبل الغربي من خلال ظاهرة الصفوف التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر، لأن الصفوف القبلية هي ظاهرة استراتيجية في أوقات الحروب الأهلية لمواجهة الدولة والغزو الخارجي. لهذا نجد في الحرب الأهلية بين عامي ١٩١٥ و١٩٢١، قبائل مالكية كأولاد بوسيف والمشاشية وقسم من الريابنة في صف الإباضية من أهالي يفرن، جادو وفساطة.

هناك قبائل قاومت وتعاونت مع الدولة الاستعمارية، أي لعبت على الحبلين كما يقول المثل الشعبي الليبي. هذا التقلب يحتاج إلى التفسير. ونجد قبيلة المشاشية في منطقة الجبل الغربي وورفلة في القبلة وشرق طرابلس مثالاً للتقلب بين المقاومة والتواطؤ أو العكس. هذه القبائل التي ظلت خارج سيطرة الدولة والاقتصاد الرأسمالي في طرابلس ظل همها الأساسي المحافظة على استقلالها السياسي والاجتماعي في مواجهة خصومها القبليين. ومن ثم الدولتان العثمانية والإيطالية بالنسبة إلى هذه القبائل المستقلة ليستا بالضرورة العدو الأساسي، ولكن في بعض الأحيان هي قبائل أخرى مجاورة أو أعضاء في صف قبلي معادٍ.

أسلفنا بأن عبد النبي بلخير شيخ قبيلة ورفلة دعم مركزه في وسط القبيلة بعد أن عين كمسؤول جمع ضرائب في الإدارة العثمانية في عام ١٩٠٨. هذا المنصب ساعده مالياً على التغلب على منافسيه في زعامة القبيلة[47]. وقفت قبيلة ورفلة كبقية قبائل القبلة وسرت على الحياد في بداية الغزو الإيطالي لأنها لم تربط مركزياً بالاقتصاد والإدارة المركزية العثمانية برغم تعيين عبد النبي كمدير لورفلة. وعندما وصلت الجيوش الإيطالية إلى مشارق ورفلة بعد هزيمتها المقاومة في المناطق الساحلية تعاون عبد النبي مع العقيد الإيطالي مياني قائد الحملة الإيطالية لاحتلال فزان. كان دافع عبد النبي وعشائر ورفلة التي حاربت مع الحملة الإيطالية المحافظة على مصالح قبيلة ورفلة. وكان عبد النبي بلخير دائماً مخلصاً لقبيلته وعكس هذه الإيديولوجية القبيلية، ولم يكن له طموح إقليمي أو قومي، وهو برأينا عكس لاستقلالية قبيلة ورفلة كبقية القبائل الأخرى في الحمادة أو القبلة. بعبارة أخرى الاستقلال الاقتصادي والاجتماعي لهذه القبائل جعلها تنظر إلى مصالحها القبلية أولاً وفوق الاعتبارات الأخرى. لقد

---

(٤٥) Enrico Di Agostini, *Le Populazioni Della Tripolitania: Notizle, Ethniche e Storiche* (Tripoli: Uffico Politico Militare, 1917), p. xx, and Hadi Abu Lugma, «Ethnic Elements in the Western Coastal Zone of Tripolitania,» in: S.G. Willmont and J.I. Clarke, eds., *Field Studies in Libya* (Durham, England: Durham University Press, 1960), pp. 113-115.

(٤٦) Allen Streicker, «Government and Revolt in the Tripoli Regency, 1795-1855,» (M.A. Thesis, Northwestern University, 1970), pp. 36 and 79-80.

(٤٧) محمد المرزوقي، عبد النبي بلخير (تونس؛ طرابلس: الدار العربية للكتاب، ١٩٧٨)، ص ٦٢ - ٦٣.

أصبح عبد النبي بلخير مستشاراً للحملة الإيطالية لاحتلال فزان في عام ١٩١٣ لضعف المقاومة في منطقة الساحل ومن أجل الحفاظ على زعامته ومصالح قبيلته في فترة التوسع الإيطالي[٤٨].

وقف عبد النبي وقبيلة ورفلة على الحياد بعد أن بدأت الثورة ضد الاحتلال الإيطالي في ٢٨ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٤ في سبها والجبل، ولم ينضم إلى المقاومة إلا بعد هزيمة الجيش الإيطالي في معركة القرضابية في ١٨ نيسان/ أبريل ١٩١٥. قرر عبد النبي مهاجمة الحامية الإيطالية في بني وليد عندما عرف هذا الشيخ القبلي خطورة موقفه المحايد تجاه الدولة الإيطالية. بعد هزيمة جيشها هجم مع عشائر ورفلة على الحامية الإيطالية في بني وليد واستولى عليها ومن ثم أصبح جزءاً من المقاومة وأحد القادة الأربعة للجمهورية الطرابلسية في عام ١٩١٨. ولكن عبد النبي ظل ينظر بحذر لازدياد نفوذ خصمه في مصراتة رمضان السويحلي الذي أصبح الزعيم الطرابلسي المفضل للضباط العثمانيين الذين طردوا من برقة بعد فشل هجوم أحمد الشريف على مصر في عام ١٩١٦. كان رمضان السويحلي كما أسلفنا الخصم الأساسي لعائلة المنتصر. وبدأ نجم رمضان في الظهور بعد أن انضم إلى المقاومة ضد الجيش الإيطالي برغم انه جاء مع العقيد مياني إلى الحرب ضد المجاهدين. وأصبح رمضان بعد أن فاجأ القوات الإيطالية الزعيم المفضل لضباط تركيا الفتاة مما أغراه بمحاولة بسط نفوذه على إقليم طرابلس، وبالتالي تقليص نفوذ خصومه مثل عبد النبي في ورفلة، المريض في ترهونة والسنوسيين في منطقة سرت[٤٩].

أسس رمضان السويحلي حكومة محلية في مصراتة بمساعدة الضباط الأتراك، وبفضل المساعدات الألمانية عن طريق الغواصات التي وصلت ميناء قصر حمد، كذلك بعض القوميين العرب وتحديداً عبد الرحمن عزام الذي طرد من برقة أيضاً ولعب دوراً هاماً في المقاومة الليبية. كان عزام طالباً مصرياً في أوروبا انضم إلى المقاومة ضد الاحتلال الإنكليزي في مصر وبعدها جاء إلى برقة وانضم إلى المقاومة مع الضباط أنور باشا ومصطفى كمال ونوري السعيد وجعفر العسكري وصالح حرب. بعد فشل الهجوم على مصر بقيادة السيد أحمد الشريف طرد الضباط الأتراك وعبد الرحمن عزام إلى طرابلس وتحديداً إلى مصراتة ودعموا رمضان السويحلي وحكومته. ثم أصبح عزام مستشاراً للجمهورية الطرابلسية، وبعد هزيمة المقاومة في طرابلس رجع إلى مصر، وأصبح نائباً في البرلمان المصري وانتخب كأول أمين عام للجامعة العربية في عام ١٩٤٥.

أسلفنا بأن عبد النبي أصبح مع قادة المقاومة، ولكنه كان قلقاً من مطامع زعيم

---

(٤٨) خليفة محمد التليسي، . . . بعد القرضابية: دراسات في تاريخ الاستعمار الإيطالي بليبيا (طرابلس الغرب، ١٩٢٢ ـ ١٩٣٠) (بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٣)، ص ٢١٣، والزاوي، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ص ١٨٦.

(٤٩) للاطلاع على سيرة رمضان، انظر: فشيكه، رمضان السويحلي.

مصراتة رمضان السويحلي الذي أراد ضم ورفلة مباشرة إلى حكومته مستغلاً الدعم الألماني والعثماني خلال الحرب العالمية الأولى.

اهتم الأعيان وشيوخ القبائل في المنطقة الغربية بالمصالح الاقتصادية السياسية أولاً ولم ينظروا إلى الدولة الإيطالية على أنها العدو الأول أو الدائم. لذلك بدأت الدولتان الإيطالية والعثمانية في التنافس على كسب ولاء أو حياد هؤلاء الأعيان والشيوخ. استفاد رمضان السويحلي من المعونات الألمانية والعثمانية وغنائم معركة القرضابية بعد أن غير مواقفه من الجانب الإيطالي إلى جانب المقاومة. وبدأت الحكومة الإيطالية من جانبها في إغراء الزعماء المعارضين لرمضان السويحلي وخصوصاً عبد النبي الذي قبل المعونات المالية والأسلحة التي قدمتها الحكومة الإيطالية له. وكان هدف الحكومة الاستعمارية هو استغلال التناقضات والعصبيات بين الزعماء[٥٠].

أصبح المناخ السياسي متوتراً نظراً الى المعونات العثمانية لرمضان الذي لم يخف طموحه في بسط نفوذ حكومته في مصراتة إلى المناطق الأقرب وتحديداً سلاتة وورفلة، وفي صيف عام ١٩٢٠ وجد رمضان عذراً للهجوم على عبد النبي في بني وليد عندما لجأ عبد القادر المنتصر إلى منطقة ورفلة وبدأ في الهجوم على قطعان مصراتة. اتهم رمضان عبد النبي وهجم في عز الصيف على ورفلة في بني وليد، ولكن سوء التخطيط في الهجوم وخصوصاً نقص المياه أدى إلى هزيمة حملة مصراتة وقتل رمضان، ولكن ذلك أدى الى عزل عبد النبي عن قادة المقاومة الذين انتقدوه لعدم تفاديه هذه الحرب. ولكن لم تمض سنتان حتى استطاع الجيش الإيطالي استغلال الصراعات والتنافس بين الزعماء الطرابلسيين وبعدها هزيمتهم في نهاية عام ١٩٢٣. ووقع عبد النبي نفسه في مأزق شديد بعد زحف القوات الإيطالية على مشارف بني وليد. هذه المرة لم يثق الطليان بعبد النبي الذي هجم على حاميتهم نحو بني وليد في عام ١٩١٤. واضطر عبد النبي إلى مقاومة الطليان، وبعد احتلال بني وليد انسحب مع القبائل المقاومة إلى فزان. وبعد التوسع الإيطالي داخل فزان اختفى عبد النبي في الصحراء الجزائرية في صيف ١٩٣٢ ولم يعثر على جثته قط[٥١].

خلاصة القول، أدت الانشقاقات والصراعات بين الزعامات الطرابلسية إلى لجوء بعضهم إلى الجانب الإيطالي لحماية مصالحهم ضد خصومهم. الكثيرون من هؤلاء الزعماء لم ينظروا الى الدولة الإيطالية كعدو أولي بل أحياناً كوسيلة لحماية مصالحهم ومناصبهم أو منافسة خصومهم. نعود هنا إلى النظر في طبيعة الاقتصاد السياسي للمنطقة الغربية وفزان قبيل الغزو الإيطالي. لقد ارتبطت المناطق الساحلية بالتحولات الإدارية والاقتصادية في نهاية القرن التاسع عشر وخصوصاً ظهور طبقة الأعيان، التجار الوسطاء، واستقرار بعض القبائل كفلاحين. ولكن في مناطق الجبل، القبلة، سرت، وفزان ظلت القبائل خارج إطار هذه التحولات الاقتصادية والإدارية، وقد عبرت الصفوف والتحالفات القبلية عن استقلالية هذه

(٥٠) Public Record Office (PRO) (London), FO 371/4888, 2 September 1920.

(٥١) المرزوقي، عبد النبي بلخير، ص ٢٠١.

القبائل وخصوصاً بعد انسحاب الحاميات العثمانية في عام ١٩١٢، ومرة أخرى في عام ١٩١٨. أدى هذا الفراغ السياسي إلى اشتداد التنافس بين الزعماء الطرابلسيين حول الضرائب، والمعونات العثمانية، والإيطالية. وقد عكست الطبيعة الانتقالية لاقتصاد طرابلس إيديولوجيات مختلفة قبلية وطبقية وإقليمية وإسلامية.

عكس قبائل وفلاحو فزان أيضاً ردود فعل مشابهة لقبائل الجبل، القبلة وسرت. لقد حاربت قبائل الطوارق وأولاد سليمان، وعرب الشاطىء التوسع الإيطالي لأنه هدد استقلالهم الاقتصادي والسياسي. ولكن نظراً الى سيطرة أولاد سليمان على قيادة المقاومة في فزان نجد أن خصومهم القبليين مثل أرياح والمقارحة تعاونوا مع الجيش الإيطالي خوفاً من سيطرة أولاد سليمان كما حدث في مرحلة ثورة عبد الجليل في عامي ١٨٣٠ و١٨٤٢[٥٢]. لقد كان الفلاحون الفزانيون في غاية الفقر والعزلة ولذلك لم يكن لهم دور فعال تجاه الدولة الاستعمارية.

تعاون في برقة أعيان المدن الساحلية: بنغازي ودرنة مع الإدارة الإيطالية خصوصاً أن علاقتهم الاقتصادية والاجتماعية مع قبائل الداخل ليست بقوة العلاقات في المنطقة الغربية حيث تعاون سكان المدن مع أعيان الداخل في المقاومة. هذا برأينا نتيجة ضعف العلاقات بين المدن والقبائل في نهاية القرن التاسع عشر[٥٣]. ليس رد فعل أعيان مدن برقة غريباً، فعزلتهم من قبائل الداخل قابلها مناصب إدارية في الحكومة الإيطالية. لهذا قرر العديد من الأعيان التعاون السلمي مع الإدارة الاستعمارية.

هذه برأينا أهم دوافع وسياسات التعاون والتواطؤ مع الحكومة الاستعمارية، هذه الدوافع يجب أن تفهم في إطار الاقتصاد السياسي لطرابلس وفزان وبرقة وتطورها قبيل الغزو الإيطالي. الاقتصاد الانتقالي في طرابلس أدى الى صراعات وتنافس بين الأعيان والشيوخ، وبالتالي تواطؤ بعضهم مع الإدارة الاستعمارية لتأكيد مصالحهم أو التوسع والانتقام من هزائم سببتها قبائل وزعامات محلية لهم. لذلك لم تطل المقاومة الطرابلسية بعد عام ١٩٢٤ ولكنها استمرت في فزان حتى عام ١٩٣٠ وبرقة حتى عام ١٩٣٢.

ثانياً: دوافع وسياسات حركات المقاومة (١٩١١ - ١٩٣٢)

توقع صانعو القرار السياسي لاحتلال ليبيا بأن يرحب بهم السكان في الولاية أو على أسوأ الظروف خوض بعض المعارك العسكرية المحدودة. بني هذا التفكير على تصور إيطالي بأن الأهالي في ولاية طرابلس الغرب كرهوا الحكم العثماني الاستبدادي الذي أدى الى تأخر

---

(٥٢) القشاط، معارك الدفاع عن الجبل الغربي، ص ٩٩، والتليسي، ... بعد القرضابية: دراسات في تاريخ الاستعمار الإيطالي بليبيا (طرابلس الغرب، ١٩٢٢ - ١٩٣٠)، ص ٢٥٧.

(٥٣) الطاهر أحمد الزاوي، عمر المختار (طرابلس: مكتبة الفرجاني، ١٩٧٠)، ص ١٢٨، و E.E. Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica* (Oxford: Clarendon Press, 1949), pp. 159-160.

وتخلف الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية. تجاهل هذا التصور جهود التحديث العثمانية وطبيعة الخلاف بين القبائل والدولة العثمانية. في النهاية نظر معظم القبائل والفلاحين، رغم رفضهم الضرائب العثمانية، الى الدولة العثمانية كدولة إسلامية خصوصاً إذا قورنت، رغم قمعها وقصورها، بالدولة الإيطالية المسيحية. كان التصور الإيطالي لرد فعل سكان ولاية طرابلس الغرب خاطئاً لأن مقاومة القبائل والفلاحين استمرت مدة عشرين عاماً، أي من أطول حركات مقاومة الاستعمار في افريقيا في تلك الفترة. وسنحاول كما فعلنا في تحليل دوافع وسياسات التعاون والتواطؤ مع الدولة الاستعمارية النظر الى دوافع أو تصور المقاومة من وجهة نظر المجاهدين، ثم نحلل السياسات الواقعية للمقاومة أو الجهاد الليبي للاستعمار.

نظمت المقاومة في ما بين عامي ١٩١١ و١٩٣٢ من خلال دول وحركات اجتماعية وتنظيمات قبلية. ساعدت الدولة العثمانية المقاومة ما بين عامي ١٩١١ و١٩١٢ وبعد دخولها الحرب العالمية الأولى (١٩١٥ ـ ١٩١٨) الدول المحلية والدولة السنوسية، الجمهورية الطرابلسية والتحالفات القبلية الفلاحية. هزمت المقاومة في ١٩٣٢ نظراً الى قلة المصادر المالية والعسكرية والصراعات بين الأعيان وشيوخ القبائل والتفوق العسكري الإيطالي.

انتمى معظم الضباط الأتراك الذين شاركوا في المقاومة لجمعية تركيا الفتاة، والدافع كان تقوية الدولة العثمانية ومقاومة الاستعمار الأوروبي. ومن أهم الضباط الأتراك الذين نظموا المقاومة الليبية في المرحلة الأولى بين ١٩١١ ـ ١٩١٢ نجد، نشأت باشا في طرابلس، أنور باشا (في ما بعد أصبح وزير الحربية العثماني)، مصطفى كمال (أتاتورك في ما بعد)، وعزيز علي المصري في برقة في معاونة القوات السنوسية بقيادة أحمد الشريف[٥٤]. ولكن بعد أن هاجمت القوات الإيطالية مضايق الدردنيل وجزر الدودون العثمانية في البحر المتوسط اضطرت الحكومة العثمانية الى توقيع معاهدة صلح مع إيطاليا في ١٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٢. وبسبب هذه الاتفاقية انسحب معظم هؤلاء الضباط من ولاية طرابلس الغرب.

أثار الغزو الإيطالي لولاية طرابلس الغرب شجب الرأي العام الإسلامي كما تبين المقالات الصحفية في تلك الفترة، بل إن متطوعين مسلمين جاؤوا إلى الولاية من مصر، تونس، الجزائر، تشاد، والهند للمشاركة في الجهاد الليبي. لذلك كان موقف الحكومة العثمانية مخجلاً لتخليها عن أتباعها الليبيين[٥٥].

كانت اتفاقية الصلح الإيطالية العثمانية غامضة في بعض بنودها. وافق المفاوضون العثمانيون على الانسحاب من ولاية طرابلس الغرب والاعتراف بالمطامع الإيطالية. ولكن

---

(٥٤) انظر: أورخان كولوغلو، محرر، **مذكرات أنور باشا**، ترجمها إلى العربية عبد المولى الحرير (طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٧٩)، وعماد حاتم، محرر، **مذكرات الضباط الأتراك**، ترجمة وجدي قدق (طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٧٩).

(٥٥) لعب شكيب ارسلان، مفكر الحركة الإسلامية في أوروبا، دوراً كبيراً في نشر أخبار غزو ليبيا. انظر: William L. Cleveland, *Islam Against the West: Shakib Arslan and the Campaign for Islamic Nationalism* (Austin: University of Texas Press, 1985), pp. 100-102.

السلطان العثماني أعطى الاستقلال لسكان الولاية في إعلان خاص قرىء في الولاية. إذن، من جانب وافقت الحكومة العثمانية على الاحتلال الإيطالي لليبيا مقابل الانسحاب من المضايق العثمانية، ومن جانب آخر أعلن السلطان استقلال أهالي الولاية. الإعلان السلطاني باستقلال أهالي الولاية قصد به الاعتذار أو إخفاء التسليم العثماني في اتفاقية الصلح مع إيطاليا لسكان الولاية وللرأي العام في البلدان الإسلامية الذي نظر الى الغزو الإيطالي كامتداد للتوسع الصليبي المسيحي الأوروبي[٥٦].

وجدت القيادات المحلية نفسها وحيدة في مواجهة الجيوش الإيطالية. ولكن أنور باشا سلم أحمد الشريف ما تبقى من الأسلحة والمؤن العثمانية في برقة. لذلك أعلن أحمد الشريف الحكومة السنوسية والجهاد ضد الطليان في عام ١٩١٣. لقد قام في المنطقة الغربية عضوا البرلمان العثماني من الولاية سليمان الباروني وفرحات الزاوي بدعوة أعيان وشيوخ قبائل المنطقة إلى مؤتمر لمناقشة معاهدة الصلح الإيطالية ـ العثمانية وكيفية التعامل مع الحكومة الإيطالية بعد الانسحاب العثماني من الولاية. عقد هذا المؤتمر في العزيزية خارج مدينة طرابلس، وبرز رأيان في ذلك المؤتمر: بعض أعيان الساحل مثل فرحات الزاوي وعلي بن تنتوش أرادا مفاوضة إيطاليا من أجل الاستقلال. كما أعلن السلطان العثماني أن هؤلاء الأعيان جاؤوا من مناطق محتلة أو تحت الضغط العسكري الإيطالي، وكانوا بالتالي راغبين في إيجاد حل سلمي. ولكن بقية الأعيان وشيوخ القبائل بقيادة سليمان الباروني، الشيخ سوف المحمودي شيخ المحاميد والشيخ محمد بن عبد الله البوسيفي كانوا مصممين على الجهاد بكل وسيلة لإرغام إيطاليا على الاعتراف بالاستقلال الذي أعطاهم إياه السلطان العثماني[٥٧].

تقابل الجناح المؤيد التفاوض مع الحكومة الإيطالية خارج مدينة طرابلس، ولكن الرفض الإيطالي للمطالب الطرابلسية أدى الى انضمام هؤلاء الأعيان الى بقية القيادات التي قررت المقاومة العسكرية. برز سليمان الباروني، عضو البرلمان العثماني كقائد للمقاومة ونظم حكومة محلية وتحديداً بعد أن حصل على أسلحة ومؤن ونقود من الدولة العثمانية في عام ١٩١٣[٥٨]. التصلب السياسي الإيطالي في رفض إعطاء حكم ذاتي أو مشاركة الأعيان في الإدارة دفع معظم الأعيان والشيوخ إلى قيادة المقاومة في الداخل. وعندما احتلت القوات الإيطالية، بمعاونة عمر المنتصر سرت، فقد معظم أعيان الساحل الأمل في اجراء تفاوض يضمن استقلالهم. ولكن أعيان الساحل بعكس أعيان مدن برقة تعاونوا مع زعامات الداخل كنتيجة العلاقات الاقتصادية والإدارية التي نمت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

بلغ عدد المقاومة عند استئناف الحرب من الجانب الإيطالي في عام ١٩١٣ حوالى

---

(٥٦) من أجل الاطلاع الكامل على الاتفاقية الإيطالية ـ العثمانية، انظر: محمد عبد الكريم الوافي، الطريق إلى لوزان (طرابلس: دار الفرجاني، ١٩٨٠).

(٥٧) الزاوي، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ص ١٦٠ ـ ١٦١؛ الباروني، صفحات خالدة من الجهاد، ج ١، ص ٤٢٣، و De Leone, *La Colonizzione Dell Africa Del Nord*, p. 387

(٥٨) الباروني، جامع، المصدر نفسه، ص ٤٤٦ ـ ٤٦٧

٣١,٠٠٠ مجاهد، ويبلغ عدد القوات السنوسية ١٦,٠٠٠. وفي المنطقة الغربية حوالى ١٥,٠٠٠ مجاهد[٥٩]. كانت القاعدة الاجتماعية للمقاومة القبيلة. كل قبيلة في الداخل قدمت عدداً من المجاهدين بسلاحهم وغذائهم، وعند استشهادهم عادة ما عوضتهم القبيلة برجال آخرين. وقد لعبت النساء دوراً هاماً أيضاً في الاعتناء بالجرحى، إعداد الطعام، وإذكاء حماس الرجال من خلال الزغاريد والغناء، وفي بعض الحالات نجد مجاهدات في الحرب مثل سليمة النابلية.

جابه التوسع العسكري الإيطالي قبائل موحدة ومنظمة في دواخل برقة، ولكن استمرت المقاومة في المنطقة الغربية حتى معركة الأصابعة في ٢٣ آذار/ مارس ١٩١٣. وقد استطاع الجيش الإيطالي هزيمة المقاومة لقلة المؤن والسلاح مما أدى الى احتلال الجبل الغربي[٦٠]. وقد قرر بعض قادة المقاومة الانسحاب والهجرة، فنجد الشيخ سليمان الباروني وسوف المحمودي وحرب النائلي مع ٣,٠٠٠ مجاهد هاجروا إلى تونس وسلموا أسلحتهم الى السلطات الفرنسية. ولكن مجموعة أخرى من قبائل القبلة بقيادة الشيخ محمد بن عبد الله البوسيفي وسالم بن عبد النبي الزنتاني ومحمد السني شيخ الزاوية السنوسية في مزدة انسحبت إلى دواخل فزان[٦١].

بعد معركة الأصابعة واحتلال الجبل الغربي، زحف الجيش الإيطالي بقيادة الكولونيل مياني على الجفرة وفزان لضرب جيوب المقاومة، وكان في رفقة الجيش عبد النبي بلخير وعمر المنتصر كمستشارين. تصدى للجيش الإيطالي مائتان من المجاهدين بقيادة الشيخ محمد عبد الله البوسيفي في وادي الشاطىء بفزان. ولكن قلة العدد والسلاح رجح كفة الجانب الإيطالي في معركة محروقة حيث استشهد الشيخ البوسيفي في ٢٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٣[٦٢]. وقد استطاع الجيش الإيطالي بعد معركة محروقة والشب احتلال واحات فزان ووصل غات في ١٢ آب/ أغسطس ١٩١٤. وبهذا تم احتلال طرابلس وفزان[٦٣].

ولكن لم تدم انتصارات الجيش الايطالي العسكرية، بقيادة مياني، طويلاً لتجاهلها وجود قبائل مسلحة على دراية كاملة بالصحارى والجبال والأودية. لذلك سيطرت الحاميات الإيطالية على الواحات والمدن فقط. وبدأت القبائل المقاومة في شن حرب خاطفة ومفاجئة. بدأت هذه الانتفاضة في ٢٨ أيلول/ سبتمبر ١٩١٤ بالهجوم على الحامية الإيطالية في قلعة

---

(٥٩) Rosaba Davico, «La Guerilla Libyenne, 1911-1932,» dans: *Abd Elkarım et la république du Rif* (Paris: F. Maspéro, 1976), pp. 434-435, et Rachel Simon, *Libya Between Ottomanism and Nationalism* (Berlin: Klaus Schwarz Verlag, 1987), p 188.

(٦٠) الباروني، جامع، المصدر نفسه، ص ٤٦٧.

(٦١) سليمان الباروني، الشيخ سوف المحمودي و٣٠٠٠ مجاهد سلموا أسلحتهم إلى السلطات الفرنسية في تونس. انظر: Barbar, «Tarabulus (Libyan Resistance to Italian Invasion, 1911-1920),» p. 262.

(٦٢) الزاوي، **جهاد الأبطال في طرابلس الغرب**، ص ١٨٤، والتليسي، . . . **بعد القرضابية: دراسات في تاريخ الاستعمار الإيطالي بليبيا (طرابلس الغرب، ١٩٢٢ ـ ١٩٣٠)**.

(٦٣) الزاوي، المصدر نفسه، ص ١٨٦.

القاهرة بسبها في فران[٦٤]. قاد هذا الهجوم سالم بن عبد النبي الزنتاني أحد المقاومين في وادي الشاطىء مع الشيخ محمد بن عبد الله اليوسيفي. وقد أسفر الهجوم عن الحصول على مؤن وأسلحة وقتل جزء من الحامية وفرار البقية[٦٥]. ساعد على نجاح هذا الهجوم معلومات عن الحامية الإيطالية أعطاها مجند حطماني للقبائل المقاومة. كما أدى الهجوم على قلعة لقاهرة بالتعاون مع القبائل الأخرى، أولاد سليمان والطوارق وعرب وادي الشاطىء، إلى تحرير فزان نهاية عام ١٩١٤[٦٦].

سقطت الحاميات الإيطالية واحدة بعد الأخرى: مرزق في ٦ كانون الأول/ ديسمبر وغات في ٢٣ كانون الأول/ ديسمبر. وانسحب القائد مياني بقواته إلى منطقة سرت ووصل مصراتة في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٤. كما انسحبت القوات الإيطالية المهزومة في غات وغدامس إلى الجزائر وتونس في ظل الحماية الفرنسية. ولكن تحرير فزان شجع قبائل سرت والجبل الغربي على الانتفاض على القوات الإيطالية مما أدى في النهاية الى هزائم أخرى ونهاية حياة مياني العسكرية.

قاد خليفة بن عسكر الهجوم على حاميات الجبل الغربي في اليوم نفسه الذي هجمت فيه القبائل على حامية القاهرة في سبها. وقد أدى بدء الهجوم على قافلة عسكرية إيطالية قرب كاباو الى قتل معظم الجنود والاستيلاء على غنائم من السلاح والتموين. كما أدى هذا الهجوم الى بداية انتفاضة الجبل حين هجمت القبائل والفلاحون على الحاميات العسكرية الأخرى. وقد انسحبت القوات الإيطالية إلى تونس في ١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٤. أما في منطقة الجفرة فقد حُررت ودان في ١٥ كانون الثاني/ يناير ١٩١٥ وبالتالي تم تحرير فزان والجبل والجفرة[٦٧].

حاول القائد مياني إيقاف الانتفاضة، لذلك أعطى نقوداً وسلاحاً إلى بعض أعيان طرابلس مقابل القتال في الجانب الإيطالي. ولكن هذه السياسة أدت إلى كارثة عسكرية للاستعمار الإيطالي، إذ أرسل مياني حملتين لاحتلال الجبل الغربي وفزان ولكنهما هزمتا، ومن ثم قرر التركيز على منطقة سرت حيث تركزت معظم القوات المقاومة. لقد جند مياني حوالى ٣,٠٠٠ ليبي من المنطقة الغربية من مناطق زليطن، مصراتة، وترهونة. هنا نود أن نشير إلى

---

(٦٤) المصدر نفسه، ص ١٩٣ - ١٩٦.

(٦٥) المصدر نفسه، ص ١٩٦. انظر أيضاً رواية أحد المجاهدين الذين شاركوا في الانتفاضة: عبد القادر محمد أحمد، مقابلة بتاريخ ١٩٧٨/٦/٧، في: الساعدي، **موسوعة روايات الجهاد**، ج ١، ص ١١٦٧؛ De Leone, *La Colonizzione Dell Africa Del Nord*, p. 429, and خليفة محمد التليسي، **معجم معارك الجهاد في ليبيا، ١٩١١ - ١٩٣١** (طرابلس؛ تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠)، ص ٢٧٥.

(٦٦) التليسي، **معارك الجهاد الليبي من خلال الخطط الإيطالية**، ص ٤٥ - ٤٦.

(٦٧) Simon, *Libya Between Ottomanism and Nationalism*, p. 221, and التليسي، المصدر نفسه، ص ٤٥ - ٤٦.

أن هم الأعيان والشيوخ كانت مصالحهم المالية والاجتماعية بشكل أساسي، ومن ثم فهم كما يقول المثل الليبي «مع الواقف» أي مع من يحمي مصالحهم حتى ولو كان الدولة الإيطالية.

ومن هؤلاء الأعيان رمضان السويحلي الذي ربما كان على اتصال بقادة المقاومة، ولكنه نظر الى سير المعركة ومن كان له زمام المبادرة. المعركة هي معركة القرضابية في ١٩ نيسان/ أبريل ١٩١٥. هذه المعركة شهدت وحدة المقاومة في فزان، طرابلس وبرقة. لقد قامت القوات السنوسية بقيادة صفي الدين السنوسي وفران بقيادة أحمد سيف النصر. وكان عدد القوات المقاومة حوالى ٢,٠٠٠ مقاتل. اللحظة الحاسمة في المعركة كانت عندما أمر رمضان السويحلي مقاتلي مصراتة بضرب القوات الإيطالية من الخلف مما أدى إلى أكبر هزيمة عسكرية للاستعمار الإيطالي في معركة القرضابية[٦٨].

خسر الجيش الإيطالي ٥٠٠ من جنوده وضباطه بالإضافة إلى ٢٣٢ من المجندين الليبيين. وقد استولى رمضان السويحلي على معظم الغنائم وهي ٥,٠٠٠ بندقية، ملايين من قذائف البنادق، أحد عشر مدفعاً، بالإضافة إلى كميات كبيرة من النقود والتموين[٦٩]. انتصار المقاومة في معركة القرضابية سببه وحدة المقاومة في أقاليم ليبيا التي لم تكرر كثيراً، بالإضافة إلى انضمام قوات مصراتة الى المقاومة.

أدت معركة القرضابية إلى نتائج هامة في توازن القوة بين الاستعمار الإيطالي والمقاومة. سقط نجم القائد مياني الذي حاول صب جام غضبه على الأهالي فأمر بشنق ٧٠٠ مواطن مدني في سرت ونفى ١١,٣٠٠ آخرين إلى إيطاليا. ولكن الوجود العسكري الإيطالي انكمش إلى مدينة طرابلس والخمس نهاية عام ١٩١٦. وفزان حُرِرَت، وفي برقة ظل الوجود العسكري الإيطالي محدوداً في بنغازي والمرج[٧٠].

أدى دخول الامبراطورية العثمانية في جانب ألمانيا والنمسا في الحرب العالمية الأولى إلى تجديد علاقتها مع قادة المقاومة في ولاية طرابلس الغرب بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨. فجاءت المعونات العثمانية عن طريق الغواصات الألمانية الى ميناء قصر حمد قرب مصراته، كما هرّبت المعونات عن طريق الحدود المصرية والتونسية. كان هدف السياسة العثمانية أساساً الهجوم على القوات الإيطالية والإنكليزية في مصر بحكم انهم أعداء للصف العثماني - الألماني - النمساوي في الحرب. لهذا نجد الشيخ سليمان الباروني وسوف المحمودي قد رجعا من منفاهما في اسطنبول ودمشق وانضم إليهما عبد الرحمن عزام القومي العربي من مصر ونوري باشا (شقيق أنور باشا وزير الحربية في حكومة تركيا الفتاة).

حاول الضباط الأتراك إقناع أحمد الشريف قائد الحركة السنوسية بالهجوم على الجيش

---

(٦٨) انظر: التليسي، معجم معارك الجهاد في ليبيا، ١٩١١ - ١٩٣١، ص ٤٠٥ - ٤٠٨؛ De Leone, *La Colonizzione Dell Africa Del Nord,* p. 448, and Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica,* p. 122.

(٦٩) التليسي، المصدر نفسه، ص ٤٠٨.

(٧٠) التليسي، معارك الجهاد الليبي من خلال الخطط الإيطالية، ص ٥١ - ٥٢.

الإنكليزي. فوافق بعد تردد لأن معظم تموينه وسلاحه كان يـأتي من طريق الحـدود المصرية. هـ لم يجد دافعـاً قويـاً لمواجهـة الإنكليز في مصر[71]. ولكن ضغط حلفـائه الأتـراك أدى إلى هجوم القوات السنوسية على غرب مصر. وكانت السياسـة العثمانيـة تنوي الهجـوم على مصر من الشرق عن طريق فلسطين بالإضافة إلى الهجوم السنوسي من الغرب. وقـد نجح الهجـوم السنوسي في البداية لتأييد القبائل وسكان الـواحات في الصحـراء الغربيـة للسنوسيـة، ولكن الجيش الإنكليزي الحديث بتعداد ٦٠,٠٠٠ مقاتـل استطاع هـزيمة الجيش السنـوسي الصغير بتعداد ٢٠,٠٠٠ والمعتمد على الإبل والخيول في بداية عام ١٩١٦[72].

أدت هزيمة أحمد الشريف إلى إزاحته من قيادة الحركة السنوسيـة. فلقد اتهمـه ابن عمه إدريس السنـوسي بتوريط السنـوسية في حـرب خاسرة[73]. كـما ان السياسـة الإنكليزيـة رغم هـزيمتها الجيش السنـوسي أرادت الحفاظ عـلى عـلاقـات سليمـة مـع الحـركـة لضـمان الأمن الاستراتيجي لوجـودها في مصر. لـذلك رحبت القيـادة الإنكليزيـة بالأمـير إدريس السنوسي الذي عرف عنه الدبلوماسية واللين منذ أن التقى بالسلطات الإنكليزية في القاهرة بطريقه الى الحج في عام ١٩١٣[74]. سيـاسة إدريس السنـوسي في التحالف مـع الإنكليز لهـا مبرراتهـا: ضعفت الحركة السنوسية عسكرياً بسبب الهـزائم في مواجهـة القوات الفـرنسية في تشـاد عام ١٩٠٢ والإنكليـزية بعـد فشل الهجـوم على مصر في عـام ١٩١٦. ومن ثم صار إبعـاد أحمـد الشريف نقطة اتفاق بين الإنكليز وإدريس السنـوسي[75]. لقد أرادت السيـاسة الإنكليـزية أن تضمن سـلامة وجـودها في مصر خصـوصاً أن الحـركة السنـوسيـة لهـا أتبـاع في غـرب مصر والصحراء الكبرى. لذلك وافق إدريس السنـوسي على إبعـاد السيد أحمـد الشريف والضباط الأتـراك من برقـة[76]. وبالمقـابل بـدأ تحالف سيـاسي بين قيـادة إدريس السنـوسي والسلطات الإنكليزية استمر حتى بعد استقلال ليبيا في عام ١٩٥١. بدأ التحالف بالإعداد والمشاركـة في

(٧١) انـظر: Abdul Mola S. El-Horeir, «Social and Economic Transformations in the Libyan Hinterland During the Second Half of the Nineteenth Century: The Role of Sayyid Ahmad Al-Sharif,» (Ph. D Dissertation, History, UCLA, Los Angeles, 1981), and محمد عيسى صالحية، «صفحات من الوثائق السرية الليبية، رسائل أحمد الشريف، ١٨٧٥ - ١٩٣٣،» حوليات كلية الفنون (جامعة الكويت)، العدد ١ (١٩٨٠)، ص ١٣ - ١٧.

(٧٢) Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica*, p. 126, and Lisa S. Anderson, «States, Peasants and Tribes: Colonialism and Rural Politics in Tunisia and Libya,» (Ph. D. Dissertation, Political Science, Columbia University, 1980), p. 284.

(٧٣) انظر رسالة إدريس إلى أحمد الشريف، في: محمد فؤاد شكري، السنـوسية دين ودولـة (القاهـرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٨)، ص ١٩١، وصالحية، المصدر نفسه، ص ١٨.

(٧٤) صالحية، المصدر نفسه، ص ١٧.

(٧٥) انـظر: John Wright, «Outside Perceptions of the Sanusi,» *Maghreb Review*, vol. 13, nos. 1-2 (1988), pp. 62-69.

أخذ المسافرون البريطانيون منذ عام ١٩٢٠ يرسلون تقارير إيجابية عن السنوسي، انظر: Rosita Forbes, «Across the Libyan Desert to Kufra,» *Geographical Journal*, vol. 58, no. 2 (August 1921), pp. 82 and 85.

(٧٦) انظر رسالة إدريس إلى أحمد الشريف، في: شكري، المصدر نفســه، ص ١٩١، والزاوي، جهـاد الأبطال في طرابلس الغرب، ص ٢٨٢ و٢٨٧.

الاتفاقيات السنوسية الإيطالية في الزويتينة عام ١٩١٦ وعكرمة عام ١٩١٧ والرجمة عام ١٩٢٠. لقد أعطى الوجود الإنكليزي الحركة السنوسية حليفاً قوياً في مواجهة الدولة الإيطالية مما ساعد القيادة السنوسية على الحفاظ على إدارتها الذاتية.

نوري، عزام، الباروني وبقية الضباط الأتراك اضطروا إلى مغادرة برقة، وذهبوا إلى مصراتة حيث وجدوا في طموح رمضان السويحلي قيادة بديلة لمقاومة الطليان. وساعد هؤلاء الضباط والقيادات رمضان السويحلي في تنظيم جيشه وإدارته[٧٧]. أحمد الشريف وجيشه الجائع منع من دخول برقة وبقي في صحراء سرت، الأمر الذي اضطره بعد ذلك إلى الهجرة إلى اسطنبول (١٩١٨ - ١٩٢٣). ولكن بعد أن أعلن كمال أتاتورك جمهوريه علمانية في تركيا هاجر أحمد الشريف إلى الحجاز وبقي فيها حتى وفاته عام ١٩٣٣[٧٨]. ولكن أوراق أحمد الشريف المنشورة حديثاً تدل على استمرار مراسلاته مع القبائل المقاومة في برقة وإصراره على إيديولوجية الجهاد الإسلامي ضد الاستعمار. استخدم أحمد الشريف قوافل الحجاج إلى الحجاز من برقة كوسيلة للاتصال بأتباعه في برقة[٧٩].

شهدت الفترة ما بين عامي ١٩١٦ - ١٩٢٢ هدنة بين الدولة الإيطالية والمقاومة في طرابلس الغرب نظراً إلى هزيمة القوات الإيطالية ودخول إيطاليا في الجانب الإنكليزي - الفرنسي في الحرب العالمية الأولى. لذلك وقعت الدولة الإيطالية مجموعة من الاتفاقيات مع القيادات المحلية في برقة وطرابلس. كما ذكرنا، تم توقيع اتفاقية الزويتينة في نيسان/ أبريل ١٩١٦ وبإعداد من قبل السلطات الإنكليزية، ومن بعدها اتفاقية عكرمة ١٧ نيسان/ أبريل ١٩١٧. بناء على هاتين الاتفاقيتين وافق الطرفان السنوسي والإيطالي على السلم، الاعتراف بالسيادة الإيطالية على الساحل والسيادة السنوسية على الدواخل، حماية التجارة وطرد مسببي المشاكل (أحمد الشريف والضباط الأتراك) من برقة، إعفاء الزوايا السنوسية من الضرائب، وإعطاء العائلة السنوسية وكبار الإخوان رواتب شهرية من قبل الدولة الإيطالية في مقابل جمع السلاح وحل الأدوار العسكرية القبلية المقاومة للطليان، وأخيراً اتفق الجانبان على اللقاء في المستقبل للمراجعة[٨٠].

ولكن إدريس السنوسي لم يستطع إقناع القبائل وقادة الأدوار بتسليم سلاحهم. وبرز الشيخ عمر المختار، شيخ زاوية القصور وقائد محنك شارك في الجهاد ضد القوات الفرنسية في تشاد مع محمد المهدي وأحمد الشريف، كذلك في الهجوم على القوات الإنكليزية في مصر. معظم قادة الأدوار كعمر المختار كانوا من أنصار أحمد الشريف وسياسة الجهاد الإسلامي ضد الاستعمار كأهم وسيلة لضمان الاستقلال الذاتي. تربى هؤلاء القادة في الزوايا والمعاهد

---

(٧٧) الزاوي، المصدر نفسه.

(٧٨) صالحية، «صفحات من الوثائق السرية الليبية، رسائل أحمد الشريف، ١٨٧٥ - ١٩٣٣»، ص ١٧.

(٧٩) المصدر نفسه.

(٨٠) انظر: الزاوي، المصدر نفسه، ص ٢٦٦ - ٢٦٧، و Graziani, *Cirenica Pacificata*, p. 89.

السنوسية، وجاء معظمهم من قبائل المرابطين المتواضعة الأصل مثل عمر المختار ومساعديه يوسف بورحيل والفضيل بوعمر. ونظم هؤلاء القادة حرب العصابات ضد الجيش الإيطالي بين عامي ١٩٢٢ و١٩٣٢ في أحراش أودية الجبل الأخضر.

استفاد أعيان المنطقة الغربية من المعونات العثمانية والألمانية في الفترة بين عامي ١٩١٦ و١٩١٨ عن طريق ميناء قصر حمد في مصراتة والحدود التونسية. ومن أبرز الأعيان نجد سليمان الباروني في الجبل والشيخ سوف المحمودي في الجفارة، السويحلي في مصراتة، المريض في ترهونة وبلخير في مصراتة. بدأ الأعيان في التنافس على المعونات والسلاح لتدعيم نفوذهم على حساب خصومهم. رمضان السويحلي كان أكثر الأعيان استفادة من المعونات العثمانية خصوصاً انه قوى نفوذه بالاستيلاء على غنائم القرضابية. وقد نظم السويحلي بمعاونة عزام ونوري شرطة، مدرسة عسكرية، جيش وجمع الضرائب من شرق طرابلس. ولكن طموح رمضان كان أكبر من مصراتة، فأراد أن يكون زعيماً للمنطقة الغربية. ولذلك بدأ في مد نفوذه على حساب جيرانه من قبائل ترهونة وورفلة كما أسلفنا مما أدى إلى مصرعه في عام ١٩٢٠[٨١].

رجع الشيخ سوف المحمودي من المنفى في سوريا إلى المنطقة الغربية وسهل الجفارة بعد أن حصل على سلاح ومعونات عثمانية ومنصب نائب الوالي العثماني، واعتمد على أقاربه في إدارة المنطقة الغربية على حساب الأعيان الآخرين وخصوصاً حرب النائلي شيخ النوايل وسلطان بن شعبان كبير أعيان بلدة زوارة مما أدى إلى انضمامهم إلى الجانب الإيطالي في عام ١٩١٧. وقد عاون سلطان بن شعبان مثلاً الجيش الإيطالي في احتلال زوارة وكوفىء بتعيينه قائمقاماً للبلدة في عام ١٩١٧[٨٢].

حاول سليمان الباروني وعبد الرحمن عزام توحيد جهود الأعيان وشيوخ القبائل في طرابلس، فتدخلا للصلح بين ترهونة ومصراتة في عام ١٩١٦ لحل الصراع حول مسلاته التي أعلنت منطقة محايدة. ولكن هزيمة الامبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى في ١٩١٨ أدى مرة أخرى كما في عام ١٩١٢ إلى انسحاب ضباطها ومعداتها من طرابلس الغرب. لذلك حاولت الزعامات الطرابلسية الاستفادة من الاتفاقيات السنوسية الإيطالية لمواجهة المراوغة الإيطالية وسياسة فرق تسد بين الأعيان وشيوخ القبائل. لهذا اجتمعت القيادات الطرابلسية من شيوخ وأعيان في مؤتمر دعا إليه سليمان الباروني عضو البرلمان العثماني السابق من الجبل الغربي. هذا المؤتمر قرر تأليف حكومة طرابلسية موحدة عرفت باسم الجمهورية الطرابلسية.

---

(٨١) انظر: فشيكه، **رمضان السويحلي**.

(٨٢) الزاوي، المصدر نفسه، ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

ثالثاً: الجمهورية الطرابلسية (١٩١٨ ـ ١٩٢٠)

دعا سليمان الباروني إلى مؤتمر يجمع كل أعيان وشيوخ قبائل المنطقة الغربية. وبعد مناقشات ومشاورات اتفق المؤتمرون على إعلان الجمهورية الطرابلسية في ١٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٨ في عاصمتين العزيزية في الساحل وغريان في الجبل الغربي[٨٣]. وبهذا الإعلان تكون الجمهورية الطرابلسية أول جمهورية أعلنت في شمال افريقيا وربما ثاني جمهورية في منطقة الشرق الأوسط بعد جمهورية زحلة في لبنان. عكست الجمهورية الطرابلسية توازن القوى في المنطقة، أي وجود أعيان مثلوا مناطق عديدة تدعمهم تحالفات قبلية وحكومات محلية صغيرة. ولهذا نجد المؤتمر قد انتخب مجلساً جماعياً لرئاسة الجمهورية مكوناً من أهم أربعة أعيان في المنطقة وهم: رمضان السويحلي زعيم مصراتة، عبد النبي بلخير شيخ ورفلة، أحمد المريض زعيم ترهونة ومنظم المؤتمر الشيخ سليمان الباروني عضو البرلمان العثماني السابق وأحد زعماء الجبل الغربي[٨٤]. كذلك انتخب المؤتمرون برلماناً مكوناً من ٢٤ عضواً مثلوا أهم الأعيان والشيوخ في المنطقة الغربية ومجلساً قضائياً شرعياً مكوناً من أبرز علماء الشريعة، وألفوا قوة شرطة وجيشاً. وأرسل قادة الجمهورية الإعلان الجمهوري إلى الحكومات الإيطالية والفرنسية والإنكليزية والأمريكية طالبين الاعتراف بالجمهورية كحكومة شرعية تمثل الأهالي في المنطقة الغربية.

طلب قادة الجمهورية الطرابلسية الاجتماع بالحكومة الإيطالية لمناقشة اتفاقية الصلح ومن أجل الاعتراف بالمطالب التالية: حصر القوات الإيطالية بما فيها الطائرات والسفن في حدود المنطقة الساحلية بين الخمس وطرابلس، إيقاف الدعاية الإيطالية في الدواخل والاعتراف بسيادة الجمهورية في المنطقة الغربية خارج المناطق المحتلة من قبل الدولة الإيطالية. وقد رفض القادة العسكريون الإيطاليون هذه المطالب ولكن الحكومة الإيطالية في روما أوصت بالمفاوضة. اجتمع الطرفان في خلة الزيتونة في ١٨ نيسان/ أبريل ١٩١٩، واتفقا على اتفاقية صلح عرفت باسم القانون الأساسي لصلح سواني بن يادم[٨٥].

كان صلح سواني بن يادم بلا شك مكسباً مهماً لقادة الجمهورية الطرابلسية، إذ وافقت الحكومة الإيطالية على الاعتراف بحق الجنسية للأهالي المسلمين واحترام العادات والتقاليد المحلية، حق التمثيل في الحكومة بطرابلس، انتخاب برلمان طرابلسي. ويمنتهى السرعة عين قادة الجمهورية ثمانية أعيان كممثلين للجمهورية في طرابلس. كانت هذه المكاسب في غاية

---

(٨٣) المصدر نفسه، ص ٣١٣، ٣١٧، ٣٢٢، ٣٢٤ و٣٢٩. انظر وجهة نظر عبد الرحمن عزام، في: جميل عارف، **صفحات من المذكرات السرية لأول أمين للجامعة العربية** (القاهرة: المكتب المصري الحديث، [د. ت.])، ص ١٩٩، ٢٠٢ و٢٠٩.

(٨٤) الزاوي، المصدر نفسه، ص ٣٢٢ و٣٢٤، وعارف، المصدر نفسه، ص ٢١٠ ـ ٢١٤.

(٨٥) الزاوي، المصدر نفسه، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠. انظر وجهة النظر الإيطالية، في:

De Leone, *La Colonizzione Dell Africa Del Nord*, pp. 506-507.

الأهمية إذا قارناها بمكاسب حركات التحرر ضد الاستعمار في تلك المرحلة. وقد أدى وجود قيادة محلية موحدة في الجمهورية الطرابلسية إلى اعتراف الحكومة الاستعمارية بمطالب المقاومة.

ولكن لم تحصل الجمهورية الطرابلسية على حليف دولي قوي يساعدها على تنفيذ اتفاق صلح سواني بن يادم مثل الدولة الإنكليزية حليفة الحركة السنوسية في برقة. وقد ضغطت السلطات الإنكليزية في مصر ما بين عامي ١٩١٦ و١٩٢٠ على الحكومة الإيطالية لقبول بعض مطالب المقاومة السنوسية. لهذا انتخب سكان برقة برلماناً شعبياً في عام ١٩٢٠. بعد ثلاثة اجتماعات كانت السلطات الإيطالية واعية بعدم وجود حليف ضاغط كما حدث في برقة. ولذلك ماطلت في تنفيذ صلح سواني بن يادم وتحديداً عدم إعطاء البرلمان الطرابلسي سلطات تشريعية بل استشارية غير ملزمة[٨٦]. أدى هذا التعنت الاستعماري إلى خلق فجوة كبيرة بين قادة الجمهورية والحكومة الإيطالية ولكن الصلح بين الطرفين استمر حتى نهاية عام ١٩٢٠[٨٧].

أصبحت الحكومة الاستعمارية الإيطالية بعد عشر سنوات من غزو ولاية طرابلس الغرب ذات خبرة بالتركيبة الاجتماعية والسياسية للمنطقة الغربية وتحديداً التركيب المتوازن والهش للجمهورية الطرابلسية ووجود صراعات وتنافس بين الأعيان والشيوخ حول النقود والضرائب والأراضي. وبدأت السلطات الاستعمارية في استغلال قابلية بعض الأعيان والشيوخ في الحفاظ على مصالحهم أولاً وفوق كل اعتبار، ولهذا أعطت بعض الأعيان والشيوخ خصوصاً عندما اشتعلت الحرب بين أعيان الجبل الغربي ورمضان السويحلي وعبد النبي بلخير، كما أسلفنا. وهذه الحروب الأهلية ساعدت القوات الإيطالية على إعادة احتلال المنطقة الغربية بنهاية عام ١٩٢٢.

رابعاً: الصراع السياسي بين الأعيان ونهاية المقاومة الطرابلسية (١٩٢٠ - ١٩٢٢)

لم يكن الصراع السياسي بين أعيان وشيوخ قبائل المنطقة العربية بسبب عوامل أخلاقية وشخصية كما نجد في كتابات بعض المؤرخين الليبيين مثل الطاهر الزاوي، محمد مسعود

---

(٨٦) أدى الخلاف حول صلاحيات البرلمان إلى استقالة الأعضاء. انظر: الزاوي، المصدر نفسه، ص ٣٧٠ و٣٨٦.

(٨٧) انظر: الباروني، جامع، صفحات خالدة من الجهاد، ج ١، ص ١٦٦؛ انظر فرحات الزاوي، في: Georges Remond, *Aux Camps Turca Arabes, notes de guerre en Cyrenaique que en Tripolitaine, 1912*, trad. en arabe par Muhammad A. El-Wafi (Paris: [s n.], 1913); 2ème ed. (Tripoli: Al-Mu'assasa al'Ama, 1983), p. 147;
الزاوي، المصدر نفسه، ص ٩٠؛ انظر أحمد الشريف، في: صالحية، «صفحات من الوثائق السرية الليبية، رسائل أحمد الشريف، ١٨٧٥ - ١٩٣٣،» ص ٣٤، وانظر عمر المختار، في: الزاوي، عمر المختار، ص ١١. أثارت أخبار المجاهدين العاديين العواطف نفسها، انظر: الساعدي، محرر، موسوعة روايات الجهاد، ص ١٨٩.

فشيكة ومحمد سعيد القشاط، ولكن هذا التنافس عكس طبيعة التحولات الاقتصادية والاجتماعية في المنطقة الغربية والإصلاحات الإدارية العثمانية. وقد أثمرت الاستثمارات الإيطالية والإنكليزية في المنطقة الساحلية في القرن التاسع عشر نتائج رأسمالية جنينية في بداية القرن العشرين. ودعمت المعونات الألمانية والعثمانية نفوذ بعض الأعيان والشيوخ. وقد تنافس الأعيان والشيوخ من أجل النفوذ والأراضي والمناصب. كما أن بعض الأعيان والشيوخ أحيوا صفوفاً وتحالفات قبلية قديمة، وآخرون لم يمانعوا في قبول المعونات الإيطالية والتعاون مع الحكومة الاستعمارية لأن همهم الأساسي كان هزيمة خصومهم المحليين أو ردعهم. لهذا نظراً إلى الطبيعة الانتقالية لاقتصاد المنطقة الغربية، طرابلس، لم تظهر قيادة موحدة بل أعيان وشيوخ قبائل متنافسين على الاقتصاد والأراضي في عام ١٩١١. وقد تعاونت القيادات الطرابلسية في البداية بين عامي ١٩١١ و١٩١٥، ولكن بدأت بعد عام ١٩١٥ تبرز التناقضات والخلافات بين هذه القيادات.

ليست إيديولوجية المقاومة أو الجهاد بسيطة بل في غاية التعقيد برغم أن المصادر المكتوبة والشفوية للمجاهدين تركز على دوافع الدين والوطن[٨٨]. ومن الناحية الإيديولوجية رأى معظم الليبيين مقاومتهم الغزو الإيطالي كجهاد لحماية دار الإسلام من غزو النصارى الطليان[٨٩]. كذلك وجدنا في الروايات الشفوية دوافع الدفاع عن الوطن، الأرض، الشرف والعرض[٩٠]. ولكن هذه الروايات والشعارات يجب تمحيصها من الناحية العملية وخصوصاً خلفية المصالح الاقتصادية القبلية والإقليمية.

برز القاضي الشيخ فرحات الزاوي من مدينة الزاوية، كأحد منظري الجهاد الطرابلسي منذ البداية وحتى وفاته في فزان في عام ١٩٢٥. تعلم فرحات الزاوي في تونس وفرنسا حيث حصل على ليسانس في القانون. ثم رجع بعدها إلى طرابلس حيث عين قاضياً في البداية وبعدها انتخب في البرلمان العثماني كنائب عن طرابلس الغرب في عام ١٩٠٨. وفي عام ١٩١٢ سأله الصحفي الفرنسي جورج ريموند خلال مقابلة معه ما ستفعلون لو انسحبت الدولة العثمانية من طرابلس؟ أجاب الزاوي: «سنعلن بأن الدولة العثمانية ليس لها حق في بلادنا وسنعلن الجمهورية الطرابلسية»[٩١].

تدل إجابة الشيخ فرحات الزاوي على تصميم القيادات الطرابلسية على المقاومة بغض النظر عن موقف الدولة في تلك المرحلة. كذلك تدل هذه الإجابة عن ضعف التأثير العثماني وعدم استعداد الطرابلسيين لقبولها، إلا في حالة واحدة فقط هي مساعدتهم في المقاومة ضد

---

(٨٨) انظر: Bennett, *With the Turks in Tripoli; Being Some Experiences in the Turco-Italian War of 1911*, p. 187, and McCullagh, *Italy's War for a Desert; Being Some Experiences of a War Correspondent with the Italians in Tripoli*, p. 292.

(٨٩) انظر: محمد سعيد القشاط، **صدى الجهاد الليبي في الأدب الشعبي** (بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، ١٩٧٠).

(٩٠) Remond, *Aux Camps Turca Arabes, notes de guerre en Cyrenaique que en Tripolitaine, 1912*, p. 144.

(٩١) المصدر نفسه.

الاستعمار الإيطالي. كذلك لا بد أن نذكر أن معرفة الشيخ الزاوي باللغة والثقافة الفرنسية يبدو جلياً عندما سأله ريموند: هل هذه حرب دينية مقدسة؟ أجاب الزاوي: «حرب دينية مقدسة؟ لا تكتب هذه الجملة في مقالك، قل إننا مواطنون فقراء يرتدون ملابس رثة ممزقة، حماة كما في الثورة الفرنسية ولكن لا تذكر بأننا مجموعة مهووسة دينياً»(٩٢). يدل هذا التعليق للشيخ الزاوي بأنه واع تماماً بحساسيات الرأي العام الفرنسي العلمانية. وما زالت إجابة الزاوي تشير على مزج الإسلام بحق تقرير المصير. وقد جاهد الشيخ فرحات الزاوي، على الرغم من تحامل الشيخ الظاهر الزاوي مؤرخ تلك الفترة عليه، ضد الطليان من عام ١٩١١ حتى وفاته على يد أحد أعوان خليفة الزاوي في فزان في عام ١٩٢٥(٩٣).

لو نظرنا إلى دافع الدفاع عن الوطن لوجدنا أن المحتوى الاجتماعي ليس بسيطاً كما في فهم دور الإسلام. فمثلاً اتهم شيوخ قبيلة ورفلة في شرق طرابلس فهموا الوطن بشكل مختلف عن رؤية الشيخ فرحات الزاوي. في عام ١٩١٥ بعث شيوخ قبيلة ورفلة رسالة إلى القنصل الإنكليزي في طرابلس عبروا فيها عن رأيهم تجاه الدولة الاستعمارية الإيطالية:

«نحن شيوخ منطقة ورفلة لا زلنا مصممين على الحفاظ على استقلالنا الذي أعطاه لنا مولانا السلطان العثماني، وفي حالة أي هجوم علينا من قوة خارجية فنحن ملزمون بالدفاع عن وطننا لآخر روح. لهذا نرجو من سعادتكم أن تعلم الحكومة الإيطالية بأننا مصممون على الحفاظ على استقلالنا ولو قررت إيطاليا الهجوم علينا فنحن مضطرون لقتالها»(٩٤)

يبدو هنا واضحاً بأن الوطن يعني الوطن القبلي لقبيلة ورفلة. لقد أبدى شيوخ قبيلة ورفلة استعدادهم لمقاومة الطليان ولكن فقط في حالة هجوم الآخرين على وطن القبيلة وليس بالضرورة المناطق المجاورة وبالفعل بقيت قبيلة ورفلة تحت قيادة عبد النبي بلخير، ولكن عندما بدأ زحف القوات الإيطالية تجاه ورفلة انضم عبد النبي وورفلة إلى المقاومة. موقف قبيلة ورفلة ليس فريداً، لكن قبائل أخرى نظرت أولاً وأخيراً إلى مصالحها القبلية فوق الاعتبارات الأخرى. كذلك نجد حالات أخرى لقبائل انضمت إلى المقاومة منذ البداية.

برز نجم رمضان السويحلي، كما أسلفنا، بعد معركة القرضابية ومجيء الضباط الأتراك والقوميين العرب إلى مصراتة في عام ١٩١٦(٩٥). ان دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا دفع الأتراك إلى مساعدة المقاومة الليبية، ووجدوا في طموح رمضان حليفاً لهم في المنطقة العربية بعد فشل الهجوم على القوات الإنكليزية في مصر المعونات العثمانية لرمضان جاءت بها الغواصات الألمانية إلى ميناء قصر حمد قرب مصراتة. وبدأ رمضان في محاولة بسط نفوذه على حساب جيرانه بغرض تحصيل الضرائب وزيادة عدد قواته

---

(٩٢) الزاوي، **جهاد الأبطال في طرابلس الغرب**، ص ٥١٢.

(٩٣) الباروني، جامع، **صفحات خالدة من الجهاد**، ج ١، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢.

(٩٤) Remond, *Aux Camps Turca Arabes, notes de guerre en Cyrenaique que en Tripolitaine, 1912*, p. 102, et De Leone, *La Colonizzione Dell Africa Del Nord*, p. 387.

(٩٥) الزاوي، **جهاد الأبطال في طرابلس الغرب**، ص ٢٥٧ و٣٠١؛ فشيكه، **رمضان السويحلي**، ص ١١٧ و١٢٣، والباروني، جامع، المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٩.

بمحاولة ضم بلدة مسلاتة التي كانت تتبع أعيان ترهونة مما أدى إلى نشوب حرب بين الطرفين، ولكن مجيء الشيخ سليمان الباروني وعزام ساعد على إقامة صلح بين مصراتة وترهونة يجعل مسلاتة منطقة محايدة في عام ١٩١٦[٩٦].

طمح رمضان بمساعدة الأموال والسلاح العثماني إلى قيادة المنطقة الغربية كلها. ولذلك بدأ في محاولة التوسع في مسلاتة ومصراتة. كذلك تصدى للنفوذ السنوسي في طرابلس. لذلك أوقف ثلاثة من شيوخ السنوسية اتهمهم بالتآمر ضده وأمر بشنقهم في مصراتة[٩٧]. هؤلاء الشيوخ كانوا ضيوفاً عند جيرانه أعيان ترهونة ومصراتة، وهنا ربما كان حذراً من تحالف بين السنوسية وجيرانه[٩٨].

غضب رمضان السويحلي من عبد النبي بلخير لأن الأخير استضاف بعض شيوخ السنوسية، إذ إن بينه وبين قادة الحركة السنوسية عداء منذ أن استولى رمضان على غنائم معركة القرضابية وازداد غضب رمضان تجاه عبد النبي خصوصاً عندما شوهد عبد القادر المنتصر في منطقة ورفلة يناوش قطعان إبل مصراتة. ناصبت عائلة المنتصر رمضان العداء منذ قتله أبو القاسم المنتصر[٩٩]. ولكن السبب الأساسي برأينا هو طموح رمضان للتوسع على حساب جيرانه بعد حصوله على المعونات العسكرية والمالية العثمانية.

بدأت السلطات الإيطالية في إشعال نار الفتنة، كما تقول المصادر الإنكليزية، ببعث أسلحة إلى عبد النبي بلخير الذي تعاون مع الطليان كمستشار في الحملة لاحتلال فزان في عام ١٩١٤[١٠٠]. ليس غريباً أن يشجع عبد النبي عائلة المنتصر وشيوخ الحركة السنوسية خصوم رمضان لمواجهة طموح الأخير في شرق طرابلس. لهذا كان الجو العام مشحوناً بالتوتر، الأمر الذي أدى إلى هجوم رمضان وألفين من قواته على ورفلة في ٢٠ آب/ أغسطس ١٩٢٠، حيث اختار طريقاً قصيراً إلى بني وليد ولكنه ارتكب خطأً كبيراً بعدم توفير مياه كافية في صيف الصحراء الجهنمي. فأدى نقص المياه في فترة الظهيرة إلى سقوط مقاتلي مصراتة ومقتل رمضان نفسه في اليوم نفسه[١٠١].

---

(٩٦) محمد ابراهيم لطفي المصري، تاريخ حرب طرابلس (بنها: مطبعة الأمير فاروق، ١٩٤٢)، ص ٥٢ و٦٤ ـ ٦٥. انظر أيضاً شكري وبريتشارد المؤيدين لرؤية العائلة السنوسية.

(٩٧) الزاوي، المصدر نفسه، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٩.

(٩٨) المصدر نفسه، ص ٣٩٨، والمرزوقي، عبد النبي بلخير، ص ١٢١.

(٩٩) Public Record Office (PRO), FO: 371/380 b, 4 May 1920.

(١٠٠) انظر تقرير محمد هويدي، أحد ضباط رمضان في حملته على ورفلة، في: المرزوقي، المصدر نفسه، ص ١٤٠ ـ ١٤٣؛ فشيكه، رمضان السويحلي، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥، والزاوي، المصدر نفسه، ص ٣٩٩.

(١٠١) معظم المؤرخين الليبيين تجنبوا الحديث عن الحرب الأهلية في الجبل لأنها أدت إلى كارثة أنهت المقاومة، كما نجد في كتاب: الزاوي، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ص ٣٠٩؛ التليسي، ... بعد القرضابية: دراسات في تاريخ الاستعمار الإيطالي بليبيا (طرابلس الغرب، ١٩٢٢ ـ ١٩٣٠)، ومحمد سعيد القشاط: خليفة عسكر: الثورة والاستسلام (بيروت: دار المسيرة، ١٩٧٩)، ومعارك الدفاع عن الجبل =

هكذا صفي أحد خصوم الطليان الأساسيين، كذلك أصبح عبد النبي معزولاً من قيادة المقاومة الذين وإن اعترفوا بطموح وتوسع رمضان لم يغفروا لعبد النبي قتل خصمه. ولكن الحرب بين مصراتة وورفلة لم تكن بحجم كارثة الحرب الأهلية في الجبل الغربي من وجهة نظر حركة المقاومة.

لا تزال الحرب الأهلية في الجبل الغربي بين عامي ١٩٢٠ و١٩٢٢ غامضة نظراً إلى وفاة معظم قادة هذه الحرب، بالإضافة إلى حساسية هذه الحرب. فقد اعتبرت الحكومة الوطنية بعد الاستقلال ان هذه الحرب مخجلة ومحزنة ولا داعي لنبش الماضي. بل نجد أهم مؤرخي الجهاد الطرابلسي الشيخ الطاهر الزاوي يرفض التعليق عليها واكتفى بالحسرة والأسف على هذه الحرب التي أدت إلى هزيمة المقاومة واحتلال الجبل الغربي في عام ١٩٢٢[١٠٢]. كما أن الكاتب والشاعر محمد سعيد القشاط نشر كتابين فيهما وثائق ورسائل مهمة لزعماء الجبل في فترة الحرب[١٠٣] هذه الوثائق والمراسلات أهم من المنهج الأخلاقي التخويني للقشاط ومحاولته إبراز دور قبيلته على حساب خصومها. باختصار، المصادر التي نملكها الآن أفضل من الماضي ولكن ما زالت هناك حاجة للمزيد من الوثائق والمعلومات عن هذه المرحلة الغامضة من التاريخ الليبي وقد ساعدتنا الروايات الشفوية على فهم بعض أصول وسياسات المقاومة في الجبل الغربي.

أسلفنا بأنه في عام ١٩١١ تكوّن سكان الجبل الغربي من قبائل وفلاحين إباضيين كسكان جادو وكابو وفساطو أو قبائل مالكية كالرجبان، الزنتان، الأصابعة، الحرابة، المشاشية، أولاد بوسيف، الريابنة والمحاميد[١٠٤]. لقد حافظ فلاحو وقبائل الجبل على استقلالهم من السلطة المركزية العثمانية في طرابلس حتى بداية الغزو الإيطالي. وكبديل للسلطة العثمانية انقسم قبائل وفلاحو الجبل إلى صفوف وتحالفات كتنظيمات سياسية في مواجهة الأخطار والغزو الخارجي. وحاولت السلطة العثمانية إعفاء بعض شيوخ القبائل الكبيرة من الضرائب مثل عائلة نوير زعماء قبيلة المحاميد، أو مساعدة قبيلة كالزنتان في مواجهة قبائل أخرى مثل المشاشية وأولاد بوسيف كما حدث في عامي ١٨٧٠ و١٩١٠[١٠٥]. في عام ١٩١١ برز صفان مهمان: المشاشية وأولاد بوسيف، قسم من الريابنة مع فلاحي وقبائل الإباضية في مواجهة صف الزنتان والرجبان والمحاميد.

=الغربي. ولكن رغم شجاعة محمد سعيد القشاط في تناول الموضوع، إلا أن تحليلاته متحيزة إلى موقف قبيلته الزنتان وحلفائها في الحرب، كما أن كتاباته تنقصها المراجع والتوثيق.

(١٠٢) انظر رسائل وجهاء الجبل ورؤسائه، في: القشاط، خليفة عسكر: الثورة والاستسلام، ص ٣٥١ ـ ٣٩٨، ومعارك الدفاع عن الجبل الغربي، ص ٤٠٧ ـ ٥٢١. انظر أيضا الأخبار المقرلة عن المجاهدين ومقابلات الساعدي معهم في: الساعدي، محرر، موسوعة روايات الجهاد

(١٠٣) Hadi Abu-Lughma, «Ethnic Elements,» in S. G. Willmont and J. I. Clarke, eds., *Field Studies in Libya* (Durham, England: Durham, University Press, 1960), pp. 113-115, and Di Agostini, *Le Popolazioni Della Tripolitania. Notizie, Ethniche e Storiche*, p. XX.

(١٠٤) الزاوي، جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، ص ١٨٣.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

نظرت قبائل المشاشية وأولاد بوسيف إلى الدولة العثمانية كخصم بسبب مساعدتها الزنتان، ولذلك تحالفت مع الفلاحين الإباضيين. ولكن من الخطأ النظر إلى تاريخ الجبل الغربي من خلال هذا الصراع. فلقد تحالف فلاحو وقبائل الجبل الغربي بقيادة غومة المحمودي في انتفاضة ١٨٣٥ ـ ١٨٥٨ ضد إرهاق الضرائب العثمانية والغزو العسكري الدموي الشبيه بالغزو الإيطالي في عام ١٩١١.

الخلفية الأساسية وراء الحرب الأهلية في الجبل الغربي هي تنافس الأعيان والشيوخ حول المناصب السياسية في الجمهورية الطرابلسية، والمعونات الإيطالية للأعيان المتضررين. أسلفنا بأن بعض الأعيان المدعومين من الدولة العثمانية كالشيخ سوف المحمودي وقادة الجمهورية الطرابلسية حاولوا الدفاع عن مصالح قبائلهم وحلفائهم على حساب خصومهم المحليين. فقد عين الشيخ سوف المحمودي أبناء عمومته وحلفاءه في مناصب إدارية على حساب أعيان وشيوخ آخرين في زوارة وقبيلة النوايل[١٠٦]، الأمر الذي دفع سلطان بن شعبان والشيخ حرب النائلي إلى الانضمام إلى الطليان لاستعادة مناصبهم.

كذلك نجد في الجبل أن ساسي خزام، أحد أعيان يفرن، وقد أعلن انضمامه إلى الجانب الإيطالي، لكنه قتل في عام ١٩١٥ في معركة ضد المقاومة، فهرب أتباعه بقيادة يوسف خربيش إلى الساحل لبلدة زوارة الإباضية. وقد ساعد سلطان بن شعبان الطليان على احتلال زوارة بعد أن أرسل الشيخ سوف المحمودي شخصاً آخر لإدارة زوارة. كذلك لم يرض الشيخ حرب النايلي على تعيين أحد أقرباء الشيخ سوف المحمودي على قبيلة النوايل. لذلك انضم النايلي إلى الطليان[١٠٧]. باختصار، بنهاية عام ١٩١٧ استطاعت الدولة الاستعمارية تكوين قوة عسكرية عرفت باسم البائدة من متواطئين ليبيين. هؤلاء الليبيون عرفوا أيضاً باسم «المطلنين» أي الذين صاروا طلاينة.

كونت الحكومة الاستعمارية الإيطالية خبرة عن التناقضات القبلية والجهوية في طرابلس. لذلك أصرّ الوفد الإيطالي في مفاوضات الصلح مع وفد الجمهورية الطرابلسية في عام ١٩١٩ على عودة لاجئي حرب الجبل في عام ١٩١٥ الذين لجأوا إلى بلدة زوارة على الساحل. ولكن السلطات الإيطالية لم تدع هؤلاء يرجعون إلى أوطانهم في الجبل عزلاً بل مسلحين وخصوصاً بعد انضمام يوسف خربيش إلى البائدة الإيطالية.

تجمع الروايات الشفوية على أن حرب الجبل الغربي بدأت عندما عين محمد فكيني شيخ قبيلة الرجبان ومسؤول الجمهورية الطرابلسية في الجبل الغربي أحد أصدقائه، أبو الأحباس، كمدير في منطقة الجبل على حساب أحد أصدقاء المقاومة، خليفة بن عسكر الإباضي. فقد قام أبو الأحباس الحرابي بالاستيلاء على أغنام فلاح إباضي، ولكن الإباضية قاموا باستعادة هذه الأغنام بالإضافة إلى أخرى من أملاك أبو الأحباس، فركب أبو الأحباس

---

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

(١٠٧) المصدر نفسه، ص ٤٠٥، و Graziani, *Verso El-Fezzan*, p. 37.

جواده من غير سرج رمزاً للمهانة والعار وذهب إلى صاحبه الشيخ فكيني الذي بعث بقوة لمهاجمة خليفة بن عسكر في ثالوث، ومن هنا بدأت الحرب في عام ١٩٢٠[١٠٨]. انضم الزنتان والمحاميد والأصابعة إلى حلفائهم الرجبان والحرابة، وفي الجانب الآخر انضم أولاد بوسيف والمشاشية وبعض الريابنة إلى جانب فلاحي وقبائل يفرن وجادو ونالوث.

أولاً قام خليفة بن عسكر بقيادة سكان يفرن وجادو وحلفائهم بمهاجمة الرجبان والزنتان، مما أدى إلى هزيمتهم وقتل ابن الشيخ فكيني، حسن، وتدمير تاردية بلدة الرجبان في ٢٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٠[١٠٩]. ولكن تحالف الرجبان والزنتان والمحاميد هزم بن عسكر وقوته في معركة السيح بما فيها حرق فساطو. بعد هذه الهزيمة اضطرت قوات بن عسكر إلى الهروب إلى الساحل إلى بلدة زوارة[١١٠].

غيرت حرب الجبل التحالفات السياسية، لذلك نجد بعض قادة المقاومة كسليمان الباروني وخليفة بن عسكر يتعاونان مع السلطات الإيطالية كوسيلة للعودة إلى أراضيهم في الجبل. ولكن الجنرال الإيطالي لم ينس دور خليفة بن عسكر في مقاومة القوات الإيطالية، ولذلك عندما جاء بن عسكر للتفاوض أسر وشنق أمام الأهالي. وهكذا فقدت المقاومة قائداً آخر بعد رمضان السويحلي. أما سليمان الباروني، فلقد غادر البلاد إلى المنفى في تركيا ومات في سلطنة عُمان الإباضية[١١١].

خامساً: مؤتمر غريان (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٠)

أصبحت الجمهورية الطرابلسية من الناحية الواقعية غير ذات فعالية نظراً إلى الصراعات السياسية بين بعض أقطابها وخصوصاً السويحلي/ بلخير، والباروني/ فكيني. كما أن مقتل رمضان السويحلي وخليفة بن عسكر جعل قادة المقاومة يحسّون بخطر انهيار المقاومة وبالتالي ضعفهم في وجه الحكومة الاستعمارية. وقد تورط الباروني في حرب الجبل وغادر البلاد إلى المنفى، وأصبح بلخير معزولاً عن بقية القادة بعد مقتل رمضان. بقي فقط الشيخ أحمد المريض، عزام والاخوة كعبار وبقية الأعيان في موقف حرج واستقر رأيهم على الدعوة إلى مؤتمر عاجل للتشاور وتقرير استراتيجيا جديدة. وهكذا دعي كل أعيان وشيوخ منطقة طرابلس إلى مؤتمر عام عقد في تشرين الثاني/ نوفمبر في بلدة غريان عاصمة الجمهورية الطرابلسية[١١٢].

وبعد مداولات ومشاورات انتخب المؤتمر هيئة سياسية جديدة لملء فراغ القيادة

(١٠٨) الزاوي، المصدر نفسه، ص ٤٠٥، والقشاط: خليفة عسكر. الثورة والاستسلام، ص ١٧٠، ومعارك الدفاع عن الجبل الغربي.
(١٠٩) الزاوي، المصدر نفسه، ص ٤٠٩، و Graziani, Ibid., p. 45.
(١١٠) الزاوي، المصدر نفسه، ص ٤٢٢ - ٤٢٣.
(١١١) المصدر نفسه، ص ٤٢٣.
(١١٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٥ - ٣٢٧.

السياسية للجمهورية الطرابلسية، هذه الهيئة الجديدة تكونت من واحد وعشرين عضواً برئاسة الشيخ أحمد المريض والقومي العربي المصري عبد الرحمن عزام كمستشار للهيئة الجديدة التي سميت هيئة الإصلاح المركزية، التي برأينا هي تنظيم جديد فرضته عدم فعالية القيادة السياسية للجمهورية الطرابلسية(١١٣).

دعا مؤتمر غريان أيضاً إلى تكوين حكومة لأقاليم ليبيا الثلاثة: طرابلس وبرقة وفزان، يرأسها قائد مسلم منتخب يحكم البدو على أساس دستور يوافق عليه غالبية الليبيين. كذلك قرر المؤتمر بعث وفد إلى روما لإعلام الحكومة الإيطالية بقراراتها. ولكن السلطات الاستعمارية في طرابلس بعثت بوفد من الليبيين المتواطئين مع روما كممثل بديل للمواطنين الليبيين(١١٤). لذلك لم يستطع وفد مؤتمر المقاومة في غريان الحصول على أية مقابلة خارج الحزب الاشتراكي الإيطالي(١١٥). وبعد طول انتظار، مدة ستة شهور، قرر الوفد الرجوع إلى غريان، ولكن خالد القرقني أحد أعضاء الوفد ذهب إلى الاتحاد السوفياتي لحضور المؤتمر الإسلامي الثوري في عام ١٩٢١(١١٦).

حاول قادة مؤتمر غريان رأب الصدع والتوفيق بين المناطق المتصارعة في منطقة طرابلس ولكنهم فشلوا في تحقيق هذا الهدف. ولهذا من أجل الحصول على بعض الحماية السياسية اتفقوا على الاتصال بالحركة السنوسية التي تحصلت على اعتراف الحكومة الإيطالية بحكم ذاتي لبرقة في عام ١٩٢٠. لهذا ذهب وفد من مؤتمر غريان في كانون الثاني/ يناير ١٩٢٢ إلى سرت لعرض البيعة على إدريس السنوسي قائد الحركة السنوسية.

وجد إدريس السنوسي نفسه في مأزق: إذا قبل بيعة الوفد الطرابلسي فهذا حتماً سيؤدي إلى غضب الحكومة الإيطالية، وإذا رفض هذه البيعة فسيغضب الطرابلسيون ويبدو متخاذلاً في أعين المقاومة في كل الأقاليم. تصرف إدريس بمنتهى الذكاء، قبل بيعة مؤتمر غريان، ولكنه غادر برقة إلى المنفى في مصر(١١٧). وقد بعث مؤتمر غريان وفداً آخر لتنسيق جبهة طرابلسية برقاوية موحدة في ١٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٢٢، ولكن أثناء وجود الوفد في سرت جاءت الأخبار بأن الجيش الإيطالي احتل مدينة مصراتة(١١٨). وقد أدى صعود الحزب الفاشستي إلى الحكم في ١٩٢٢ إلى سياسة استعمارية توسعية ترفض أية مشاركة مع المقاومة الليبية ونهاية سياسة «Politica di Capi». صرح الحاكم الفاشستي العسكري كونت فولبي في طرابلس «سياستنا في ليبيا ليست بالتعاون مع الأعيان، ليست ضد الأعيان، ولكن في الحكم بدونهم»(١١٩).

---

(١١٣) Adrian Pelt, *Libyan Independence and the United Nations: A Case of Planned Decolonization*, foreword by U. Thant (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1970), p. 19.

(١١٤) De Leone, *La Colonizzione Dell Africa Del Nord*, p. 514.

(١١٥) الزاوي، **جهاد الأبطال في طرابلس الغرب**، ص ٤٠.

(١١٦) المصدر نفسه، ص ٣٤٠.

(١١٧) التليسي، **معارك الجهاد الليبي من خلال الخطط الإيطالية**، ص ٥٦.

(١١٨) Graziani, *Verso El-Fezzan*, pp. 39, 49, 108 and 153.

(١١٩) الزاوي، المصدر نفسه، ص ٥١٤.

هدفت السياسة الفاشستية الجديدة إلى احتلال كل البلاد احتلالاً تاماً بإعداد جيش كبير مدعم بالطائرات والسلاح البحري. وقد ساعد اللاجئون الإباضيون الحكومة الاستعمارية على إعادة احتلال طرابلس في حرب الجبل الغربي الأهلية بين عامي ١٩٢٠ و١٩٢٢. كان هؤلاء اللاجئون في المناطق الساحلية تحت الحكم الإيطالي يرغبون في العودة إلى ديارهم تحت أي ثمن، ولهذا لم يمانعوا في الحرب إلى الجانب الإيطالي الذي أعطاهم السلاح والتموين. لقد دفع مجيء هذه الجيوش الإيطالية بعض القادة إلى التسليم، ولكن الجنرال الإيطالي الدموي غراتزياني أعدم خليفة بن عسكر، الهادي كعبار، علي بن تنتوش، عبيدة المحجوبي وعلي الشنطة رغم وعده لهم بالسلم. وقد استطاع الجيش الإيطالي بمعونة لاجئي الجبل احتلاله في فترة قصيرة في نهاية عام ١٩٢٣. لكن بقية قادة المقاومة إما قتلوا كفرحات الزاوي أو اضطروا إلى الهجرة إلى البلدان المجاورة كتونس ومصر وتركيا. مختار كعبار، أحمد المريض وعبد الهادي المنتصر (لا علاقة له بعائلة المنتصر المصراتية) هاجروا إلى مصر، بشير السعداوي إلى فلسطين وبعدها سوريا تحت الحكم العثماني[١٢٠].

انسحبت بقية القبائل المقاومة مثل الزنتان، أولاد بوسيف، ورفلة، والمشاشية إلى منطقة فزان الصحراوية حيث تواجدت القبائل المقاومة لأولاد سليمان وحلفائهم. نلاحظ في هذه الفترة أن العديد من الأعيان والشيوخ الذين ترددوا في حرب الطليان في المراحل الأولى عرفوا بأن السياسة الجديدة لن تفرق بينهم وأن لا مكان لهم في ظل الحكم الفاشستي. لهذا نجد ان المشاشية وورفلة قد انسحبا إلى فزان مع القبائل الأخرى وبدآ في حرب عصابات لإبطاء التوسع الإيطالي إلى إقليم فزان الذي ظل حتى بداية القرن العشرين منطقة هروب حدودية بعيداً عن أيدي السلطة المركزية في طرابلس. ولكن فزان كانت تحت حكم ضابط عسكري مغامر من مدينة الزواية اسمه خليفة الزاوي الذي كان ضابطاً في الجيش العثماني في إدارة فزان وبعد الانسحاب العثماني استقل بحكم فزان في مرزق بمساعدة القبائل المعادية لأولاد سليمان كالمقارحة وأرياح. دعم خليفة الزاوي حكمه بالتحالف مع سليمان الباروني ورمضان السويحلي في مصراتة في المرحلة بين عامي ١٩١٥ و١٩٢٦. وقد استطاع خليفة الزاوي هزيمة القوات السنوسية في فزان والعياط في وادي الشاطىء الذين نافسوه في حكم فزان[١٢١]. والزاوي ظاهرة فريدة يذكرنا بما يسمى بـ (War Lords) في الصين بعد انهيار الامبراطورية وبداية الحرب الأهلية. ولكن خليفة الزاوي حكم فزان الغربي. أما القسم الشرقي، فظل تحت سلطة تحالف أولاد سليمان بقيادة عائلة سيف النصر وتحديداً الاخوة أحمد وعبد الجليل سيف النصر.

لجأ عبد النبي إلى حلفائه أولاد سليمان في «الصف الفوقي» كما حدث إبان انتفاضة الشيخ عبد الجليل سيف النصر في ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وقد تحالف عبد الجليل سيف النصر وعبد النبي بلخير ضد خليفة الزاوي واستطاعا هزيمته بعد حصار ٦ شهور في

---

(١٢٠) المصدر نفسه، و Graziani, Ibid., pp 290-291.

(١٢١) التليسي، معارك الجهاد الليبي من خلال الخطط الإيطالية، ص ٧٨.

قلعة مرزق في صيف عام ١٩٢٦. ولكن عبد الجليل سمح لخليفة الزاوي بالعودة إلى طرابلس. فرجع خليفة إلى طرابلس وعرض خدماته على السلطات الاستعمارية التي رحبت به كمنافس لأولاد سليمان ولخبرته بأحوال فزان. جدي علي، الذي كان مجاهداً في دور عبد الجليل، وجرح في حرب عبد الجليل في زويلة، قد ذكر لي بأن خليفة عندما عاد مع الجيش الإيطالي إلى فزان بعث إلى عبد الجليل يعلمه بقدوم حملة الطليان كرد جميل لعبد الجليل في حصار مرزق الذي لم يقتل خليفة وسمح له بالعودة إلى طرابلس[١٢٢].

في الفترة بين عامي ١٩٢٦ و١٩٣٠ قادت قبائل أولاد سليمان وحلفاؤهم في الصف الفوقي قبائل المشاشية والزنتان وأولاد بوسيف في فزان حرب عصابات جريئة ردعت التقدم العسكري الإيطالي حتى عام ١٩٣٠. ولكن في النهاية استطاع الطليان، بأسلحتهم الحديثة من غازات سامة إلى طائرات مقاتلة، هزيمة القبائل المقاومة. في عام ١٩٢٨ أغارت الطائرات الإيطالية المقاتلة على تجمعات القبائل في واد والكفرة[١٢٣]، اضطرت بعدها القبائل المقاومة إلى الهجرة إلى تشاد ومصر، كما حدث بعد هزيمة انتفاضة عبد الجليل في ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وهاجر عبد الجليل سيف النصر وإخوته أحمد وعمر إلى مصر وتشاد، سالم بن عبد النبي الزنتاني هاجر إلى تونس، ولكنه مات عطشاً في صحراء الجزائر ولم يعثر على جثته[١٢٤]. احتل الطليان أيضاً، فزان، إقليم الأطراف والحدود، في نهاية عام ١٩٣٠، ولكن القبائل في برقة استمرت في المقاومة حتى عام ١٩٣٢.

وحدة وتماسك المقاومة في برقة، كما أسلفنا، نتاج سبعين سنة من التعليم والتعبئة في إطار الحركة السنوسية وزواياها. لقد بدأت الحركة السنوسية بمحاولة إصلاحية تعليمية تطورت إلى دولة متماسكة في ظل النظام القبلي وتجارة القوافل عبر الصحراء. وواجه الاستعمار الإيطالي بعد سبعين سنة مجتمعاً منظماً متماسكاً ومعبأ في إطار الإسلام الإصلاحي السنوسي. وكانت السياسة الإيطالية في المرحلة الأولى (١٩١١ - ١٩٢٠) على دراية بقوة المجتمع السنوسي في برقة، لكن الفاشست اعتبروا الاتفاقيات مع السنوسية علامة ضعف لدولة أوروبية طموحة كإيطاليا[١٢٥]. لذلك انتهج الفاشست سياسة جديدة لسحق المقاومة وبناء مستعمرة إيطالية في ليبيا لتوطين الفلاحين الطليان، أو باختصار كما كان يحلم موسوليني بناء الامبراطورية الرومانية الثانية. فالبحر المتوسط كان بحيرة رومانية استخدمها الفاشست لإعادة مجد روما من جديد. وقد أعطيت مهمة سحق المقاومة في ليبيا إلى الجنرال الإيطالي ردولفو غراتزياني الذي أصبح مشهوراً في ما بعد كجزار ليبيا بين الأهالي[١٢٦]. وكانت السياسة الفاشستية في المناطق المحتلة شبيهة بنظام الابارتهايد في جنوب افريقيا. فالأهالي المسلمون ليس لهم حقوق قومية أو فردية. كذلك التعليم حتى المرحلة الابتدائية فقط. كل ذلك كان الهدف منه الحفاظ على نقاء

---

(١٢٢) المرزوقي، عبد النبي بلخير.

(١٢٣) Graziani, *Cirenica Pacificata*, p. 32, and التليسي، المصدر نفسه، ص ٥٦.

(١٢٤) Mack Smith, *Mussolini's Roman Empire*, p. 41.

(١٢٥) انظر: المنار (القاهرة) (كانون الثاني/ يناير ١٩١٢).

(١٢٦) Graziani, *Cirenica Pacificata*, p. 279.

الجنس الإيطالي. فليس غريباً إن لم يكن في ليبيا في عام ١٩٤٣ إلا عشرة أشخاص لديهم شهادات جامعية.

هدفت السياسة العسكرية الفاشستية إلى سحق المقاومة بأية وسيلة ممكنة مما أدى إلى أكثر السياسات الاستعمارية وحشية في افريقيا والمشرق العربي باستثناء الكونغو والجزائر. مثلاً في برقة أغلقت آبار ومعاطن المياه ووضعت معظم قبائل برقة في معسكرات اعتقال رهيبة، بالإضافة إلى تأميم وإهمال قطعان الماشية، مورد القبائل الأساسي، وهو ما أدى إلى المجاعات. هذه الفظاعات والوحشية الفاشية للأسف ما زالت غائبة عن أذهان الكثيرين من محللي الفاشية في الدراسات الغربية الذين عادة ما يمدحون الفاشية الإيطالية بأنها كنوع أقل قسوة من الفاشية الألمانية. وتعكس هذه المقارنة عنصرية في التحليل، إذ ليس هناك فرق كبير بين الاثنتين برأينا. فالفاشية الألمانية قامت بتطبيق الاستعمار في القارة الأوروبية بما فيها إبادة ملايين اليهود، بينما الفاشية الإيطالية مارست أعمال الاستعمار بإبادة نصف مليون مسلم في ليبيا[١٢٧]. والذي يثير الأسف جهل العديد من الأخوة في مصر والمشرق العربي الحالة الثالثة للاستعمار الاستيطاني بعد الجزائر وقبل فلسطين، طرابلس الغرب. كما ساهم الفيلم السينمائي، عمر المختار، في إعلام الملايين عن التجربة الاستعمارية في ليبيا.

واجه الجنرال الإيطالي رودلفو غراتزياني صعوبة كبيرة في هزيمة القبائل المقاومة في فزان، ولكن التحدي الأكبر كان في المقاومة السنوسية في برقة حيث حاربت القبائل المنظمة في إطار الدولة السنوسية، الاستعمار الفرنسي والإنكليزي، وبالتالي اكتسبت خبرة عسكرية كبيرة في ما بين عامي ١٨٩٩ و١٩١٦. كان إعلان الجهاد الإسلامي الذي أصدره أحمد الشريف قائد الحركة السنوسية في غاية الوضوح في تعبئة القبائل ضد الغزو الإيطالي، كما تنبأ بذلك مؤسس الحركة الجزائري محمد بن علي السنوسي الذي منعه الغزو الفرنسي للجزائر من العودة إلى مسقط رأسه[١٢٨].

أدى الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي والإنكليزي إلى بروز مجموعة من القادة العسكريين في برقة أبرزهم الشيخ عمر المختار الذي أصبح القائد الكارزمي التابع لحرب العصابات في الجبل الأخضر بين عامي ١٩٢٦ و١٩٣١. كان عمر المختار كهلاً مسناً ذا ثلاثة وسبعين عاماً عندما أسره الطليان. سأله الجنرال غراتزياني: لماذا حاربتنا؟ أجاب المختار: من الدين والوطن. بعدها سأله الجنرال: هل كنت تعتقد بأنكم ستنتصرون في هذه الحرب؟ رد المختار: الجهاد واجب علينا والنصر يأتي من الله[١٢٩].

---

(١٢٧) انظر: A.J. Nicholls, «German,» in J.J. Woolf, ed., *European Fascism* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1970), p. 65.

(١٢٨) للاطلاع على أهم الدراسات عن عمر المختار، انظر: الزاوي، عمر المختار، وعقيل البربار، محرر، عمر المختار: نشأته وجهاده، ١٨٦٣ - ١٩٣١ (طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٣).

(١٢٩) الزاوي، المصدر نفسه، ص ١١ و٨٤؛ محمد عيسى صالحية، «الأدوار في حركة الجهاد الليبي،» مجلة كلية الآداب والتربية (جامعة الكويت)، العدد ١٣ (١٩٧٨)، ص ١٥٢، وانظر أيضاً الرسالة الموجهة من =

تركّزت إجابات عمر المختار كما في الحالات السابقة على دوافع الدين والوطنية. ولكن المختار رفض كل المساومات مع الطليان والإغراءات المالية وحتى المصالحة أو الذهاب إلى المنفى كما قرر قادة آخرون قبله بمن فيهم إدريس السنوسي. كان عمر المختار واضحاً لأن الإسلام يدعو إلى المقاومة في حالة تعرض دار الإسلام للغزو والاحتلال، وتحديداً حركة جهادية إسلامية كالسنوسية. أما في ما يتعلق بالوطن، فمن الصعب تحديد معناه. فلا شك في أن عمر المختار يرفض الاحتلال الإيطالي كله، ولكن كقائد سنوسي، برقة هي القاعدة الأساسية للمقاومة السنوسية(١٣٠).

سادساً: عمر المختار وحرب العصابات في الجبل الأخضر (١٩٢٣ - ١٩٣٢)

بعد احتلال المنطقة الغربية في نهاية عام ١٩٢٣ قررت الحكومة الفاشستية في روما إلغاء كل اتفاقياتها مع الحركة السنوسية وبداية العمليات العسكرية لاحتلال برقة. احتل الطليان بلدة إجدابيا عاصمة الحكومة السنوسية في عام ١٩٢٣. وقد أدى احتلال إجدابيا إلى انقسام في داخل القيادات السنوسية بين أنصار الدبلوماسية السلمية كما عبر عنها إدريس السنوسي وأخوه الرضا ومعظم أعيان بنغازي المحتلة، وأنصار المقاومة العسكرية كوسيلة لحماية الاستقلال الذاتي لبرقة. عبر عن هذا التيار قائد ادوار المقاومة الشيخ عمر المختار وقادة الأدوار. ولد عمر المختار في عام ١٨٦٣ وتربى في الزوايا السنوسية والمعهد العالي في الجغبوب. ثم أصبح شيخاً لزاوية الحضور في برقة. وبرز كقائد عسكري محنك بسبب خبرته الطويلة في الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي في تشاد (١٨٩٩ - ١٩٠٢) وضد الاستعمار الإنكليزي في مصر (١٩١٥ - ١٩١٦). لقد رفض الشيخ عمر المختار وقادة ادوار المقاومة أتباع أحمد الشريف حتى بعض البنود من الاتفاقيات السنوسية - الإيطالية التي وقعت في الفترة ما بين عامي ١٩١٦ و١٩٢٠ وخصوصاً تسليم أسلحتهم. ولهذا اعتبروا مهادنة الحكومة الإيطالية بعد أن ألغت كل الاتفاقيات برهاناً على حتمية الصراع معها وصدق رؤيتهم لنواياها منذ البداية(١٣١).

أسلفنا بأن قائد الحكومة السنوسية الأمير إدريس السنوسي هاجر إلى مصر لتفادي المصادمة مع الحكومة الإيطالية وللتنسيق مع حلفائه الإنكليز في مصر. وبهجرة إدريس السنوسي إلى مصر في ٢١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٢ أصبح أخوه محمد الرضا نائباً عنه في

= عمر المختار إلى أحمد الشريف، في: إدريس الحرير، «مواقف خالدة لعمر المختار،» مجلة البحوث التاريخية، العدد ٢ (تموز/ يوليو ١٩٨٨)، ص ٧٤.

(١٣٠) Knud Holumbe, *Desert Encounter: Adventurous Journey Through Italian Africa*, trans. by Helga Holbek (New York: Gip Puthum's Sons, 1937), p. 150.

(١٣١) الحرير، المصدر نفسه، ص ٧٤.

بنغازي. ولكن القيادة الفعلية للقبائل المقاومة كانت تحت قيادة الشيخ عمر المختار وقادة الأدوار في دواخل برقة. وكانت القبائل البرقاوية في ظل التنظيم السنوسي الإداري، الاقتصادي والتقاني معبأة لمقاومة التوسع الإيطالي. وقد قابل الرحالة النرويجي كنود هولبو الذي زار برقة في عام ١٩٣٠ بعض رجال القبائل المقاومة في حركة الأدوار تحت قيادة عمر المختار. سأل هولبو أحد المجاهدين: لماذا تحاربون إيطاليا؟ أجاب ذلك المجاهد: «أنا لا أعرف بلادك، ولكن تخيل مجيء جنس خارجي غازي إلى بلادك يعاملك كالحيوانات ويقتل كل من يقاوم، ألا تجد نفسك مضطراً للمقاومة؟»[١٣٢].

هاجر الأمير إدريس السنوسي إلى مصر وترك أخاه الرضا على رأس الحركة السنوسية وعمر المختار كقائد للأدوار المقاومة. ولكن هذا التنسيق كما أسلفنا لم يخف اختلاف الرأي في كيفية التعامل مع السياسة الإيطالية الجديدة. وفي منتصف عام ١٩٢٤ ذهب الشيخ عمر المختار وأحد مساعديه يوسف بورحيل إلى زيارة الأمير إدريس السنوسي في منفاه بمدينة الاسكندرية لطلب المعونات والمساعدة في مقاومة الجيش الإيطالي. ولكن الأمير إدريس السنوسي رد عليهم بعدم إمكانية فعل أي شيء في تلك المرحلة.

رجع قادة الأدوار إلى برقة في غاية الإحباط من إدريس السنوسي، ووجد في بعض المراسلات مع أحمد الشريف القائد السنوسي المعزول في عام ١٩١٦ والذي كان يعيش في منفاه بالحجاز، رسالة من قادة الأدوار تعبر عن رد فعلهم لزيارة إدريس السنوسي. كانت الحدود السياسية بين مصر وبرقة غير مقيدة وخصوصاً في المناطق الجنوبية، كذلك أدى رحيل الحجاج إلى الحجاز كل عام إلى استمرار الاتصالات والمراسلة بين قادة الأدوار وأحمد الشريف حتى وفاته في ما بعد. وقد عبرت رسالة قادة الأدوار لأحمد الشريف عن خيبة أملهم وسخطهم تجاه العائلة السنوسية:

«وأنت [أحمد الشريف] تركت الوطن وذهبت إلى تركيا والسيد إدريس هرب إلى مصر وتركنا في النار الحمراء. نقسم باسم الله لنحاسبكم بين يدي الله على أفعالكم. بالله أخذتموها [برقة] عندما كانت حلوة وتركتموها عندما أصبحت مرة... نعلمكم بأننا عندما لم نجد عون [من إدريس] اعتمدنا على الله وغدنا إلى الوطن. أقسمنا على عدم الاستسلام للعدو، والدفاع عن حياتنا، ديننا ووطننا حتى آخر نقطة دم»[١٣٣].

حدث تغيير ثوري في الحركة السنوسية ببرقة، فنجد قادة الأدوار العسكرية وتحديداً من أصول قبلية مرابطية متواضعة قد تمردوا على القيادة السنوسية التي رأت اتباع سياسة المهادنة والدبلوماسية مع الحكومة الاستعمارية. وجاء الشيخ عمر المختار، القائد الكارزمي العنيد للأدوار القبلية المقاومة ومساعدوه من خلفية شعبية متواضعة. فالمختار نفسه من قبيلة المنفة

---

(١٣٢) صالحية، «صفحات من الوثائق السرية الليبية، رسائل أحمد الشريف، ١٨٧٥ - ١٩٣٣»، ص ٣٨. للاطلاع على سيرة عبد الله قجة، انظر: سعيد عبد الرحمن الحنديري، العلاقات الليبية - التشادية، ١٨٨٢ - ١٩٧٥ (طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٣)، ص ٩٣، و El-Horeir, «Social and Economic Transformations in the Libyan Hinterland During the Second Half of the Nineteenth Century: The Role of Sayyid Ahmad al-Sharif,» pp. 93-94.

(١٣٣) الزاوي، عمر المختار، ص ١٨٨ - ١٨٩، و Graziani, *Cirenica Pacificata*, p. 48.

ومساعداه الفضيل بوعمر ويوسف بورحيل مرابطان من قبيلة المسامير أيضاً. نجد أيضاً قادة آخرين حتى من خارج برقة، عبد الله قجة من تشاد وابراهيم الشامي من فلسطين. ولكن كان هناك أيضاً قادة من قبائل السعادي كحسين الجويفي، وعبد الحميد العبار. إن بروز قادة من خلفية جبلية مرابطية ومن خارج برقة ليس غريباً، فالحركة السنوسية بنيت على أساس إسلامي إصلاحي غير عنصري أو قومي. ولهذا جذبت أتباعاً من نواحٍ عديدة في ليبيا وقوميات وجماعات إثنية متعددة في بلاد السودان، مصر، الحجاز، فلسطين والجزائر. وبما أن التعليم السنوسي هو ركيزة الأساس في بناء الحركة، فالتنوع في التعليم وبعدها في المقاومة العسكرية للاستعمار أدى إلى ظهور قيادات من فئات قبلية متواضعة كقبائل المرابطين، بالإضافة إلى أن الرؤية التوحيدية للحركة جذبت أتباعاً من أقطار إسلامية عربية وافريقية إلى برقة. هذه الإيديولوجيا التوحيدية، برأينا، أهم إنجازات الحركة السنوسية التي تتجاوز النعرات الإقليمية في الوطن العربي بعد نيل الاستقلال السياسي[١٣٤].

ازداد الضغط العسكري الإيطالي بعد احتلال إجدابيا في عام ١٩٢٣ مما أدى إلى استسلام بعض أمراء العائلة السنوسية في برقة. ربما كان تسليم هؤلاء الأمراء من أجل الحفاظ على أملاكهم بالإضافة إلى إغراء الحكومة الإيطالية بعدم المسّ بهذه الأملاك وإعطائهم رواتب شهرية. لهذه الأسباب ساعد السيد هلال السنوسي الجيش الإيطالي على احتلال الجغبوب العاصمة الأولى للحركة في ٧ شباط/ فبراير ١٩٢٦، كذلك قرر السيد الرضا نائب الأمير إدريس السنوسي التعاون أيضاً مع الحكومة الإيطالية بعد فترة نفي قصيرة في إيطاليا، بل إن السيد الرضا وافق على إصدار منشور سياسي إلى أهالي برقة يطلب منهم الاستسلام للحكومة الإيطالية والجنرال غراتزياني «العطوف الرحيم»!. ولم يمانع السيد الرضا في مساعدة الجيش الإيطالي في احتلال واحتي جالو وأوجلة في ٢٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٨[١٣٥]. ولم يشارك عابد السنوسي في الدفاع عن واحة الكفرة مع رجال القبائل وهرب إلى مصر في نهاية عام ١٩٢٨[١٣٦].

برهن الشيخ عمر المختار ومساعدوه على قدرتهم الفائقة في تنظيم القبائل والأدوار. لقد بدأ عمر المختار بتأليف قيادة عسكرية موحدة لحركة الأدوار. كل قبيلة تطوعت بمجموعة من المجاهدين مجهزين بسلاحهم وتموينهم، بل إن القبائل أبدت استعدادها إلى التعويض عن مجاهديها الذين استشهدوا بمجاهدين آخرين[١٣٧]. لقد عيّن الشيخ عمر المختار مجموعة من القادة المحنكين في الحروب السابقة كقادة للأدوار المقاومة، مثل الفضيل بوعمر قائداً لدور الحاسة والعبيدات، حسين الجويفي لدور البراعصة، يوسف بورحيل لدور العبيد والعرفة،

---

(١٣٤) الزاوي، المصدر نفسه، ص ١٠٠.

(١٣٥) انظر: صالحية، «الأدوار في حركة الجهاد الليبي،» ص ١٥٣ - ١٥٤؛ عقيل البربار، «الأسس الاقتصادية والاجتماعية لحركة عمر المختار،» في: البربار، محرر، عمر المختار: نشأته وجهاده، ١٨٦٣ - ١٩٣١، و Graziani, Ibid., pp. 92-94.

(١٣٦) صالحية، المصدر نفسه، ص ١٥٤، والبربار، المصدر نفسه، ص ٨٢.

(١٣٧) صالحية، المصدر نفسه، ص ١٥٦ - ١٥٩.

قجة عبد الله، وعبد الحميد العبار لدور العواقير، وصالح لاطيوش قائداً لدور المغاربة في منطقة سرت[١٣٨]. باختصار، كانت القبيلة كما في بقية دواخل ليبيا القاعدة الامامية للتنظيم الاجتماعي لمقاومة الاستعمار الإيطالي وبالتحديد في برقة. هذه التنظيمات وحدتها عقود من البناء التعليمي، الاقتصادي والديني في ظل الحركة السنوسية.

اعتمد التنظيم الاقتصادي لحركة الأدوار القبلية المقاومة، كما في المراحل السابقة، على جمع ضرائب الأعشار على الحيوانات وزراعة الحبوب بالإضافة إلى الضرائب على تجارة القوافل عبر الصحراء بين بلاد السودان وبرقة ومصر[١٣٩]. اعتمد عمر المختار وأدواره على هذا النسيج الاجتماعي والاقتصادي المتماسك بالإضافة إلى عشرات المخبرين في المدن والمناطق تحت الاحتلال الإيطالي التي زودت القيادة بتحركات الجيش الإيطالي[١٤٠]. ولم يكن عدد المجاهدين في أدوار عمر المختار كبيراً: ٣,٠٠٠ مجاهد، ولكن قبائل برقة ملكت حوالي ٢٠,٠٠٠ بندقية بناء على المصادر الإيطالية[١٤١].

اتبع قادة الأدوار استراتيجية حرب العصابات في كهوف وغابات ووديان الجبل الأخضر الشبيه بغابات لبنان. نجحت هذه الاستراتيجيا في نصب الكمائن، المباغتة والانسحاب السريع في مواجهة الجيش الإيطالي الأكثر عدداً والأفضل تسليحاً. قاد عمر المختار وأدواره في الفترة بين عامي ١٩٢٤ ـ ١٩٣١ حرب عصابات فعالة. على سبيل المثال في عام ١٩٣١ فقط شن المجاهدون ٢٥٠ غارة وهجوم على الجيش الإيطالي[١٤٢].

حاولت الحكومة الاستعمارية في البداية شراء عمر المختار بإغرائه براتب كبير وتقاعد مريح، ولكن هذا الشيخ العنيد رد على هذا العرض بوضوح يدل على عمق إيمانه بالجهاد ضد الطليان «نحن عندنا إيمان عميق بديننا وسيرة نبينا التي تحص على الجهاد»[١٤٣]. واستمر المختار والمقاومة البرقاوية في الجهاد حتى استشهاده في النهاية ولكن القيادات الفاشستية كما ذكرنا سابقاً كانت مصممة على احتلال كل ليبيا وبأية وسيلة.

وبدأ الجنرال الإيطالي رودلفو غراتزياني في اتباع وسائل غاية في الوحشية والعنف، بدءاً

---

(١٣٨) المصدر نفسه، ص ١٥٩، و Graziani, Ibid., pp. 102 and 113.

(١٣٩) كان هناك ٢٠,٠٠٠ بندقية في برقة بين عامي ١٩٢٢ ـ ١٩٢٨، حسب غرازياني، انظر. Graziani, Ibid., p. 124.

كما كان هناك ٦٠٠٠ مجاهد عامل، وقد انخفض هذا العدد إلى ٥٠٠ في عام ١٩٣٠، المصدر نفسه، ص ٣٣ ـ ٣٤.

(١٤٠) المصدر نفسه، ص ١٩٦.

(١٤١) قدمت الحكومة الإيطالية إلى عمر المختار ٥٠,٠٠٠ فرنك إيطالي كمرتب شهري في حال قبول سيد رضا بتوقيع معاهدة سلام معهم. لكن عمر المختار رفض هذا العرض. انظر رده في: الوطن (بنغازي)، العدد ١٤٣ (١٩٤٩).

(١٤٢) Graziani, Ibid., pp. 102, 150 and 231.

(١٤٣) المصدر نفسه، ص ٢٣١؛ التليسي، معجم معارك الجهاد في ليبيا، ١٩١١ ـ ١٩٣١، ص ٤٤١ ـ ٤٤٤، والزاوي، عمر المختار، ص ١٦٩.

بسياسة الأرض المحروقة وهي حرق الحبوب والتموين والاستيلاء على قطعان المواشي، وبناء سلك شائك مكهرب كحاجز على حدود برقة مع مصر طوله ٣٠٠ كيلومتر لقطع قوافل التموين والتجارة مع مصر. كذلك جهز غراتزياني حملة كبيرة لاحتلال واحة الكفرة التي أصبحت قاعدة خلفية للمقاومة، وبالتالي خنق أدوار عمر المختار في الجبل الأخضر تدريجياً بغلق الحدود مع مصر ومع تشاد والسودان[١٤٤]. جهز غراتزياني جيشاً كبيراً لم تشهده الصحراء من قبل مدعوماً بـ ٢٠ طائرة مقاتلة و٥,٠٠٠ جمل، استطاع بعدها أن يحتل الكفرة بعد مقاومة قوية من قبيلة الزوية في معركة الهوارية المشهورة في ٢٠ شباط/ فبراير ١٩٣١[١٤٥]. ولكن غراتزياني لم يستطع برغم كل محاولات حصار المقاومة إقناع الأهالي بعدم مساعدة أدوار المجاهدين، ولذلك قرر أن يرحل قبائل برقة وأن يحبسهم في معسكرات اعتقال جماعية ربما أبشع ممارسة للاستعمار الإيطالي منذ بداية الاحتلال في عام ١٩١١.

أمر الجيش الإيطالي القبائل بنسائهم وأطفالهم وقطعانهم بالانتقال إلى مجموعة من معسكرات الاعتقال التي نشرت بين سلومة قرب بنغازي وحتى القبيلة في صحراء سرت شرقاً. بلغ عدد الأهالي في هذه المعتقلات حوالى ١٠٠,٠٠٠ نسمة[١٤٦]. وقد خرج حياً من هذه المعتقلات الجهنمية ٣٥,٠٠٠ نسمة فقط. هذه المعتقلات هي «الهولوكوست» الإيطالي في ليبيا، وبعض المعتقلين قتل تحت الأوامر الإيطالية، لكن معظمهم مات بسبب انتشار الأوبئة والمجاعة[١٤٧]. وقد تركت لنا الروايات الشفوية للمعتقلين صوراً بشعة لما قاساه الأهالي في هذه المعتقلات، لكن ربما أفضل تعبير عن الموت والإذلال والقهر داخل هذه المعتقلات نجده في ملحمة الشاعر البدوي رجب بوحويش المنفي الذي عاش تجربة المعتقلات وسجلها في ملحمته الرائعة «دار العقيلة»[١٤٨]:

مابي مرض غير دار العقيلة   وحبس القبيله   وبعد الجبّا من بلاد الوصيله
مابي مرض غير فقد الرجال   وفنيه المال   وحبسه نساوينا والعيال
الفارس اللي كان يقدع المال   نهاره جفيله   طايع لهم كيف طيع الحليله
مابي مرض غير ضرب الصبايا   وجلودهن عرايا   ولا يقعد عن ساعه هنايا
ولا يختشوا من نبات السمايا   بقول يا رزيله   وعيب قبح ما يرتضي للعويله

في النهاية استطاع الجنرال غراتزياني هزيمة المقاومة بعد غلق الحدود الشرقية والجنوبية

---

(١٤٤) الزاوي، المصدر نفسه، ص ١٦٥، ويوسف البرغثي، «المعتقلات،» في: صلاح الدين حسن سالم وحبيب وداعة الحسناوي، محرران، دراسات في التاريخ الليبي (II) (طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٤)، ص ٣١٥.

(١٤٥) محمد الطيب الأشهب، برقة العربيّة أمس واليوم (القاهرة: مكتبة الهواري، ١٩٤٧)، ص ٤٨٢؛ Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica*, p. 189, and G. Rochat, «Il Genocidie Cirenico e la Storigrafia Coloniale,» *Belfagor*, no. 35 (1980), pp. 449-456.

(١٤٦) انظر: جامعة بنغازي، لجنة جمع التراث، ديوان الشعر الشعبي (I) (بنغازي: مطبعة جامعة بنغازي، ١٩٧٧)، ص ٢٢٨ - ٢٣٧.

(١٤٧) Holumbe, *Desert Encounter: Adventurous Journey Through Italian Africa*, p. 137.

(١٤٨) المصدر نفسه، ص ١٣٧.

وتفريغ برقة من قبائلها المدنية. وأصبح عمر المختار ومقاتليه معزولين من غير تمـوين أو ذخيرة أو ضرائب أو شبكة مخابرات محلية. وأفضل تعبير عن عزلة المقاومة ما ذكره أحـد المجاهـدين للرحالة النرويجي كنود هولمبو في كانون الثـاني/ ينايـر ١٩٣٠ : «عددنـا ينقص كل أسبـوع، قرانـا ونجوعنا تدمر بهجمات الجيش وغارات الطائرات، ونساؤنا أسرن وأخـذوهن منا. مـاذا نستطيـع أن نفعل ضـد أسلحة الطليان الشيطانية»[١٤٩].

وبالفعل أسر قـائد الأدوار الشيـخ عمر المختـار في ١٢ تشرين الثاني/ نـوفمبر ١٩٣١. عندما سمع الخبر الجنرال غراتزياني جاء على فائق السرعة من روما إلى بنغازي وبعـد محاكمـة سريعـة شنق الشيخ عمـر المختار في سلوق أمام أنـظار ٢٠,٠٠٠ من الأهـالي رجـالاً ونسـاءً وأطفالاً كنوع من الانتقام من المقاومـة. نفّذ الشنق في كـانون الأول/ ديسمـبر ١٩٣١، لكن هذا القائد المقاوم الكهـل ذا التسعة والستين عامـاً أصبح رمـزاً للمقاومـة في المغرب العـربي والنضال ضد الاستعـمار الأوروبي[١٥٠]. حاول الأحيـاء من قادة الأدوار الاستمـرار في المقاومـة بقيـادة نائب عمـر المختار يـوسف بورحيـل المسماري، ولكن الأبـواب كانت مـوصدة لقسـوة الحصـار وانعدام الـذخيرة والتمـوين. فاضـطر هؤلاء القادة إلى اتخـاذ القرار بـالانسحاب إلى مصر. لكن أثناء محاولتهم الانسحاب إلى مصر قتل يوسف بورحيل وحمد بـوخير الله وجـرح عثمان الشامي وأسر من قبل الجيش الإيطالي. لكن عبد الحميد العبار نجح في اجتياز السلك المكهـرب واللجوء إلى مصر في ٢٤ كـانون الثـاني/ ينـايـر ١٩٣٢[١٥١]. في ذلـك اليـوم أعلن الحـاكم العسكري الإيـطالي المارشـال بادوليـو الاحتلال الكـامل لليبيـا بعد عشرين سنـة من المقاومة الليبية.

---

(١٤٩) المصدر نفسه، ص ٣٠٤.

(١٥٠) صالحية، «صفحات من الوثائق السرية الليبيـة، رسـائل أحمد الشريـف، ١٨٧٥ - ١٩٣٣،» ص ٦.

(١٥١) المصدر نفسه، ص ٣٩.

خاتمة

نحو رؤية جديدة لاكتشاف المجتمع المدني العربي

الاستعمار الاستيطاني الإيطالي في ليبيا والمقاومة الطويلة له تركا آثاراً عميقة في البنية الاقتصادية، الاجتماعية والسياسية. تمّ بناء زراعة حديثة خاصة للزيتون في المناطق الساحلية في طرابلس للمستوطنين كما تم بناء طرق معبدة حديثة ومدن طرابلس وبنغازي. ولكن بالنسبة إلى السكان المسلمين الليبيين، التجربة الاستعمارية العنيفة خلفت آثاراً، إنسانياً وتقانياً، ما زال يطبع الثقافة الليبية المعاصرة: إفناء نصف السكان إما في الحرب أو بأسباب غير مباشرة كالمجاعات والأوبئة، القضاء على النخبة المتعلمة، اقتلاع السكان من أخصب الأراضي الزراعية واضطرار الآلاف إما للهجرة إلى دواخل الصحراء أو المنافي في تشاد، السودان، مصر، تونس، الجزائر، النيجر، فلسطين، الحجاز، عمان، سوريا، لبنان وتركيا. كذلك القضاء على المؤسسات الاجتماعية السياسية التي بنيت في القرن التاسع عشر مثل مؤسسات الحركة السنوسية من زوايا ومعاهد تعليمية، القضاء على المؤسسات السياسية التي بنيت في العهد العثماني من مدارس ومعاهد فنية وإدارية، والقضاء على الجمهورية الطرابلسية وهيئة الإصلاح المركزية بشرطتها، علمائها وصحفها وأعيانها. هذا التدمير للمؤسسات الاجتماعية والسياسية لم ينج منه إلا المساجد والتعليم الديني، العائلة والقبيلة، وحتى بعد الاستقلال هذه المشكلة ما زالت تعاني منها الدولة الليبية حتى الآن. نحن لا ندري ما هي إمكانية التطور لو لم يأت الاستعمار، لكن بالتأكيد ستكون هناك إمكانية بناء من صلب المجتمع وإبداعاته. هذه التجربة المريرة التي لا مثيل لها في الوطن العربي إلا في التجربة الجزائرية والفلسطينية جعلت الثقافة الشعبية السياسية تتخوف من الدولة المركزية أياً كانت وتنظر إلى الدول الغربية بحذر وعداء نتيجة الدمار والإفناء الاستعماري خلال اثنتين وثلاثين سنة. باختصار، التجربة الاستعمارية بالنسبة إلى القبائل وغالبية الفلاحين حرب إبادة ومحاولة لإزاحتهم لتوطين الفلاحين الإيطاليين باسم الحضارة والحق التاريخي لما ادعته الفاشية الإيطالية في إعادة مجد روما والامبراطورية الرومانية.

ولكن من جانب آخر، التحدي الاستعماري قوبل بمقاومة صلبة وفعالية أكدت الهوية وأعطت القبائل والفلاحين آلاف الشهداء الذين أكدوا الانتماء إلى الوطن والدين. كما أن عنف التصادم مع الاستعمار الإيطالي فجأة وضع القبائل في مواجهة التطورات السياسية في القرن العشرين ومن ثم شحذت الأفكار من أجل تقرير المصير، الدفاع عن حق السكان الأصليين ومحاولة بناء دول محلية وتنظيمات اقتصادية وعسكرية. هذه أهم التأثيرات السياسية والاجتماعية للاستعمار. هنا لا بد أن نؤكد بالرغم من هزيمة المقاومة بعد عشرين سنة على أن المقاومة المحلية استطاعت ردع التوسع الاستعماري وإبطاء تقدمه، ومن ثم تعديل تأثيره في المجتمع. بعبارة أخرى، القبائل والأعيان شاركوا في صنع التاريخ بقدر إمكانياتهم، ومن ثم لم يكن تاريخ النصف الأول من القرن العشرين في ليبيا تاريخ إيطاليا فقط، بل كذلك تاريخ المجتمع الليبي بكل فئاته بما فيها المتعاونة مع الاستعمار.

هذه الدراسة حاولت نفض الغبار وتحليل التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لولاية طرابلس الغرب [ليبيا] في خلال قرن بين ١٨٣٠ و١٩٣٢. هذا القرن الهام شهد مرحلة إرهاصات وتكوين المجتمع الليبي الحديث والدولة المركزية. القبائل، الفلاحون، الحرفيون والتجار خلال هذا القرن واجهوا تحديات عديدة من تحولات اجتماعية واقتصادية، انتفاضات، غزو استعماري، أوبئة ومجاعات. حاولنا في هذه الدراسة الغوص في الجذور الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لردود فعل المجتمع في الأقاليم الثلاثة طرابلس، برقة وفزان لهذه التحديات سواء مجيء الجيش العثماني إلى ليبيا بعد انهيار الدولة العثمانية أو بعدها الاستعمار الإيطالي في الفترة ١٩١١ - ١٩٣٢. ردود الفعل تعددت: من المقاومة المسلحة، المقاطعة، تأكيد الدين الإسلامي والعلاقات القبلية، الهجرة إلى أطراف الصحراء والبلدان المجاورة، إلى التعاون التجاري والسياسي، وإلى التواطؤ مع الدولة الاستعمارية كجنود وشرطة ومخبرين ومستشارين. في الختام توصّلنا إلى مجموعة من النتائج في ما يتعلق بدراسة المجتمع الليبي والمغرب العربي ورد فعل المجتمعات العربية والافريقية تجاه الاستعمار الأوروبي.

أولاً: لا بد من تأكيد مسلمة بديهية، لكن غالباً ما أهملت من قبل الباحثين العرب، وهي الخروج عن التعميمات البلاغية في دراسة المرحلة الاستعمارية وفهم طبيعة أنواع الدول الاستعمارية من ناحية ونوع المجتمع الذي يواجههم. الاستعمار الفرنسي للجزائر مثلاً في ١٨٣٠ لم يطبق السياسة نفسها في تونس والمغرب، لبنان وسوريا. كما ان الاستعمار الإيطالي الاستيطاني برغم تشابهه مع النموذج الجزائري والفلسطيني فله خصوصيته التاريخية.

ثانياً، السياسة الاستعمارية أيضاً لم تبق على الوتيرة نفسها طوال المرحلة الاستعمارية بل غالباً ما تغيرت السياسة الاستعمارية الإيطالية في ليبيا في ما بين ١٩١١ - ١٩٢٢، تغيرت بعد صعود الحزب الفاشستي إلى الحكم في روما في ١٩٢٢. المرحلة الأولى حاولت التعامل مع الحركة السنوسية، الجمهورية الطرابلسية وشيوخ القبائل، بل حتى رضيت بعد عنف المقاومة بالاعتراف بنوع من الحكم الذاتي لهذه الدولة المحلية. الدولة الفاشستية كانت تهدف إلى فرض السلطة الكاملة على ليبيا وتوطين الفلاحين الطليان فيها، أي تصدير مشكلة الجنوب

الإيـطالي إلى ليبيا بعـد أن رفض ملاك الأراضي الإقـطاعيين في الجنـوب الإيطالي إعـطاء حق التصويت والإصلاح الزراعي في الجنوب. بعـبارة أخرى، لا بـد من فهم طبيعة الـرأسمالية الإيطالية التي لم تكن متطورة كما في النموذج الفرنسي والإنكليزي. كانت إيـطاليا مثـل روسيا في بداية القرن العشرين دولة شبه رأسمالية، وقد أدت هذه الطبيعة إلى التركيـز على النمـوذج الاستيطاني بشكل أساسي ورفض المشاركة السياسية مع الأعيان والنخبة المحلية.

اختلفت السياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر عن سياستها في تونس والمغرب. لقد أدى الغزو الفرنسي للجزائر إلى تحطيم وإبادة النخبة التركية الحاكمة، بينما حـافظت السيـاسة الاستعمارية في تونس والجزائر على النخبـات المحلية التي أبـدت استعدادهـا للتواطؤ مـع هذه السياسة. الأسرة الحسينية في تونس وبعض أعضاء الأسرة العلوية في المغـرب، كما في نجـد، وأسرة محمد علي في مصر، كل هذه الأسر تعـاونت وتواطـأت مع الـدولة الاستعـمارية. بينـما أبيدت أو أرغمت على الهجرة النخبة والـدولة الحـاكمة في الجـزائر، ليبيـا وفلسطين من قبـل الاستعـمار الفرنسي والإيـطالي والإنكليزي/الصهيـوني لأن النماذج الثـلاثة الأخـيرة هي نماذج لاستعمار استيطاني أساساً، بينـما النماذج السـابقة اضـطرت الى التعاون مـع النخبات المحليـة المتواطئة لأنها أسهل وأقل تكلفة كما حدث في الهند وشمال نيجيريا وأوغندا.

كان صعود الحزب الفاشستي الى الحكم في إيطاليا عاملاً حاسماً في تغيير مسار السيـاسة الاستعمارية في إيطاليا تجاه ليبيا، كما أن السياسـة الاستعماريـة الفرنسيـة تغيرت بـين ١٨٣٠، ١٨٨٨ و١٩١٢. وأصبحت الرأسماليـة الفرنسيـة أكثر قـوة ونمواً، وبـالتالي صـار التركيـز على الاستثمارات والعمالة الرخيصة أكثر أهمية من التركيز على الزراعة وامتلاك الأراضي.

ثالثاً، آن الأوان بالتركيز على علاقة المجتمع بالدولة أو المجتمـع المدني، وكيفـ تفـاعل مع الضغوط والتأثيرات الخارجية. المجتمع الأهلي أو المدني تعرفـه بشكل عـام كل التـنظيمات الخاصة غـير المرتبـطة بالـدولة وخـارج إطار العـائلة[1]. لقد ركـزت الدراسـات الاستشراقية والتحديثية في الغرب حتى سنين قـريبة، وحتى الـدراسات العـربية عـلى قصر وجود المجتمـع المـدني فقط في المجتمعات الصنـاعية الغـربية أو المجتمعـات العربيـة في القرن التـاسـع عشر والعشرين، فهي جزء من دهماء بـلا وجوه تقليـديين ومصـيرهم الانقراض في وجهـة الإبداع الحديث الذي يأتي دائماً من الخارج بما فيها الثورة الرأسمالية. جدلنـا الأساسي بعـد إنهاء هذه الدراسة هو رفض هذه المقولات المتعالية وإعادة اكتشـاف المجتمع الـذي وجد، لكن الكثـير من هؤلاء الباحثين لم يحاولوا فهم جدلياته الداخلية وإبداعه في تكوين الحـركات الاجتـماعية، الدول والمؤسسات الحديثة. باختصار نحن نرفض وجود نـوع واحد من الحـداثة أي الحـداثة الأوروبية الرأسمالية كنوع واحد لا مفر منه وكنهاية للتـاريخ. بـرأينا هنـاك في ولاية طـرابلس الغرب أهم المؤسسات الأهلية في المجتمع: التنظيمات التجارية، الحرفية، الـطرق الصوفيـة، والتحالفات القبلية الفلاحية، كذلك آن الأوان لإعادة النظر في فهم المرحلة العثمانية من رؤية

(١) John Shotter, «Rhetoric and the Recovery of Civil Society,» *Economy and Society*, vol. 18, no. 2 (May 1989), p. 150.

جديدة كمرحلة دينامية لأن المجتمع لم يتوقف أو يجمد بل استمر في التجديد والتطور من الداخل. الدراسات الجديدة عن التاريخ العثماني بدأت في إنصاف هذه المرحلة وتصحيح المغالطات الإيديولوجية القومية عن الانحطاط العربي في العهد العثماني. نحن لا نحاول تمجيد المرحلة العثمانية كما يفعل البعض الآخر، لكن إعادة دراستها لاكتشاف حيوية المجتمع في تلك المرحلة.

رابعاً: كان رد فعل المجتمع العربي والافريقي للاستعمار متعدداً أيضاً لاختلاف طبيعة المجتمعات قبيل الغزو الاستعماري والاستعمار نفسه. نعني ان هذا الغزو الاستعماري لم يؤد إلى النتائج والتحولات نفسها. على سبيل المثال، ضعف النخبة التركية الحاكمة في الجزائر وعزلتها في المجتمع الجزائري جعلها فريسة سهلة للأسطول الفرنسي عام ١٨٣٠. استعداد الأسرة الحسينية في تونس وأسرة محمد علي في مصر، وبعض أفراد الأسرة العلوية في المغرب للتواطؤ مع الاستعمار الفرنسي والإنكليزي شجع الآخرين على سياسة الحكم غير المباشرة من خلال هذه النخبات. لكن لو نظرنا إلى رد فعل القبائل والفلاحين في المغرب العربي مثلاً لوجدنا تاريخاً حافلاً بالمقاومة بداية من حركة الأمير عبد القادر الجزائري (١٨٣٠ ـ ١٨٤٧) في غرب الجزائر، إلى عبد الكريم الخطابي (١٩٢١ ـ ١٩٢٦) في شمال شرق المغرب، إلى مقاومة القبائل الليبية (١٩١١ ـ ١٩٣٢). بعبارة أخرى، إن مجتمعاتنا تعددية لوجود أقاليم تربطها اقتصادياً وجغرافياً، طبقات اجتماعية وتكوينات قبلية وفلاحية. هذه الفئات والطبقات بشكل طبيعي اختلفت في رد فعلها للضغوط الاقتصادية الرأسمالية والغزو الاستعماري كما حدث في المجتمعات الأخرى. وقدم دعاة القوميات المحلية وبعض القوميين العرب للأسف تحليلات مبسطة ومبسترة تفرض الواقع المعاصر على الماضي وكأن الاعتراف بوجود تعددية واختلافات عمل مشين. ينسى هؤلاء إلى أن وجود حتى المتواطئين أو المتعاونين المحليين مع الحكومات الاستعمارية دليل على أن المجتمع حيوي وساهم في صنع التغييرات الاجتماعية.

خامساً: التركيز على دور الدولة المركزية وحدها لا يؤدي إلى فهم التحولات الاجتماعية والاقتصادية. لو نظرنا مثلاً إلى استمرارية دور الدين والعلاقات القبلية والجماعية حتى منتصف القرن العشرين لوجدنا صعوبة في فهم ما حدث في المرحلة الاستعمارية اذا ركزنا على دور الدولة فقط. الدولتان الاستعماريتان الفرنسية والإيطالية في الجزائر وليبيا أزاحتا النخبة المحلية الحاكمة السابقة أو حطمتا الدولة السابقة للاستعمار، لكن نجد في خمسينيات هذا القرن استمرار العلاقات القبلية والتخميس في ليبيا واختفائها في الجزائر. القبائل الجزائرية والفلاحون أصبحوا عمالاً أجراء ومهاجرين في الاقتصاد الرأسمالي الفرنسي، لكن العلاقات غير الرأسمالية في الزراعة والرعي استمرت في ليبيا حتى نهاية الستينيات. من ناحية أخرى، السياسة الفرنسية في تونس والجزائر لم تحطم دولة ما قبل الاستعمار، لكن بنهاية المرحلة الاستعمارية نجد أن المجتمع التونسي قد تحوّل كما في الجزائر واندمج في اقتصاد السوق الرأسمالي، ومعظم القبائل التونسية في الجنوب أصبحوا فلاحين أجراء في مزارع الزيتون أو عمالاً ومهاجرين كالجزائريين في أوروبا. أما في المغرب، فنجد مزيجاً شبيهاً إلى حد ما بليبيا أي استمرار العلاقات الاقتصادية القبلية والتخميس حتى نهاية الستينيات. كان

هناك في ليبيا عام ١٩٤٣ ٥,٠٠٠ عامل أجير فقط يعملون في الطرق والمباني ومزارع الزيتون التي بناها الاستعمار الإيطالي في ليبيا من أجل المستوطنين، أيضاً حوالى ٢٠,٠٠٠ مجند ليبي أرغموا على العمل في الجيش الإيطالي في الحرب لاحتلال الحبشة في ١٩٣٥. معظم الأراضي الزراعية الخصبة استولى عليها المستوطنون الطليان ووجد الآلاف الليبيون من الفلاحين ورجال القبائل أن لا مناص من الانسحاب إلى المناطق الصحراوية وبالتالي العمل في الاقتصاد الرعوي والزراعي غير الرأسمالي. باختصار، لا نستطيع فهم هذه التحولات والنتائج ما لم نركز على المجتمع، وبالذات علاقات الإنتاج والعمل ونظام ملكية الأراضي والفئات المتعددة في تفاعلها مع الدولة والأسواق. لم تكن السياسات الاستعمارية تهتم بكل المناطق والأقاليم في المستعمرات، كذلك أثرت مدة الاستعمار وطبيعة المقاومة في طبيعة ونتائج المرحلة الاستعمارية، فالاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس ركز على حاجة الأيدي العاملة الرخيصة، ونسبياً حكم هذين البلدين لفترة طويلة، بينما الاستعمار الذي في المغرب وليبيا لم يدم لفترة طويلة (١٩١١ - ١٩٥٦)، كما ان المقاومة في ليبيا استمرت لمدة عشرين سنة بينما لم يدم الاستعمار بعد انتهاء المقاومة إلى أكثر من اثنتي عشرة سنة.

سادساً: هناك العديد من المثالب في النظريات الاجتماعية والسياسية التي حللت المرحلة الاستعمارية مثل مدرسة التحديث الأمريكية، التبعية الاقتصادية والماركسية التقليدية. مدرسة التحديث الأمريكية فشلت برأينا، لأنه برغم البرامج التحديثية والمساعدات نجد استمرار العلاقات غير الرأسمالية، التبعية الاقتصادية وعدم الاستقرار السياسي. هذا الفشل في فهم طبيعة التغيير الاجتماعي في ليبيا وبقية المنطقة يرجع إلى إهمال دور المجتمع الأهلي وحيويته لأن المجتمع نظر إليه على أنه مجتمع تقليدي سيتحول إلى مجتمع حديث لتبني الأفكار الغربية الحديثة. هذا الفشل نجده أيضاً في عدم توقع الثورة الإيرانية من قبل منظري مدرسة التحليل الذين رأوا في حكومة الشاه نموذجاً تحديثياً سيؤدي إلى التطور التقاني (التكنولوجي) والأفكار الحديثة التي ستحل محل الأفكار التقليدية الدينية في المجتمع الإيراني. باختصار، مدرسة التحديث ترفض وجود مجتمع مدني حيوي قادر على الإبداع من الداخل ذي وجه إنساني متعدد ولو أن ثقافته مختلفة عن الغرب[2]. كذلك تكوين الدولة الحديثة نظر إليه من زاوية ضيقة، أي نموذج الدولة ـ القومية وكأنه النموذج الوحيد للحداثة. هذه المنهجية ترفض دراسة نماذج تكوين الدولة الأخرى كدولة عبد القادر الجزائري وعبد الكريم الخطابي، والدولة السنوسية بالإضافة إلى حيوية وتجدد طبيعة الدولة العثمانية نفسها.

الدراسات الماركسية التقليدية أيضاً موفية في هذا المجال خصوصاً كتابات ماركس

---

(٢) انظر: Bryan Turner, «Orientalism and the Problem of Civil Society in Islam,» in: Asaf Hussain, R. Olson and J. Qureshi, eds., *Orientalism, Islam and Islamists* (Brattleboro, Vermont: Amana Books, 1984), pp. 14-24; Talal Asad, *The Idea of an Anthropology of Islam*, Occasional Paper Series (Washington, D.C.: Georgetown University, Center for Contemporary Arab Studies, 1986), pp. 8-9, and Rifaat Abou El-Haj, «An Agenda for Research in History: The History of Libya Between the Sixteenth and Nineteenth Centuries,» *International Journal of Middle East Studies*, no. 15 (1983), p 316.

وانغلز عن الهند والصين والجزائر. رأى ماركس وانغلز هذه المجتمعات وكأنها ذات نمط إنتاج آسيوي مغلق وبالتالي مجيء الاستعمار الرأسمالي سيؤدي إلى تغيير تكنولوجي ويحطم الاستبداد الشرقي والاقتصاد الآسيوي. هذه الرؤيا لا تختلف عن الكتابات الاستشراقية عن العالم الإسلامي الذي يفهم أساساً من خلال النصوص الدينية في القرن السابع الميلادي والذي أساساً هو ذو طابع تقليدي غير قادر على الحيوية والإبداع من الداخل، بل لا بد من التأثير الأوروبي الرأسمالي لتثوير هذه المجتمعات. أيضاً برغم أن مدرسة التبعية الاقتصادية في أمريكا اللاتينية ساهمت في إبراز دور الشركات والدول الرأسمالية في نهب وتخلف دول أمريكا اللاتينية، إلا أننا ننتقد في هذه المدرسة إهمالها العوامل الداخلية لمجتمعات العالم الثالث. بعبارة أخرى، نطمح إلى طرق منهجية تاريخية صارمة تتفادى مثالب المركزية الأوروبية، ولكن في الوقت نفسه تتفادى النظر إلى المجتمع العربي، ليس كضحية مؤامرات أو تاريخ لأبطال، ولكن كتاريخ إنساني عادي وبالذات لغالبية الشعب: القبائل والفلاحين، أو كما يقول عالم الاجتماع المغربي عبد الكبير الخطيبي، نحتاج إلى النقد المزدوج، القراءة النقدية للتراث وللغرب، وفي النهاية نحو جزء من التاريخ الإنساني الاجتماعي الذي تحكمه قوانين واحدة برغم خصوصيات التفاصيل.

أخيراً: نريد أن نركز على أهمية إعادة قراءة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، وبالذات كيف حاولت فئات المجتمع العديدة التكيف أو مقاومة التحديات والضغوط الاستعمارية. ستوضح لنا إعادة دراسة المرحلة الاستعمارية في المغرب العربي الانقطاع والاستمرارية في سياسات دولة ما بعد الاستقلال. نريد أن ننظر إلى التاريخ من تحت، من خلال رد فعل الناس العاديين من رجال قبائل وفلاحين، نساء وفئات مهمشة لم تنل أهميتها من التحليل في الماضي[3]. التركيز على التاريخ الاجتماعي من تحت يتطلب دراسة علاقات الإنتاج وتكوين الطبقات، والثقافة الشعبية والاقتصادات الإقليمية مما سيساعدنا على تجاوز مثالب نظريات المركزية الأوروبية والشطط في بعض التحليلات الإقليمية والقومية العربية. هذا البرنامج المنهجي يتطلب تجاوز المصادر التقليدية في البحث كالأرشيفات الاستعمارية لأنها تعكس رؤى الدولة والمصالح الاستعمارية. إذا أردنا دراسة التاريخ الاجتماعي والثقافة الشعبية، فهناك حاجة ماسة إلى التركيز على التراث الشفوي من ملاحم وسير وروايات وأشعار وفولكلور وأغانٍ وأمثال شعبية والمصادر المحلية[4].

---

(٣) حول دراسة المقاومة الشعبية، انظر: Ranajit Guha, «On Some Aspects of the Historiography of Colonial India,» in: Ranajit Guha, ed., *Subaltern Studies I. Writings on South Asian History and Society* (New Delhi: Oxford University Press, 1982), pp. 1-8, and James C. Scott, *Of The Weak* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1985), pp. 305-350.

(٤) انظر: C.A. Hamilton, «Ideology and Oral Tradition: Listening to the Voices from Below,» *History in Africa*, no. 14 (1987), pp. 67-86.

مَلاحِق

ملحق رقم (١)

قيمة نسب تبادل العملات النقدية

في القرن التاسع عشر (بالجنيه الاسترليني)

العملة	القيمة
١ فرنك (فرنسا)	
١ فرنك (بلجيكا)	١٨٣٠ - ١٨٥٩ = ٠,٠٣٩٣٧
١ لير (إيطاليا)	١٨٦٠ - ١٩١٣ = ٠,٠٤
١ دراخما (اليونان)	
١ كرونر (النمسا)	١٨٩٧ - ١٩١٣ = ٠,٠٤١٧
١ روبل (روسيا)	١٨٣٠ - ١٨٣٩ = ٠,٠٤٤٢
١ مارك (ألمانيا)	١٨٨٠ - ١٩٠٠ = ٠,٠٥
	١٩٠١ - ١٩١٣ = ٠,٠٤٩٢
١ دولار (الولايات المتحدة)	١٨٣٠ - ١٩١٣ = ١,٠٤١٧
	١٨٥٠ - ١٨٨٣ = ٠,٩١٧
١ جنيه (مصر)	١٨٨٤ - ١٨٩٣ = ١,٠٤١٧
	١٨٩٤ - ١٩١٣ = ١,٠٢٥٦

المصدر: Sevket Pamuk, «Foreign Trade, Foreign Capital and the Peripheralization of the Ottoman Empire, 1830-1913,» (Ph. D. Dissertation, Economics, University of California at Berkeley, 1978). p. 202

ملحق رقم (٢)

أهم شركاء التبادل التجاري مع ولاية طرابلس الغرب، ١٨٨٥ - ١٩١١ (بالجنيه الاسترليني)

البلد / السنة	بريطانيا	الامبراطورية العثمانية	فرنسا	إيطاليا	النمسا	تونس	ألمانيا	بلجيكا	مصر	الولايات المتحدة الأمريكية	بلدان أخرى
١٨٨٥ صادرات	٢٤٢,٠٠٠	٢٠,٦٠٠	١٢٦,٥٦٠	-	-	١,٥٠٠	-	-	-	-	١,٥٠٠
واردات	١٨٠,٠٠٠	٧٤,٠٠٠	٤٢,٠٠٠	٦٠,٠٠٠	٥١,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	١٥,٠٠٠	-	-	-	١١,٩٥٠
١٨٨٦	١٨٣,٠٠٠	١٠,٠٠٠	٢٢,٥٠٠	-	-	٥,٠٠٠	٤,٠٠٠	-	-	-	٦,٥٠٠
	٦٤,٨٠٠	٨٥,٠٠٠	٣٦,٠٠٠	٣٨,٠٠٠	١٣,٠٠٠	٣٠,٠٠٠	٧,٠٠٠	-	-	-	٢٦,٠٠٠
١٨٨٧	١٩٨,٠٠٠	٣,٥٠٠	١٧,٠٠٠	-	-	-	-	-	-	-	٦,٠٠٠
	٦٦,٥٠٠	٦١,٣٠٠	٦٨,٠٠٠	٢٧,٠٠٠	١١,٠٠٠	٥٥,٧٠٠	١٠,٠٠٠	-	-	-	٤٥,٠٠٠
١٨٨٨	٢٤٢,٥٠٠	٢٧,٠٠٠	٥٨,٠٠٠	-	-	٢,٠٠٠	٢١,٠٠٠	-	-	-	٦,٠٠٠
	٨٠,٠٠٠	١٠٥,٠٠٠	٧٢,٠٠٠	٢٢,٣٠٠	١٣,٣٠٠	٧,٠٠٠	١٠,٠٠٠	-	-	-	٥٤,٠٠٠
١٨٨٩	-	-	-	-	-	-	-	-	٣٤٣,٠٦٣	-	-
	-	-	-	-	-	-	-	-	١٧٤,١٥٥	-	-
١٨٩٠	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
١٨٩١	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
١٨٩٢	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
١٨٩٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
١٨٩٤	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
١٨٩٥	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
١٨٩٦	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
١٨٩٧	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
١٨٩٨	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-

يتبع

تابع

البلد / السنة	بريطانيا	الامبراطورية العثمانية	فرنسا	إيطاليا	النمسا	تونس	ألمانيا	بلجيكا	مصر	الولايات المتحدة الأمريكية	بلدان أخرى
١٨٩٩	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
	١٣٠,٠٠٠	٤٨,٠٠٠	٦٧,٠٠٠	٣٧,٢٠٠	٥٠,٠٠٠	-	٢٠,٨٠٠	١١,٠٠٠	-	-	٢٠,٨٠٠
١٩٠٠	١٥٨,٠٠٠	٣٩,٢٠٠	٩٨,٠٠٠	٩٤,٠٠٠	٦٤,٠٠٠	-	١٩,٢٠٠	١٢,٠٠٠	-	-	١٤,٤٤٠
١٩٠١	١٤٤,٦٠٠	٤٥,٠٠٠	٤٥,٠٠٠	٨,٠٦٠	-	-	٤,٦٠٠	-	١٣,٩٦٠	٢٩,٦٢٠	٣,٦٤٠
	١٢٢,٠٠٠	٤٤,٠٠٠	٤٨,٠٠٠	٥٢,٠٠٠	٥٨,٠٠٠	-	١٦,٤٠٠	١٠,٠٠٠	-	-	٨,٣٦٠
١٩٠٢	١٢٨,٥٥٠	٤٤,٠٠٠	٤٠,٠٠٠	٩,٩٦٠	-	-	٦,٠٠٠	-	١٣,٨٤٠	٣١,٢٠٠	٣,٧٦٠
	٧٨,٠٠٠	٣٩,٥٢٠	٣٩,٢٠٠	٥٨,٠٧٠	٥٥,٢٠٠	-	١٦,٠٠٠	٨,٠٠٠	-	-	٨,٤٠٠
١٩٠٣	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
١٩٠٤	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-
١٩٠٥	-	-	-	١٢٣,٥٢٠	-	-	-	-	-	-	-
	-	-	-	٢٦,١٢٠	-	-	-	-	-	-	-
١٩٠٦	-	-	-	١٥٨,٤٤٠	-	-	-	-	-	-	-
	-	-	-	٢٢,٨٠٠	-	-	-	-	-	-	-
١٩٠٧	-	-	-	١٢٣,٠٤٠	-	-	-	-	-	-	-
	-	-	-	٤٢,١٦٠	-	-	-	-	-	-	-
١٩٠٨	-	-	-	١٢٨,٨٤٠	-	-	-	-	-	-	-
	-	-	-	٢٧,٠٤٦	-	-	-	-	-	-	-
١٩٠٩	-	-	-	١١٧,٣٦٠	-	-	-	-	-	-	-
	-	-	-	٦٤,٢٤٠	-	-	-	-	-	-	-
١٩١٠	١٣٥,٠٠٠	٥٧,٧٦٠	٦٤,٤٠٠	٣٧٩,٣٠٠	-	١٢,٨٠٠	-	-	-	-	-
	٩١,٠٠٠	٦٥,٠٠٠	٤٨,٠٠٠	٤٧٥,٦٨٠	-	١٨,٠٠٠	-	-	-	-	-

ملحق رقم (٣)

الصادرات والواردات لولاية طرابلس الغرب من عام ١٩٠٠

الصادرات			الواردات		
البضاعة	القيمة		البضاعة	القيمة	
	(بالليرة)	(بالجنيه الاسترليني)		(بالليرة)	(بالجنيه الاسترليني)
نبات الحلفا	٩٩,٠٠٠	٣,٩٦٠	الطحين	١٢٨,٠٠٠	٥,١٢٠
الاسفنج	٧٧,٠٠٠	٣,٠٨٠	الصناعات القطنية		
جلد الماعز	٥٨,٠٠٠	٢,٣٢٠	البريطانية .		
ريش النعام	٥٤,٠٠٠	٢,١٦٠	ـ الملابس	٨٦,٠٠٠	٣,٤٤٠
العاج	١٠,٠٠٠	٤٠٠	ـ الأقمشة	٢١,٠٠٠	٨٤٠
			التبغ	٢,٠٠٠	٨٠
			السكر	٢٤,٠٠٠	٩٦٠
			الشاي	١٢,٠٠٠	٤٨٠

ملحق رقم (٤)

أهم الواردات إلى ولاية طرابلس الغرب، ١٨٩٩ ـ ١٩٠٢

(بالجنيه الاسترليني)

البلد	١٨٩٩	١٩٠٠	١٩٠١	١٩٠٢
بريطانيا	١٣٠,٠٠	١٥٨,٠٠	١١٢,٠٠	٩٨,٠٠
فرنسا وتونس	٦٧,٢٠	٩٨,٠٠	٤٨,٠٠	٣٩,٢٠
تركيا	٤٨,٠٠	٣٩,٢٠	٤٤,٠٠	٣٩,٥٢
ألمانيا	٢٠,٨٠	١٩,٢٠	١٦,٤٠	١٦,٠٠
إيطاليا	٣٧,٢٠	٩٤,٠٠	٥٢,٠٠	٥٨,٠٧
النمسا	٥٠,٠٠	٦٤,٠٠	٥٨,٠٠	٥٥,٢٠
بلجيكا	١١,٠٠	١٢,٠٠	١٠,٠٠	٨,٨٠
بلدان أخرى	٢٠,٨٠	١٤,٤٤	٨,٣٦	٨,٤٠
المجموع	٣٨٥,٠٠	٤٩٨,٨٠	٣٥٤,٨٤	٣٢٣,٢٠

ملحق رقم (٥)

أهم الصادرات من ولاية طرابلس الغرب، ١٩١١-١٩٠٢

(بالجنيه الاسترليني)

البلد	١٩٠١	١٩٠٢
بريطانيا	١٤٤,٦٠	١٢٨,٥٥
فرنسا	٥٤,٠٦	٤٠,٩٠
تركيا	٤٥,٠٠	٤٤,٠٠
الولايات المتحدة الأمريكية	٢٩,٦٢	٣١,٢٠
اليونان	٢٨,٥٦	١٩,٥٦
مصر	١٣,٩٦	١٣,٨٤
إيطاليا	٨,٠٦	٩,٩٦
ألمانيا	٤,٦٠	٦,٠٠
بلدان أخرى	٣,٦٤	٣,٧٦
المجموع	٣٣٢,١٠	٢٩٧,٤٦

ملحق رقم (٦)

صادرات بلاد السودان عبر طرابلس، ١٨٦٢ - ١٩١٤

(بالجنيه الاسترليني)

السنة	العاج	ريش النعام	جلود الماعز المدبوغة	المجموع
١٨٦٢	١٠	٣	-	-
١٨٦٣	١٣	٦	-	-
١٨٦٤	١٧	١٠	١,٥	٢٨,٥
١٨٦٥	١٥	١٢	١,٥	٢٨,٥
١٨٦٦	١٢	٧	١	٢٠
١٨٦٧	-	-	-	-
١٨٦٨	-	-	-	-
١٨٦٩	٢٥	١٢	٢,١	٣٩
١٨٧٠	٢٥	١٦	١,٥	٤٢,٥

يتبع

تابع

السنة	العاج	ريش النعام	جلود الماعز المدبوغة	المجموع
١٨٧١	٤٠	٣٠	٨	٧٨
١٨٧٢	٣٥	٤٥	٨	٨٨
١٨٧٣	٣٠	٤٠	-	-
١٨٧٤	٥٠	١١٥	-	-
١٨٧٥	٦٠	١٢٥	-	-
١٨٧٦	٦٠	١٣٢	-	-
١٨٧٧	-	-	-	-
١٨٧٨	٣١	١٨٧	٣,٥	٢٢٢
١٨٧٩	٢١	٢٣٥	١١	٢٢٧
١٨٨٠	٢٤	١٦٧,٥	٧٥	١٩٤
١٨٨١	١٦	١٥٢,٥	١٢	١٨١
١٨٨٢	١٤	١٧٩	٨	٢٠١
١٨٨٣	١٥	٢٣٦	١١	٢٦٢
١٨٨٤	٨	١٨٤	٣	١٩٥
١٨٨٥	١٢	٨٥	٤	١٠١
١٨٨٦	٢٨	٣٠	٤	٦٢
١٨٨٧	٢٠	١٥	٥,٥	٤٠,٥
١٨٨٨	٢٤,٥	٤٠	٩	٧٣,٥
١٨٨٩	١٨	٥٥	١٥	٨٨
١٨٩٠	٢٢	٩٥	١٨	١٣٥
١٨٩١	٣٠	٨٠	١٧	١١٧
١٨٩٢	-	-	-	-
١٨٩٣	٢٨	٥٦	٣٨	١٢٢
١٨٩٤	٢٢	٤٨	٤٤	١١٤
١٨٩٥	٨	٤٥	٥١	١٠٤
١٨٩٦	٧	٥٥	٤٩	١١٠,٥
١٨٩٧	٧	٦٦	٨٨	١٢١
١٨٩٨	١,٥	٧٠	٦٥	١٣٦,٥
١٨٩٩	٤,٥	٥٨	٥٩	١٢١,٥
١٩٠٠	٦	٥٤	٥٨,٥	١١٨,٥
١٩٠١	٢	٢٨	٤٩	٧٩
١٩٠٢	-	-	-	-
١٩٠٣	٣	٢١	٤٣	٦٤
١٩٠٤	٢	٢٣	٣٧	٦٠

المصدر: تقديرات الدوائر القنصلية البريطانية في طرابلس الغرب كما جاءت في الوثائق البرلمانية، وقد أوردها: Marion Johnson, «Calico Caravans: The Tripoli Kano Trade After 1880,» *Journal of African History*, no. 17 (1976), p. 105.

مختصر بأسماء مراكز الوثائق

د.م.ت.	دار المحفوظات التاريخية (طرابلس ـ ليبيا).
م.د.ج.ل.	مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي (طرابلس ـ ليبيا).
P.R.O.	مكتب الوثائق العامة (لندن ـ بريطانيا).
A.S.M.A.I.	وثائق وزارة الخارجية الإيطالية (وزارة المستعمرات سابقاً (روما ـ إيطاليا)).
U.S.N.A.	الوثائق الوطنية الأمريكية (واشنطن ـ د.سي. ـ الولايات المتحدة الأمريكية).

المراجع

١ ـ العربية

كتب

ابن غلبون، أبو عبد الله محمد بن خليل. **التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار**. عني بتصحيحه والتعليق عليه الطاهر أحمد الزاوي. ط ٢. طرابلس: مكتبة النور، ١٩٦٧.

أبو لقمة، الهادي. **دراسات ليبية**. بنغازي: مكتبة قرينة، ١٩٧٥.

أدهم، عبد السلام وأحمد صدقي الدجاني. **وثائق تاريخ ليبيا الحديث: الوثائق العثمانية، ١٨٨١ ـ ١٩١١**. بنغازي: مطبعة الجامعة، ١٩٧٤.

ـــــ وعبد الله ابراهيم (محرران). **وثائق عن تاريخ ليبيا في القرن التاسع عشر (I) ثورة غومه المحمودي**. طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٣.

الأشهب، محمد الطيب. **برقة العربية أمس واليوم**. القاهرة: مكتبة الهواري، ١٩٤٧.

ـــــ. **السنوسي الكبير**. القاهرة: مكتبة القاهرة، ١٩٥٦.

ـــــ. **المهدي السنوسي**. طرابلس: مطبعة بلينو ماجي، ١٩٥٢.

انساباتو، انريكو. **العلاقات الايطالية ـ الليبية، ١٩٠٢ ـ ١٩٣٠**. ترجمه إلى العربية عمر الباروني. طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٠.

الأنصاري، أحمد بن الحسين النائب. **المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب**. طرابلس: مكتبة الفرجاني، [د.ت.].

الباروني، زعيمة سليمان (جامع). **صفحات خالدة من الجهاد**. القاهرة: مطبعة الاستقلال الكبرى، ١٩٦٤ ـ ١٩٦٨. ٢ ج.

البربار، عقيل (محرر). **عمر المختار: نشأته وجهاده، ١٨٦٣ ـ ١٩٣١**. طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٣.

بركات، علي محمد. **تطور الملكية الزراعية في مصر وأثره على الحركة السياسية، ١٨١٣ - ١٩١٤**. القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٧.
بلدية طرابلس خلال ١٨٧٠ - ١٩٧٠. طرابلس: ادارة الآثار، ١٩٧٢.
بن اسماعيل، عمر علي. **انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا (١٧٩٥ - ١٨٣٥)**. طرابلس الغرب: مكتبة الفرجاني، ١٩٦٦.
التليسي، خليفة محمد. . . . **بعد القرضابية: دراسات في تاريخ الاستعمار الايطالي بليبيا (طرابلس الغرب، ١٩٢٢ - ١٩٣٠)**. بيروت: دار الثقافة، ١٩٧٣.
ــــــ. **معارك الجهاد الليبي من خلال الخطط الايطالية**. طرابلس: المؤسسة العامة للنشر، ١٩٨٢.
ــــــ. **معجم معارك الجهاد في ليبيا، ١٩١١ - ١٩٣١**. طرابلس؛ تونس: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠.
جامعة بنغازي، لجنة جمع التراث. **ديوان الشعر الشعبي (I)**. بنغازي: مطبعة جامعة بنغازي، ١٩٧٧.
جامي، عبد القادر. **من طرابلس الغرب إلى الصحراء الكبرى**. ترجمه من التركية محمد الأسطى. طرابلس: دار المصراتي، ١٩٧٣.
حاتم، عماد (محرر). **مذكرات الضباط الأتراك**. ترجمة وجدي قدق. طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٧٩.
الحسناوي، حبيب وداعة (محرر). **تاريخ فزان**. تحقيق الخوجا. طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٧٩.
حسنين، أحمد محمد. **في صحراء ليبيا**. القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٢٣.
الحشائشي، محمد بن عثمان. **جلاء الكرب عن طرابلس الغرب**. تحرير علي مصطفى المصراتي. بيروت: دار لبنان، ١٩٦٥.
الحنديري، سعيد عبد الرحمن. **العلاقات الليبية - التشادية، ١٨٨٢ - ١٩٧٥**. طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٣.
الخطيبي، عبد الكبير. **النقد المزدوج**. ترجمة محمد بنيّس. بيروت: دار العودة، ١٩٨٠.
الدجاني، أحمد صدقي. **أحاديث عن تاريخ ليبيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**. طرابلس: دار المصراتي، ١٩٦٨.
ــــــ. **الحركة السنوسية: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر**. ط ١. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٧؛ ط ٢. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٨.
ــــــ. **ليبيا قبيل الاحتلال الايطالي أو طرابلس الغرب في آخر العهد العثماني الثاني، ١٨٨٢ - ١٩١١**. بنغازي: المطبعة الفنية الحديثة، ١٩٧١.
ــــــ. **وثائق تاريخ ليبيا الحديث: الوثائق العثمانية، ١٨٨١ - ١٩١١**. ترتيب ومراجعة وتقديم أحمد صدقي الدجاني؛ جمع وترجمة عبد السلام أدهم. بنغازي: منشورات جامعة بنغازي، ١٩٧٤.
الديناصوري، جمال الدين. **جغرافية فزان**. بنغازي: دار ليبيا للنشر والتوزيع، ١٩٦٧.

رزقانه، ابراهيم أحمد. **المملكة الليبية**. القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٤.
الزاوي، الطاهر أحمد. **أعلام ليبيا**. بيروت: دار احياء الكتب العربية، ١٩٦١.
ـــــ. **جهاد الأبطال في طرابلس الغرب**. ط ٢. بيروت: دار الفتح للطباعة والنشر، ١٩٧٠.
ـــــ. **عمر المختار**. طرابلس: مكتبة الفرجاني، ١٩٧٠.
زيادة، نقولا. **ليبيا في العصور الحديثة، محاضرات**. القاهرة: جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، قسم الدراسات التاريخية والجغرافية، ١٩٦٦.
الساعدي، مبروك (محرر). **موسوعة روايات الجهاد**. طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٣.
سالم، صلاح الدين حسن وحبيب وداعة الحسناوي (محرران). **دراسات في التاريخ الليبي (II)**. طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٤.
السنوسي، محمد بن علي. **المجموعة المختارة** بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٨.
شكري، محمد فؤاد. **السنوسية دين ودولة**. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٤٨.
الطاهر، عبد الجليل. **المجتمع الليبي**. بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٦٨.
عارف، جميل. **صفحات من المذكرات السرية لأول أمين للجامعة العربية**. القاهرة: المكتب المصري الحديث، [د.ت.].
عبد الحكيم، شوقي. **سيرة بني هلال**. بيروت: دار التنوير، ١٩٨٣.
فشيكه، محمد مسعود. **رمضان السويحلي**. طرابلس: دار الفرجاني، ١٩٧٤.
الفقيه حسن، حسن. **اليوميات الليبية (I)، ١٥٥١ ـ ١٨٣٢**. طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٤.
القشاط، محمد سعيد. **خليفة عسكر: الثورة والاستسلام**. بيروت: دار المسيرة، ١٩٧٩.
ـــــ. **صدى الجهاد الليبي في الأدب الشعبي**. بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، ١٩٧٠.
ـــــ. **معارك الدفاع عن الجبل الغربي**. طرابلس: المؤسسة العامة للنشر، ١٩٨٣.
كولوغلو، أورخان (محرر). **مذكرات أنور باشا**. ترجمها إلى العربية عبد المولى الحرير. طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٧٩.
المرزوقي، محمد. **دماء على الحدود: ثورة ١٩١٥**. تونس؛ طرابلس: الدار العربية للكتاب، ١٩٧٥. (معارك وأبطال؛ ٣)
ـــــ. **عبد النبي بلخير**. تونس؛ طرابلس: الدار العربية للكتاب، ١٩٧٨.
المصراتي، علي مصطفى. **صحافة ليبيا في نصف قرن: عرض ودراسة تحليلية لتطور الفن الصحفي في ليبيا**. بيروت: مطابع دار الكشاف، ١٩٦٠.
المصري، محمد ابراهيم لطفي. **تاريخ حرب طرابلس**. بنها: مطبعة الأمير فاروق، ١٩٤٢.
ميكاكي، رودلفو. **طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي**. نقله للغة العربية طه فوزي؛ راجعه حسن محمود وكمال الدين عبد العزيز الخربوطلي. القاهرة: معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦١. (دراسات مترجمة من اللغات الأوروبية؛ ١)

ناجي، محمد ومحمد نوري. **طرابلس الغرب**. ترجمة أكمل الدين محمد احسان. طرابلس: دار مكتبة الفكر، ١٩٧٢.
الهرماسي، محمد عبد الباقي. **المجتمع والدولة في المغرب العربي**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧. (مشروع استشراف مستقبل الوطن العربي، محور «المجتمع والدولة»)
هلال، جميل. **دراسة في الواقع الليبي**. طرابلس: مكتبة الفكر، ١٩٦٧.
الوافي، محمد عبد الكريم. **الطريق إلى لوزان**. طرابلس: دار الفرجاني، ١٩٨٠.
يوشع، بشير (محرر). **غدامس: وثائق تجارية، تاريخية، اجتماعية**. طرابلس: مركز دراسات جهاد الليبيين، ١٩٨٢.

دوريات

أبو صوه، محمود. «رؤية جديدة للفتح الاسلامي لليبيا.» **مجلة البحوث التاريخية** (طرابلس): السنة ٨، العدد ١، كانون الثاني/ يناير ١٩٨٦.
اندرسون، ليزا. «آراء غربية في اصلاح عثماني في ليبيا في أواخر القرن التاسع عشر.» **مجلة البحوث التاريخية**: العدد ٧، ١٩٨٥.
البربار، عقيل. «مصرف روما ودور السلطات العثمانية في الوقوف ضد التسلل الايطالي إلى ليبيا، ١٩٠٧ - ١٩١١.» **مجلة البحوث التاريخية**: العدد ٢، تموز/ يوليو ١٩٨٢.
جونسون، ماريون. «تجارة ريش النعام في النصف الأول من القرن التاسع عشر.» **مجلة البحوث التاريخية**: العدد ١، كانون الثاني/ يناير ١٩٨١.
الحرير، ادريس. «مواقف خالدة لعمر المختار.» **مجلة البحوث التاريخية**: العدد ٢، تموز/ يوليو ١٩٨٨.
دغفوس، راضي. «العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال.» **أوراق** (مدريد): نيسان/ ابريل ١٩٨١.
سالم، صلاح الدين حسن. «الضرائب العثمانية في طرابلس الغرب متصرفية بنغازي.» **مجلة البحوث التاريخية**: السنة ٦، العدد ١، ١٩٨٤.
ـــــ. «الأوضاع القبلية في شرق ليبيا في العهد العثماني الثاني.» **مجلة البحوث التاريخية**: السنة ٦، العدد ١، ١٩٨٤.
صالحية، محمد عيسى. «الأدوار في حركة الجهاد الليبي.» **مجلة كلية الآداب والتربية** (جامعة الكويت): العدد ١٣، ١٩٧٨.
ـــــ. «صفحات من الوثائق السرية الليبية، رسائل أحمد الشريف، ١٨٧٥ - ١٩٣٣.» **حوليات كلية الآداب** (جامعة الكويت): العدد ١، ١٩٨٠.
الطوير، محمد أحمد. «الزراعة في ولاية طرابلس الغرب أثناء الحكم العثماني المباشر لها، ١٨٣٥ - ١٩١١.» *Revue d'histoire maghrebine:* vol. 12, nos. 39-40, décembre 1985.

غانم، عماد. في: الفصول الأربعة: نيسان/ ابريل ١٩٧٩.
المنار: ٢٣ كانون الثاني/ يناير ١٩١٢، والعدد ١٥، ١٩٢١.
الوطن (بنغازي): العدد ١٤٣، ١٩٤٩.

رسائل

أبو شهيوه، مالك عبيد. «النظام السياسي في ليبيا، ١٩٥١ - ١٩٦٩.» (رسالة ماجستير في العلوم السياسية، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٧٧).
البوري، عبد المنصف حافظ. «دوافع الغزو الايطالي لليبيا.» (رسالة ماجستير في العلوم السياسية، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٧٧).

٢ ـ الأجنبية

Books

Abdel Karim et la république du Rif. Paris: F. Maspéro, 1976.
Abitbol, Michel (ed.). *Commaunates juives des marges sahariennes du Maghreb.* Jerusalem: [s.n.], 1982.
Abu-Lughod, Janet Lipman. *Before European Hegemony.* New York: Oxford University Press, 1989.
Alavi, Hamza and Theodor Shanin (eds.). *Introduction to the Sociology of Developing Societies.* New York: Monthly Review Press, 1982.
Allan, A.J. (ed.). *Libya Since Independence: Economic and Political Development.* New York: St. Martin's Press, 1982.
Amin, Samir. *Class and Nation: Historically and in the Current Crisis.* New York: Monthly Review Press, 1980.
———. *Eurocentrism.* New York: Monthly Review Press, 1989.
Anderson, Lisa S. *The State and Social Transformation in Tunisia and Libya, 1830-1980.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, ©1986. (Princeton Studies on the Near East)
Anderson, Perry. *Lineages of the Absolutist State.* London: Verso; New Left Books, 1974.
———. *Passages from Antiquity to Feudalism.* London: New Left Books, 1974.
Anyang'nyong'o, Peter (ed.). *Popular Struggle for Democracy in Africa.* London: Zed Books, 1987.
Asad, Talal. *The Idea of an Anthropology of Islam.* Washington, D.C.: Georgetown University, Center for Contemporary Arab Studies, 1986. (Occasional Paper Series)
——— (ed.). *Anthropology and the Colonial Encounter.* Atlantic Highlands, N.Y.: Humanities Press, 1988.
Barth, Heinrich. *Travels and Discoveries in North and Central Africa: Being a Journal of an Expedition Undertaken Under the Auspices of H.B.M.'s Government, in the Years 1849-1855.* Philadelphia: The Key Stone Publishing Co., 1890.
Bennett, Ernest Nathanied, Sir. *With the Turks in Tripoli: Being Some Experiences in the Turco-Italian War of 1911.* London: Methuen and Co. Ltd., 1912.

Blake, Gerald Henry. *Misurata: A Market Town in Tripolitania.* Durham, England: University of Durham, Department of Geography, 1968.

Boahen, Adu A. *African Perspectives on Colonialism.* Baltimore, Mad.: Johns Hopkins University Press, 1987.

———. *Britain, the Sahara and the Western Sudan.* Oxford: Clarendon Press, 1964.

——— (ed). *UNESCO General History of Africa.* Berkeley, Calif.: University of California Press, 1985.

Boca, Angelo Del. *Gli Italiani in Libia: Tripoli Bel Soul D'Amore, 1860-1922.* Rome: Literza Figli, 1986.

Bovill, E.W. *The Golden Trade of the Moors.* 2[nd] ed. Revised and with Additional Material by Robin Hallet. London: Oxford University Press, 1968.

——— (ed.). *Missions to the Niger.* Cambridge: Hakluyt Society at the University Press, 1964-1966. (The Hakluyt Society, 2[nd] Ser.; nos. 123 and 128-130)

Brewer, Anthony *Marxist Theories of Imperialism: A Critical Survey.* London: Routledge and Kegan Paul, 1980.

Burke, Edmund, III. *Prelude to Protectorate in Morocco: Precolonial Protest and Resistance, 1860-1912.* Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1976.

——— (ed.). *Global Crises and Social Movements.* Boulder, Colo.: Westview Press, 1988.

——— and Ira Lapidus (eds.). *Islam, Politics and Social Movements.* Berkeley, Calif.: University of California Press, 1988.

Buru, M.M., S.M. Ghanem and Keith S. McLachlan (eds.). *Planning and Development in Modern Libya.* Wisbech, Cambridgeshire, England: Middle East and North Africa Studies Press Ltd., 1985.

Cachia, Anthony. *Libya Under the Second Ottoman Occupation, 1835-1911.* Tripoli: Government Press, 1945.

Chatterjee, Partha. *Nationalist Thought and the Colonial World: A Derivative Discourse?* London: Oxford University Press; Delhi: Zed Books, 1986.

Chaudhuri, K.N. *Trade and Civilization in the Indian Ocean: An Economic History from the Rise of Islam to 1750.* Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1985.

Choueiri, Youssef M. *Arab History and the Nation-State: A Study of Modern Arab Historiography, 1820-1980.* London: Routledge, 1989.

Clammer, John (ed.). *The New Economic Anthropology.* London: Macmillan, 1978.

Cleveland, William L. *Islam Against the West: Shakib Arslan and the Campaign for Islam Nationalism:* Austin: University of Texas Press, 1985.

Cohen, Ronald and Elman R. Service (eds.). *Origins of the State: The Anthropology of Political Evolution.* Philadelphia: Institute for the Study of Human Issues, [c]1978.

Collins, Roberto (ed.). *The Partition of Africa: Illusion or Necessity?* New York: John Wiley and Sons, 1969. (Major Issues in History)

Coro, Francesco. *Stettantessei Anni Di Dominazione Turca in Libia, 1835-1911.* Trans. by K. Al-Tillisi. Tripoli: Dar Al-Firjani, 1971.

Crispi, Francesco. *The Memoirs of Francesco Crispi.* Trans. by Mary Prichard-Agnetti from the Documents Collected and Edited by Thomas Palamenghi-Crispi. London: [n.pb.], 1923.

Davis, John. *Libyan Politics: Tribe and Revolution: An Account of the Zuwayya and their Government.* London: I.B. Tauris, 1987.
De Felice Renzo. *Jews in an Arab Land: Libya, 1835-1970.* Translated by Judith Roumani. Austin: University of Texas Press, 1985.
De Leone, Enrico. *La Colonizzione Dell Africa Del Nord.* Padava: Cedam-Casa Editrice dott. Antonio Milani, 1957.
De Vecchi, Paolo. *Italy's Civilizing Mission in Africa.* New York: Brentano's, 1912.
Della Cella, Paolo. *Narrative of an Expedition from Tripoli in Barbary to the Western Frontier of Egypt in 1817 by the Bay of Tripoli.* Trans. by Anthony Aufrere. London: J.A. Arch, 1823.
Despois, Jean. *La Colonisation italienne en Libye: Problèmes et méthodes.* Traduit en arabe par Hashim Haydar. Benghazi: Dar Libya, 1968.
———. *Le Dejbel Nefousa (Tripolitaine): Etude géographique.* Paris: Larose, 1935.
Di Agostini. Enrico. *Le Populazioni Della Cirenica.* Benghazi: Governo Della Cirenica, 1922-1923.
———. *Le Populazioni Della Tripolitania· Notizle, Ethniche e Storiche.* Tripoli: Uffico Politico Militare, 1917.
Dunn, Ross Edmunds. *Resistance in the Desert: Moroccan Responses to French Imperialism, 1881-1912.* Madison, Wis.: University of Wisconsin Press, 1977.
Duveyrier, Henri. *Le Confrérie musulmane de Sidi Mohammed Ben'Ali Es-Senoûsi et son domaine géographique en l'année 1300 de l'hégire = 1883 de notre ère.* Paris: Société de géographie, 1886. (Publication de la société de géographie)
Eldblom, Lars. *Land Tenure - Social Organization and Structure: A Comparative Sample Study of the Socio-Economic Life in Three Libyan Oases of Ghat, Mourzouk and Ghadamis.* Uppsala: The Scandinavian Institute of African Studies, 1969.
———. *Structure foncière organisation et structure sociale.* Unickol-Lund, 1968.
Elster, John. *Making Sense of Marx: Studies in Marxism and Social Theory.* London; Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1985.
Encyclopedia of Islam. New edition. Leiden: E.J. Brill, 1965.
Encyclopedia of Social Studies. vol. II: 1968.
Evans-Pritchard, E.E. *The Sanusi of Cyrenaica.* Oxford: Clarendon Press, 1949.
Feraud, Lauraine Charles. *Annales Tripolitaines:* Tunis: Tournier, 1927.
Folyan, Kola. *Tripoli During the Reign of Yusuf Pasha Qaramanli.* ILE-IFE, Nigeria: The University Press, 1975.
Food and Agriculture Organization of the United Nations (FAO). *Report to the Government of Libya on Development of Tribal Lands and Settlements Project. Rome, 1969.*
Frank, André Gunder. *Capitalism and Underdevelopment in Latin America: Historical Studies of Chile and Brazile.* New York: Monthly Review Press, 1969.
Gautier, Emile Félix. *Les Siècles obscurs du Maghreb.* Paris: Payot, 1972.
Geertz, Clifford (ed.). *Old Societies and New States: The Quest for Modernity in Asia and Africa.* New York: Free Press, 1963.
Gellner, Ernest. *Saints of the Atlas.* Chicago, Ill.: University of Chicago Press; London: Weidenfeld, 1969.

——— and Charles Micaud (eds.). *Arabs and Berbers: From the Tribe to Nation in North Africa.* Lexington, Mass.: Dic Heath Company, 1972.

Gendzier, Irene L. *Managing Political Change: Social Scientists and the Third World.* Boulder, Colo.: Westview Press, 1985. (Westview Special Studies in Social, Political and Economic Development).

Gerth, Hans Heinrish and C. Wright Mills (eds.). *From Max Weber: Essays in Sociology.* New York: Oxford University Press, 1946.

Giddens, Anthony. *Capitalism and Modern Social Theory: An Analysis of the Writings of Marx, Durkheim and Max Weber.* Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1971.

Giolitti, Giovanni. *Memoirs of My Life.* Trans. by Edward Storer. New York: Howard Fertig, 1973.

Glavanis, Kathy R.G. and Pandeli (eds.). *The Rural Middle East: Peasant Lives and Modes of Production.* Atlantic Highlands, N.J.: Zed Books, 1990.

Goldberg, Harvey E. (ed.). *The Book of Mordechai.* Philadelphia: Institute for the Study of Human Issues, 1980.

Gramsci, Antonio. *The Modern Prince and Other Writings.* 9th ed. New York: International Publishers, 1983.

———. *Selections from the Prison Notebooks.* Trans. and ed. by Quintin Hoare and Geoffrey Newell Smith. 8th ed. New York: International Publishers, 1985.

Gran, Peter. *Islamic Roots of Capitalism: Egypt, 1760-1840.* Foreword by Afaf Lutfi Al-Sayyid Marsot. Austin: University of Texas Press, 1979. (Modern Middle East Series; no. 4)

Graziani, Rodolfo. *Cirenica Pacificata.* Trans. by Ibrahim B. Amir. Benghazi: Dar Al-Andalus, 1974.

———. *Verso El-Fezzan.* Trans. by Taha Fawzi. Tripoli: Maktabat Al-Firjani, 1973.

Great Britain Naval Intelligence. *A Handbook of Libya.* London: H.M. Stationary Office, 1928.

Gregory, Y.W. [et al.]. *Report on the Work of a Commission Sent by the Jewish Territorial Organization, Under the Auspices of the Governor General of Tripoli to Examine the Territory Proposed for the Purpose of a Jewish Settlement in Cyrenaica.* London: Jewish Organization, 1909.

Guha, Ranajit (ed.). *Subaltern Studies I: Writings on South Asian History and Society.* New Delhi: Oxford University Press, 1982.

Gulick, John. *The Middle East: An Anthropological Perspective.* Pacific Palisades, Calif.: Goodyear, 1976. (Goodyear Regional Anthropology Series)

Gulien, André. *Histoire de l'Afrique de Nord.* Paris: Payot, 1931.

Hamilton, James. *Wanderings in North Africa.* London: John Murray; Albemarie St., 1856.

Handbook of Cyrenaica. Cairo: British Military Administration, 1947.

Hermassi, Elbaki. *Leadership and National Development in North Africa: A Comparative Study.* Berkeley, Calif.: University of California Press, 1972.

Holumbe, Knud. *Desert Encounter: Adventurous Journey Through Italian Africa.* Trans. by Helga Holbek. New York: Gip Puthum's Sons, 1937.

Huntington, Samuel. *Political Order and Changing Societies.* New Haven, Conn.: Yale University Press, 1968.

Hussain, Asaf, R. Olson and J. Qureshi (eds.). *Orientalism, Islam and Islamists.* Brattleboro, Vermont: Amana Books, 1984.

Ibn Khaldun, Abdal-Rahman. *The Muqaddimah.* Trans. by Franz Rosenthal. New York: Pantheon, 1958.

——. *The Muqaddimah: An Introduction to History.* Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1967.

Joffe, E.G.H. and Keith S. McLachlan (eds.). *Social and Economic Development of Libya.* Kent, England; London: Menas Press Ltd., 1982.

Kasaba, Resat. *The Ottoman Empire and the World Economy: The Nineteenth Century.* Albany, N.Y.: State University of New York Press, ©1988. (SUNY Series in Middle Eastern Studies)

Kay, Geoffery. *Development and Under - Development. A Marxist Analysis.* New York: St. Martin's Press, 1975.

Khalidi, Tarif (ed.). *Land Tenure and Social Transformation in the Middle East.* Beirut: American University of Beirut, 1984.

Khazanov, Anatolii Mikhailovich. *Nomads and the Outside World.* Translated by Julia Grookenden with the foreword by Ernest Gellner. Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1984. (Cambridge Studies in Social Anthropology)

Kolakowski, Leszek *The Alienation of Reason: A History of Positivist Thought.* New York: Doubleday and Company, 1968.

Lacoste, Yves. *Ibn Khaldun; Naissance de l'histoire, passé du Tiers-Monde:* London: Verso, ©1984.

Lapworth, Charles. *Tripoli and the Young Italy.* London: Stephen Sweft, 1912.

Laroui, Abdallah. *The History of the Maghreb· An Interpretative Essay.* Translated from French by Ralph Manheim. Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1977; 1982. (Princeton Studies on the Near East)

Lerner, Daniel. *The Passing of Traditional Society: Modernizing the Middle East.* With the Assistance of Lucille W. Pevsner, and an Introduction by David Riesman. New York: Free Press, 1958.

Lethielleux, J. *Le Fezzan: Ses Jardins, ses palmiers; Notes d'ethnographie et d'histoire.* Tunis: Imprimerie Bascone, 1948. (Publications de l'institut des belles lettres arabes; 12)

Lustick, Ian. *State-Building Failure in British Ireland and French Algeria.* Berkeley, Calif.: Institute of International Studies, University of California, ©1985.

Lyon, George Francis. *A Narrative of Travels in Northern Africa in the Years 1818-1820,* Accompanied by Geographical Notices of Soudan and of the Course of the Neiger. London: Cass, 1966.

McCall, Daniel F. and Norman R. Bennet (eds.). *Aspects of West African Islam.* Boston: University African Studies Center, 1971.

MacArthney, Maxwell H. and Paul Cremona. *Italy's Foreign and Colonial Policy, 1914-1937.* London: Oxford University Press, 1938.

Mack Smith, Denis. *Mussolini's Roman Empire.* New York: Penguin Books, 1977.

McCullagh, Francis. *Italy's War for a Desert; Being Some Experiences of a War Correspondent with the Italians in Tripoli.* Chicago, Ill.: F.G. Browne and Co., 1913.

Magdoff, Harry. *Imperialism: From the Colonial Age to the Present.* New York: Mohthly Review Press, 1978.

Makhrjee, Ram Krichna. *Society, Culture and Development.* New Delhi: Sage, 1991.

Martin, B.G. *Muslim Brotherhoods in Nineteenth Century Africa.* Cambridge: Cambridge University Press, 1976. (African Studies; 18)

Marx, Karl. *The Poverty of Philosophy.* New York: International Publishers, 1963; 1972.

——— and Frederic Engels. *On Colonialism.* New York: International Publishers, 1972.

Meillassoux, Claude. *Maidens, Meal, and Money.* Cambridge: Cambridge University Press, 1981.

——— (ed.). *The Development of Indigenous Trade and Markets in West Africa.* London: Oxford University Press, 1971.

Miège, Jean Louis (ed.). *Les Relations intercommunautaires juves in méditerranée occidentale, XIIIème-XXème siècles.* Paris: Centre nationale de la recherche scientifique, 1984.

Mission scientifique du Fezzan, 1944-1945. Paris; Alger: Institut de recherches sahariennes de l'université d'Alger, 1946.

Mommsen, Wolfgang J. *Theories of Imperialism.* Trans. from the German by P.S. Falla. New York: Random House, ©1980.

Moore, Barrington (Jr.). *Social Origins of Dictatorship and Democracy; Lord and Peasant in the Modern World.* Boston: Beacon Press, 1966. (Beacon Paper Backs; 268)

Morsy, Magali. *North Africa, 1800-1900: A Survey from the Nile Valley to the Atlantic.* London: Longman, 1984.

Murray, George William. *Sons of Ishmael; A Study of the Egyptian Bedouin.* London: George Routledge and Sons, Ltd., 1935.

Nachtigal, Gustav. *Sahara and Sudan.* Trans. from the Original German, with New Introduction and Notes by Allan G.B. Fisher and Humphrey J. Fisher with Rex S. O'Fahey. New York: Barnes and Noble, 1974. vol. I: *Tripoli and Fezzan.*

Naff, Thomas and Roger Owen (eds.). *Studies in Eighteenth Century Islamic History.* Carbondale, Ill.: Southern Illinois University Press, 1977. (Papers on Islamic History; 4)

Negash, Tekeste. *Italian Colonialism in Eritrea, 1882-1941: Policies, Praxis and Impact.* Uppsala: Sweden, 1987.

Nelson, Cynthia (ed.). *The Desert and the Sown: Nomads in the Wider Society.* Berkeley, Calif.: University of California, Institute of International Studies, 1973.

Nicolaisen, Johannes. *Ecology and Culture of the Pastoral Tuareg,* with Particular Reference to the Tuareg of Ahaggar and Ayr. Copenhagen: National Museum, 1963. (National Museets Skrifter Etnografisk Roekke; IX)

Norris, H.T. *The Tuaregs: Their Islamic Legacy and its Diffusion in the Sahel.* Warminster, England: Aris and Phillips, 1975.

Nyang, Sulayman S. *Islam, Christianity, and African Identity.* Brattleboro, Vermont: Amana Books, 1984.

O'Fahey, Rex S. *Enigmatic Saint: Ahmad Ibn Idris and the Idrisi Tradition.* Evanston, Ill.: North Western University, 1990.

Owen, Roger (ed.). *Studies in the Economic and Social History of Palestine in the Nineteenth and Twentieth Centuries.* Carbondale, Ill.: Southern Illinois University Press, 1982.

——— and Bob Sutcliffe (eds.). *Studies in the Theory of Imperialism.* London: Longman, 1972.

Oxaal, Ivar, Tony Barnett and David Booth (eds.). *Beyond the Sociology of Development: Economy and Society in Latin America and Africa.* London: Routledge and Kegan Paul, 1975.

Pamuk, Sevket. *The Ottoman Empire and European Capitalism, 1820-1913.* Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1987.

Parry, V.J. and M.E. Yapp (eds.). *War-Technology and Society in the Middle East, 1914-1924.* London: Oxford University Press, 1975.

Pelt, Adrian. *Libyan Independence and the United Nations: A Case of Planned Decolonization.* Foreword by U. Thant. New Haven, Conn.: Yale University Press, 1970.

Peristiany, J.G. (ed.). *Contributions to Mediterranean Sociology: Mediterranean Rural Communities and Social Change.* Paris; The Hague: Mouton, 1968.

Polk, William R. and Richard L. Chambers (eds.). *Beginnings of Modernization in the Middle East: The Nineteenth Century.* Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1968. (Publications of the Center for Middle Eastern Studies; 1)

Quartaert, Donald. *Social Disintegration and Popular Resistance in the Ottoman Empire, 1881-1908. Reactions to European Economic Penetration.* New York: New York University Press, 1983.

Rae, Edward. *The Country of the Moors; A Journey from Tripoli in Barbary to the City of Kairwân.* London: John Murray, 1877.

Ralph, John (ed.). *Studies in West African Islamic History I.* London: Frank Cass, 1979.

Remond, Georges. *Aux Camps Turca Arabes, notes de guerre en Cyrenaique que en Tripolitaine, 1912.* Trad. en arabe par Muhammad A El-Wafi. 2ème éd. Paris: [s.n.], 1913; Tripoli: Al-Mu'assasa Al'Ama, 1983.

Richardson, James. *Travels in the Great Desert of Sahara, in the Years of 1845 and 1846.* vol. II: London: Frank Cass and Co., 1970.

Rossi, Ettori. *Storica Di Tripoli e Della Tripolitania Dallo Conquesta Araba al 1911.* Trans. into Arabic by Khalifa Al Tillisi. Beirut: Dar Al-Thaqafa, 1974.

Roth, Guenther. *Scholarship and Partisanship, Essays on Max Weber.* Berkeley, Calif.: University of California Press, 1971.

Said, Edward. *Orientalism.* New York: Vintage Books, 1979.

Schneider, David Murray. *A Critique of the Study of Kinship.* Ann Arbor: University of Michigan Press, 1984.

Scott, James C. *Weapons of the Weak.* New Haven, Conn.: Yale University Press, 1985.

Segré, Claudio G. *Fourth Shore, the Italian Colonization of Libya.* Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1974.

Short, James (ed.). *The State of Sociology: Problems and Perspectives.* Beverly Hills: Sage Publications, 1981.

Simon, Rachel. *Libya Between Ottomanism and Nationalism.* Berlin: Klaus Schwarz Verlag, 1987.

Skocpol, Theda. *State and Social Revolutions*. Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1979.
Stamp, Dudly L. (ed.). *A History of Land Use in Arid Regions*. Paris: UNESCO, 1961.
Taylor, John G. *From Modernization to Modes of Production. A Critique of the Sociologies of Development and Under Development*. London: Macmillan, 1983.
Thompson, E.P. *The Making of the English Working Class*. New York: Vintage Books, 1966.
Tullio Irace, Chevalier. *With the Italians in Tripoli*. London: John Murray, 1912.
Tully, Miss. *Letters Written During Ten Years' Residence at the Court of Tripoli*. ed. by Seaton Dearden. London: A. Barker, 1957.
Turner, Bryan S. *Marx and the End of Orientalism*. Boston; London: George Allen and Unwin, 1978. (Controversies in Sociology; 7)
Udovich, Abraham L. (ed.). *The Islamic Middle East, 700-1900: Studies in Economic and Social History*. Princeton, N.J.: Darwin Press, 1981.
UNESCO. *Recherches du Zone Aride 19: Nomads et nomadisme au Sahara*. Paris: UNESCO, 1963.
Vansina, Jan M. *Oral Traditions as History*. Madison, Wis: University of Wisconsin Press, 1985.
———. *Oral Tradition: A Study in Historical Methodology*. Chicago, Ill.: Aldine Publishing Company, 1956.
Villari, Luigi. *Italian Foreign Policy Under Mussolini*. New York: Devin-Adairco, 1950.
Wallerstein, Immanuel Maurice. *The Capitalist World-Economy: Essays*. Cambridge, Mass.: Cambridge University Press, 1980. (Studies in Modern Capitalism)
Warren, Bill. *Imperialism: Pioneer of Capitalism*. London: New Left Books, 1980.
Waterbury, John. *The Commander of the Faithful: The Moroccan Political Elite: A Study in Segmented Politics*. London: Weidenfeld; New York: Columbia University Press, 1970. (Modern Middle East Series; vol. 2)
Webster, R.A. *Industrial Imperialism in Italy, 1908-1915*. Berkeley, Calif.: University of California Press, 1975.
Williams, Eric. *Capitalism and Slavery*. New York: Perigee, 1980.
Willis, John Ralph (ed.). *Studies in West African Islamic History I*. London: Frank Cass, 1979.
Willmont, S.G. and J.I. Clarke (eds.). *Field Studies in Libya*. Durham, England: Durham University Press, 1960.
Wolf, Eric Robert. *Europe and the People Without History*. Cartographic Illustrations by Noël L. Diaz. Berkeley, Calif.: University of California Press, 1982.
———. *Peasant Wars of the Twentieth Century*. New York: Harper and Row, 1969.
Woolf, J.J. (ed.). *European Fascism*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1970.
Ziadeh, Nicola Abdo. *Sanusiyyah: A Study of a Revivalist Movement*. Leiden: Brill, 1958.

Periodicals

Abou El-Haj, Rifaat. «An Agenda for Research in History: The History of Libya Be-

tween the Sixteenth and Nineteenth Centuries.» *International Journal of Middle East Studies:* no. 15, 1983.

———. «Social User of the Past: Recent Arab Historiography of Ottoman Rule.» *International Journal of Middle East Studies:* no. 14, 1982.

Abu-Lughod, Lila. «Zones of Theory in the Anthropology of the Arab World.» *Annual Review of Anthropology:* no. 18, 1989.

Abu-Zeid, Ahmad. «The Sedentarization of Nomads in the Western Desert of Egypt.» *International Social Science Journal:* vol. 10, no. 4, 1959.

Adams, C.C. «The Sanusis.» *Muslim World:* vol. 36, no. 1, January 1946.

Ahmida, Ali Abd Al-Latif. «Colonialism and the Formation of the Arab States: The Tunisian and Libyan Experiences.» *Arab Journal of International Studies:* vol. 1, no. 2, Summer 1988.

Amin, Samir. «Modes of Production and Social Formation.» *Ufahamu:* vol. 4, no. 3, Winter 1974.

Anderson, Lisa S. «Nineteenth Century Reform in Ottoman Libya.» *International Journal of Middle East Studies:* no. 16, 1984.

Anderson, Perry. «Portugal and the End of Ultracolonialism.» *New Left Review:* May-June 1962.

Asad, Talal. «Anthropology and the Analysis of Ideology.» *Man:* vol. 14, no. 4, December 1979.

Ayyub, Abdal-Rahman. «The Hilali Epic: Material and Memory.» *Revue d'histoire maghrebine:* vol. 11, nos. 35-36, décembre 1984.

Bair, Stephen. «Trans - Sahara Trade and the Sahel. Damergu, 1870-1930.» *Journal of African History:* no. 18, 1977

Bennoune, Mahfoud. «The Origin of the Algerian Proletariat.» *MERIP Reports:* February 1981.

Berman, J. «The Concept of Articulation and the Political Economy of Colonialism.» *Canadian Journal of African Studies:* vol. 18, no. 21, 1984.

Boahen, Adu A. «The Caravan Trade in the Nineteenth Century.» *Journal of African History:* vol. 3, no. 2, 1972.

Brener, Robert. «Agrarian Class Structure and Economic Development in Pre-Industrial Europe.» *Past and Present.* no. 70, February 1976.

———. «The Origins of Capitalist Development: A Critique of Neo-Semithian Marxism.» *New Left Review.* no. 104, July-August 1977.

Burke, Edmund, III. «Understanding Arab Protest.» *Arab Studies Quarterly:* vol. 8, no. 4, 1988.

Cahen, Claude. «Quelques mots sur les hilaliens et le nomadisme.» *Journal of Economic and Social History of the Orient:* no. 11, 1963.

Carmi, Shulamit and Henry Rosenfeld. «The Origins of the Process of Proletarianization and Urbanization of the Arab Peasants in Palestine». *Annuals of the New York Academy of Sciences:* vol. 220, no. 6, 1974.

Caunelle, André. «Le Fezzan soul bey Khalifa.» *Bulletin de liaison saharienne:* vol. 9, no. 32, 1959.

———. «Les Goueyda d'ouenzerik.» *Bulletin de liaison saharienne:* 1959.

———. «Le Nomadisme de Megarha (Fezzan).» *Travaux de l'institut de recherches sahariennes:* no.12, 1954.

———. «Le Nomadisme de Zintan (Tripolitaine et Fezzan).» *Travaux de l'institut de recherches sahariennes*· vol. 9, no. 2, 1958
———. «Le Nomadisme des Guedudfa.» *Travaux de l'institut de recherches sahariennes*· 1995.
Chakrabarty, Dipesh. «Post Coloniality and the Artifice of History: Who Speaks for «Indian» Pasts?» *Representations:* no. 37, Winter 1992.
Chakravorty Spivak, Gayatri. «The Rani of Sirmur: An Essay in the Reading of Archives.» *History and Theory:* vol. 24, no. 3, 1985.
Chandara, Bipan. «Karl Marx, His Theories of Asian Societies and Colonial Rule.» *Review:* vol. 5, no. 1, Summer 1981.
Colucci, Massimo. «Il dirito Consuetudinario Della Cirenica.» *Rivista Giuridica Del Medio Estremo Oriente E Guistizia Colonial:* no. 1, 1932.
Cordell, Dennis D. «The Awlad Sulayman of Libya and Chad: Power and Adaptation in the Sahara and Sahel.» *Canadian Journal of African Studies:* vol. 19, no. 2, 1985.
———. Eastern Libya, Wadai and the Sanusiyya: A Tariqa and a Trade Route.» *Journal of African History:* vol. 18, no. 2, 1972.
Currie, Kate. «Problematic Modes and the Mughal Social Formation.» *Insurgent Sociologist:* vol. 9, no. 2, 1980.
Dalton, William. «Patronage in Libyan Rural Development.» *Nomadic Peoples:* no. 18, June 1985.
Davis, Horace. «Nations, Colonies and Social Classes: The Position of Marx and Engels.» *Science and Society:* no. 29, 1965
De Reynaud, E. Pellissier. «La Regence de Tripoli.» *Revue des deux mondes:* no. 12, 1955.
De Rosa, Luigi. «Economics and Nationalism in Italy (1861-1914).» *Journal of European Economic History:* vol. 11, no. 3, Winter 1983.
Despois, Jean. «Types of Native Life in Tripolitania.» *Geographical Review:* no. 35, 1945.
Di Agostini, Enrico. «Sulla Populazioni Della Libia.» Libia: Gennio-Marzo 1954.
Dresh, Paul. «Segmentation: Its Roots in Arabica and Its Flowering Elsewhere.» *Cultural Anthropology:* no. 3, 1988.
Dupree, Louis. «The Non-Arab Ethnic Groups of Libya.» *Middle East Journal:* vol. 12, Winter 1958.
Dyer, Mark. «Export Production in Western Libya, 1750-1793.» *African Economic History:* no. 13, 1984.
Fisher, Hans. «A Journey from Tripoli Across the Sahara to Lake Chad.» *Geographical Journal:* March 1909.
Fisher, Humphrey J. and Virginia R. Fisher. «Fire Arms in Central Sudan.» *Journal of African History:* vol. 12, no. 2, 1971.
Folyan, Kola. «Tripoli and the War with the U.S.A., 1801-1805.» *Journal of African History:* vol. 13, no. 2, 1972.
Forbes, Rosita. «Across the Libyan Desert to Kufra.» *Geographical Journal:* vol. 58, no. 2, August 1921.
Friedman, Harriet. «Household Production and the National Economy: Concepts for the Analysis of Agrarian Formations.» *Journal of Peasant Studies:* vol. 7, no. 2, 1980.
Goodchild, Robert. «Farming in Roman Libya.» *Geographical Journal:* no. 25, 1952.

Gorin, Zeev. «Socialist Societies and the World System Theory· A Critical Survey.» *Science and Society*· vol. 49, no. 3, Fall 1985.

Hallaq, Wael B. «Was the Gate of Ijtihad Closed?» *International Journal of Middle East Studies:* no. 16, 1984.

Hall, Thomas. «Incorporation in the World System, Toward a Critique.» *American Sociological Review:* no. 51, June 1986.

———. «Peripheries, Regions of Refuge, and Non-State Societies: Toward a Theory of Reactive Social Change.» *Social Science Quarterly:* no. 64, 1983.

Hamilton, C.A. «Ideology and Oral Tradition: Listening to the Voices from Below.» *History in Africa:* no. 14, 1987.

Hamzaoui, Salah. «Non-Capitalist Relations of Production in Capitalist Society: The Khammessat of Southern Tunisia » *Journal of Peasant Studies:* vol. 6, no. 4, July 1979.

Harrison, Robert. «Migrants in the City of Tripoli.» *Geographical Journal.* no 57, July 1967.

Helfgott, Leonard. «Tribalism as Socio-Economic Formation in Iranian History.» *Iranian Studies:* no. 10, 1977.

Hess, Andrew. «Fire-Arms and the Decline of Ibn Khaldun' s Military Elite.» *Archivum Ottomanicum:* no. 4, 1972.

Hilal, Jamil. «Agriculture and Socio-Economic Change in the Region of Msillata, Tripolitania.» *Dirassat: Libyan Economic and Business Review* (Benghazi University): vol. 5, no. 1, Spring 1969.

Iliffe, John. «The Social Organization of the Maji Maji Rebellion.» *Journal of African History:* vol. 8, no. 3, 1967.

Jami, Abdal-Qadir (Jamey Bey). «Ghat and its Surroundings.» *Geographical Journal:* vol. 34, no. 2 1909.

Joffe, E.G.H. «British Malta and the Qaramanli Dynasty, 1800-1835.» *Revue d'histoire maghrebine:* vol. 12, nos. 37-38, juin 1985.

———. «Trade and Migration Between Malta and the Barbary States, 1835-1911».

Johnson, Marion. «Calico Caravans: The Tripoli Kano Trade After 1880.» *Journal of African History:* no. 17, 1976.

Krause, G.A. «Aufzeichmungen Über Die Stadt Ghat in Der Sahara.» *Zeitschrift Der Gesellschaft Für Erdkunde:* no. 17, 1882.

Lacoste, Yves. «General Characteristics and Fundamental Structures of Medieval North Africa.» *Economy and Society:* vol. 3, no. 1, 1974.

Le Gall, Michel F. «The Ottoman Government and the Sanusiyya: A Reappraisal.» *International Journal of Middle East Studies:* no. 21, 1989.

Lovejoy, Paul E. and Stephen Bair. «The Desert-Side Economy of Central Sudan.» *International Journal of African Historical Studies:* vol. 8, no. 4, 1975.

Mafeje, Archie. «The Ideology of Tribalism.» *Journal of Modern African Studies:* vol. 9, no. 2, 1971.

Martin, B.G. «Five Letters from the Archives of Tripoli.» *Journal of the Historical Society of Nigeria:* 1962.

Medana, A. «Il Vilayet Di Tripoli Di Barbaria Dell' Anno 1901.» *Bolletino Degli Affari Esteri:* November 1904.

Meillassoux, Claude. «From Reproduction to Production.» *Economy and Society:* no. 1, 1972.
Miège, Jean Louis. «La Libye et la commerce trans saharien au XIX siècle.» *Revue de l'occident musulman et de la Méditerranée:* no 19, 1975.
Mori, R. «La Penetrationi Pacifica Italiana in Libia dal 1907 al 1911 e il Banco Di Roma.» *Revista Di Studi Politici International:* no. 24, 1975.
Morsy, Magali. «Maghrebi Unity in the Context of the Nation-State: A Historian's Point of View.» *Maghreb Review:* vol. 8, nos. 3-4, 1983.
Mouzelis, Nicos. «Modernization, Underdevelopment, Uneven Development: Prospects for a Theory of Third World Formation.» *Journal of Peasant Studies:* vol. 7, no. 3, April 1980.
Murphy, Rhods «The Decline of North Africa Since the Roman Occupation: Climate or Human.» *Association of American Geographers:* no. 41, June 1951.
Newbury, C.W. «North Africa and the Western Sudan in the 19th Century: A Re-evaluation.» *Journal of African History:* no. 7, 1966.
O'Brien, Jay. «Toward a Reconstruction of Ethnicity: Capitalist Expansion and Cultural Dynamics in Sudan.» *American Anthropologist:* vol. 55, no. 4, December 1986.
O'Hanlon, Rosalind. «Recovering the Subject, Subaltern Studies and Histories of Resistance in Colonial South Asia.» *Modern Asian Studies:* vol. 22, no. 1, 1988.
——— and David Washbrook. «After Orientalism: Culture, Criticism, and Politics in the Third World.» *Comparative Studies in Society and History:* vol. 34, no. 1, January 1992.
Parakash, Gyan. «Post Colonial Criticism and Indian Historiography.» *Social Text:* nos. 31-32, 1992.
———. «Writing Post-Orientalist Histories of the Third World: Perspectives from Indian Historiography.» *Comparative Studies in Society and History:* vol. 32, no. 2, 1990.
Poncet, Jean. «Le Mythe de la catastrophe hilalienne.» *Annales économies, sociétés, civilisations:* no. 22, septembre-octobre 1967.
Post, Kent. «Peasantization and Rural Political Movements in West Africa.» *Archives européennes de sociologie:* vol. 8, no. 2 1972.
Poulantzas, Nicos. «On Social Classes.» *New Left Review:* no. 70, March-April 1973.
Ranger, T.O. «Connections Between Primary Resistance Movements and Modern Mass Nationalism in East and Central Africa.» *Journal of African History:* vol. 9, no. 3, 1968.
Rey, Pierre - Phillipe. «Class Alliances.» *International Journal of Sociology:* vol. 7, no. 2, 1982.
Rochat, G. «Il Genocidie Cirenico e la Storigrafia Coloniale.» *Belfagor:* no. 35, 1980.
Rodd, Francis (ed.). «A Fezzani Military Expedition to Kanem and Bagirmi in 1821.» *Journal of the Royal African Society:* no. 35, April 1936.
Rodney, Walter. «The Imperialist Partition of Africa.» *Monthly Review:* vol. 21, no. 11, April 1970.
Rosenfeld, Henry. «The Social Composition of the Military in the Process of State Formation in the Arabian Desert.» *Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland:* no. 95, 1956.

Roy, William. «Class Conflict and Social Change in Historical Perspective.» *Annual Review of Sociology:* no. 10, 1984.
Shotter, John. «Rhetoric and the Recovery of Civil Society.» *Economy and Society:* vol. 18, no. 2, May 1989.
Slousch, N. «La Tripolitaine sous la domination de Karamanli » *Revue du monde musulman:* vol. 6, no. 11, novembre 1908.
Slyomovic, Susan. «Arab Folk Literature and Political Expression.» *Arab Studies Quarterly:* vol. 8, no. 2, 1986.
Stambouli, Fraj and Abdel-Kader Zghal. «Urban Life in Precolonial North Africa.» *British Journal of Sociology:* no. 27, March 1976.
Subtil, E. «Histoire de Abdel-Gelil, Sultan du Fezzan, assassiné, 1542.» *Revue de l'orient:* no. 5, 1844.
Thiry, Jacques. «Le Fezzan notes historiques et socio-économiques.» *Correspondance d'orient études:* no. 3, 1963.
Toni, Youssef. «Tribal Distribution and Racial Relationships of the Ancient and Modern People of Cyrenaica.»

حوليات كلية الآداب (جامعة عين شمس، كلية الآداب): العدد ٨، ١٩٦٣.

Al-Twair, Muhammad Ahmad. «Agriculture in the Regency of Tripoli During the Direct Ottoman Rule.» *Revue d'histoire maghrebine:* vol. 12, nos. 39-40, décembre 1985.
United States National Archives (USNA), Report of the American Consul in Tripoli. «Marine Forces in Tripoli.» 16 May 1801.
Vikor, Knut S. «Al-Sanusi and Qadhafi-Continuity of Thought?» *Maghrib Review:* vol. 12, nos. 1-2, 1987.
Visher, Adolf. «Tripoli.» *Geographical Journal:* no. 37, November 1911.
Von Sivers, Peter. «Back to Nature: The Agrarian Foundation of Society According to Ibn Khaldun.» *Arabica:* vol. 27, no. 1, 1980.
Wallerstein, Immanuel. «Comments on Stern's Critical Tests.» *American Historical Review:* vol 93, no. 4, October 1988.
Weiner, Jerome B. «New Approaches to the Study of Barbary Corsairs (1).» *Revue d'histoire maghrebine·* nos. 13-14, janvier 1979.
Wills, John Ralph. «Jihad Fi Sabil Allah: Its Doctrinal Basis in Islam and Some Aspects of its Evolution in Nineteenth Century West Africa.» *Journal of African History:* vol. 8, no. 3, 1967.
Woolf, Stuart. «Statistics and the Modern State.» *Comparative Studies in Society and History:* vol. 31, no. 3, July 1989.
Wright, John. «Outside Perceptions of the Sanusi.» *Maghreb Review:* vol. 13, nos. 1-2, 1988.
El-Zein, Abdul Hamid. «Beyond Ideology and Theology: The Search for the Anthropology of Islam.» *Annual Review of Anthropology:* no. 6, 1977.

Conferences

Proceedings of the International Congress of Africanists, 1, 1962.

Dissertations

Abu El-Haj, Rifaat Ali. *The Nature of the State.* Unpublished Manuscript.

Abu-Swa, Mahmud. «The Arabization and Islamization of the Maghrib: Social and Economic Reconstruction of the History of the Maghrib During the First Two Centuries of Islam.» (Ph. D. Dissertation, History, UCLA, Los Angeles, 1984).

Ahmida, Ali A. «The Structure of Patriarchal Authority: An Interpretive Essay on the Impact of Kinship and Religion on Politics in Libya Between 1951-1960.» (M.A. Paper of Distinction, Political Science, University of Washington, Seattle, 1983).

Anderson, Lisa S. «States, Peasants and Tribes: Colonialism and Rural Politics in Tunisia and Libya.» (Ph. D. Dissertation, Political Science, Columbia University, 1980).

Barbar, Aghil M. «Tarabulus (Libyan Resistance to Italian Invasion, 1911-1920).» (Ph. D. Dissertation, History, Madison, University of Wisconsin, 1980).

Cordell, Dennis D. «The Awlad Sulayman of Libya and Chad: A Study of Raiding and Power in Chad Basin in the Nineteenth Century.» (M.A. Thesis, Madison, University of Wisconsin, 1972).

Fatah, Hala M. «The Development of Regional Markets of Iraq and the Gulf, 1800-1900.» (Ph. D. Dissertation, History, Los Angeles, University of California, 1986).

Fituri, Ahmad Said. «Tripolitania, Cyrenaica and Bilad Al-Sudani Trade Relations During the Second Half of the Nineteenth Century.» (Ph.D. Dissertation, History, University of Michigan, 1982).

Gashut, Shaban Fituri. «The Development of Libyan Newspapers, 1860-1972: A History and Interpretation.» (M.A. Thesis, University of Kansas, 1972).

El-Horeir, Abdul Mola S. «Social and Economic Transformations in the Libyan Hinterland During the Second Half of the Nineteenth Century: The Role of Sayyid Ahmad Al-Sharif.» (Ph. D. Dissertation, History, Los Angeles, UCLA, 1981).

Ibrahim, Abdallah A. «Evolution of Government and Society in Tripolitania and Cyrenaica (Libya), 1835-1911.» (Ph. D. Dissertation, University of Utah, 1982).

Le Gall, Michel F. «Pashas, Bedouins and Notables: Ottoman Administration in Tripolitania and Benghazi, 1881-1902.» (Ph. D. Dissertation, History, Princeton University, 1986).

Pamuk, Sevket. «Foreign Trade, Foreign Capital and the Peripheralization of the Ottoman Empire, 1830-1913.» (Ph. D. Dissertation, Economics, Berkeley, University of California, 1978).

Salem, Salaheddin H. «The Genesis of Political Leadership in Libya, 1952-1969.» (Ph. D. Dissertation, History, George Washington University, 1973).

Streicker, Allen. «Government and Revolt in the Tripoli Regency, 1795-1855.» (M.A. Thesis, Northwestern University, 1970).

Swedenburg, Theodore. «Memories of Revolt: The 1936-1939 Rebellion and the Struggle for a Palestinian National Past.» (Ph. D. Dissertation, Anthropology, Austin, University of Texas, 1988).

الدكتور علي عبد اللطيف حميدة

- من مواليد ودان (ليبيا).
- حصل على بكالوريوس في الاقتصاد والعلوم السياسية عام ١٩٧٦ من جامعة القاهرة.
- حصل على الماجستير (بامتياز) في العلوم السياسية عام ١٩٨٢ من جامعة واشنطن في سياتل.
- حصل على الدكتوراه في العلوم السياسية عام ١٩٩٠ من جامعة واشنطن في سياتل في الولايات المتحدة الأمريكية.
- يعمل أستاذاً مساعداً للعلوم السياسية في جامعة نيو انغلند (الولايات المتحدة الأمريكية).
- شارك في بحوث ودراسات عدة عن الشرق الأوسط والمغرب العربي الكبير.

الطبعة الثانية

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون

ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣ - بيروت - لبنان

تلفون: ٨٦٩١٦٤ - ٨٠١٥٨٢ - ٨٠١٥٨٧

برقياً: «مرعربي» - بيروت

فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

